# تَرَانِيمُ رُوحٍ
# وَأَشْجَانُ قَلْبٍ

ترجمة كتاب

Çağ ve Nesil Serisinden Derlemeler

عن التركية








**دار النيل للطباعة والنشر**

الطبعة السادسة: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN: 978-975-315-350-8



**DAR AL-NILE**

Emniyet Mah. Huzur Sok. No: 5

34676 Üsküdar – İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 3186011 Faks: +90 216 3185220

**مركز التوزيع / فرع القاهرة**

**العنوان:** ٧ ش البرامكة – الحي السابع – مدينة نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١+

المحمول: ٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨+

**جمهورية مصر العربية**

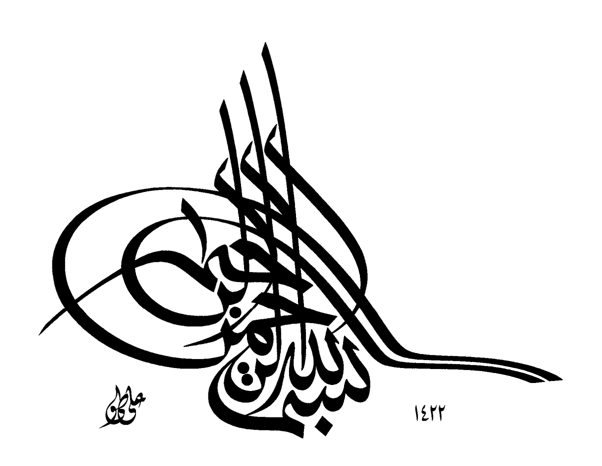
www.daralnile.com




تأليف

محمد فتح الله كولن

المترجم: اورخان محمد علي



# المقدمة

يدق الأستاذ "محمد فتح الله كولن" في هذا الكتاب على أبواب القلب، يطرق ويديم الطرق: "اِفتحْ يا قلب... دعني ألج بكلماتي إليك... دعني أُعالج أغلاق خزائنك... دعني أكشف عن أسرار مداخلك... دعني أطلق قواك الخفية... وأُدير مفتاح الفهم عن الله في روحك... دعني أبتعث فيك مواجيد الحنين... دعني أنفض عن أهداب روحك نعاس السنين... دعني أشقّ أكفان الموت عنك... دعني أبدد ضبابيات الأرض التي تغشى وجودك... دعني أنقش صورة الآخرة على صفحة الشغاف منك... دعني أعَرِّف ذاتك بذات الكون... دعني أعقد معرفة بينك وبين الطبيعة... وصلحاً بينك وبين شقيقك الإنسان..!"

والأستاذ فتح الله كما هو قمة عالية في أفكاره الإيمانية والدينية، فهو كذلك قمة عالية في قدراته الأدبية والفنية، يجمع بينهما بجدارة واستحقاق، ومن هنا تأتي كتاباته مزيجاً من الاثنين معاً، فتتميز وتنفرد مذاقاً وأسلوباً.

فهذا الكتاب مجموعة مقالات افتتاحية يواصل الأستاذ كتابتها في مجلة الرشحة (Sızıntı) الشهرية، وهي تؤكد ما ذهبنا إليه من هذا المزج بين القدرة الدينية والقدرة الأدبية عند هذا الرجل، يعالج فيها قضايا إيمانية عظيمة الأهمية بأسلوب أدبي رشيق يستطيبه وينجذب إليه القرّاء مهما كانت مستوياتهم الثقافية والفكرية.

وأفكار "كولن" كيانات حيّة تنبض بالحيـــاة، لأنها بعض نفسه، وبعض من فلذات روحه وقلبه، زَقَّهَا حباتِ الروح، وســـقاها دم القلب قبل أن تنضج وتستوي وتأخذ طريقها إلى عقول القرّاء وقلوبهم.

ولا شيء من الوصف يصدق على الرجل كما يصدق عليه وصفنا بأنه روح عظيم حَوَّامٌ فوق عظيم الأفكار بدافع من شرف المحتد، ونبل الخُلق، وطهارة الضمير، وهو كثير الانطلاق إلى مواطن الذكرى من التاريخ الذي ينتمي إليه، حتّى غَدا قلبه غابة شجن وَوَجْد، ودمعه ينبوع حرقة وكمد، يكاد يتمزق عندما يُمرّ على أطلال حضارة كانتْ يَوْماً مَا مِلأً عين العالم وسمعه، أو يُقَلِّبُ صفحات دين مهجور جفاه أهله، ونأى عنه القريب قبل الغريب. وجهل ناسه مواطن العظمة فيه فنسوه وأهملوه.

إنه يسجل في هذه المقالات أطهر مشاعره، وأقدس أحاسيسه، وهو يحوم حول الكعبة المشرفة التي يرى أنها سُرَّة العالم، ونقطة المركز من الأرض، وصلة الوصل بين الأرض والسماء.

وأما القبَّة الخضراء –وما أدراك ما القبة الخضراء– فعندها يذوب الحشا ويركع القلب، وتخشع الروح، وتتساكب العبرات، وتتقطَّع الأنفاس، ويرتفع أنين الشوق حتى يلامس السماء. إنه في الحضرة المحمدية التي يتمنى أن يكون ذرة في ترابها تطأها قدما أطهر إنسان مشى على وجه البسيطة.

ويمضي في سُرَاه حتى يصل بيت المقدس وقبَّة الصخرة، وينثر هناك فوق هذه الصخرة التي عرج منها الرسول ﷺ إلى السماء مدامع قلبه، ودفقات حنينه، وومضات أشواقه، إنه يصغي إلى الصخرة العتيدة وهي تحكي قصة التاريخ الروحي للبشرية منذ آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ.

ويمضي عائداً فيتحدث عن "آيا صوفيـــا" الصرح التاريخي العتيد، وعن جامع "السلطان أحمد" الذي يقوم شامخاً قبالتها يتحدّى عظمتها ويعتلي فوق هامتها وبلمعة من لمعات روحه يكتشف سرّ ذلك، ويتعرّف على خفايا

الرمز الذي يربط بين الصرحين العظيمين، وعن المعاني الروحية الكامنة في سرِّ الأحمدية "التي يستمد الصرحان منه الكثير من هيبتهما". وسيجد القارئ إلى جانب هذه الموضوعات التي استعرضناها آنفاً، موضوعات أخرى نذكر منها على سبيل المثال الآتي: العيد، العالم السري للمعابد، الدعاء، إحساس آخر بالزمن، وموضوعات أخرى سيلتقيها القارئ على صفحات هذا الكتاب.

آمل أن أكون قد وفِّقْتُ -إلى حد ما- برسم بعضٍ من ملامح هذا الكتاب وسماته العامة. وأغلب ظني أن القارئ الكريم سينتهي منه وقد استمتع بموضوعاته المتنوعة وأفاد الكثير منها، والله تعالى من وراء القصد.

**أديب إبراهيم الدباغ**

# سحر الإسلام

وصلت مغامرة الإنسانية على هذه الأرض بالإسلام إلى هدفها كرسالة إنقاذ عالمية استقرت وتأصلت فيها. أما الفلسفة التي ما فتئت حائرة أمام لغز الوجود، فقد استطاعت بفضل نظم التفكير المتميزة والمتفردة التي جاء بها الإسلام أن تعود لنفسها قليلا وأن تتمتم ببعض الأشياء الإيجابية. لقد تخلصت الأجرام والأجسام الهائلة الموجودة في الأرض وفي السماء -بفضل النور الذي سلطه الوحي على وجوهها- من كونها مجرد أجسام فضائية معقدة، وتحولت إلى معارض هائلة وإلى كتب للقراءة والتأمل، وإلى أنغام متناسقة تأخذ بالألباب وتدير الرؤوس، وإلى ألسنة بليغة وطلقة تهتف وتفشي -في إطار حكمة خلقها- أسرار ما وراء خلقها. وأصحاب القلوب المحظوظة الذين تيسر لهم أن ينهلوا مرة واحدة من ينبوع الإسلام المتفجر دوما بالماء السلسبيل يصلون إلى متعة الشعور بلذة الوجود الأبدي وسعادته، فيتخلصون من شقاء الوحدة واليأس النابعين من جبلتهم وطبيعتهم.

الذين يعيشون الإسلام كما أنـزل، يحيون بقلوبهم في هذه الدنيا وكأنهم يعبّون من كؤوس اللذة في جنة الفردوس. وإذا استثنينا الذين يفسرون الإسلام كما يحلو لهم، فإن من تعرف بظله مرة واحدة يتخلص من قلق العدم والفناء، ومن ظلام وعقدة الوعود الكاذبة، ويأخذ نفَس راحة ولو لمدة مؤقتة. وإذا كان هناك أي فكر فتحه الإسلام أمام المؤمنين به، وأي حياة أخرى موعودة خارج هذه الحياة، فهي حياة الجنة للمؤمنين. والقدرة الإلهية الخالقة مهدت للمؤمن حتى النقطة الأخيرة لما وراء أفق الدنيا وأعطته خاتم سليمان، لذا بدأ السلاطين باتباع العدالة، وأصبحت القوة حامية للحق، وانفتحت الأبواب على مصاريعها أمام العلم، وانكسرت القيود والأغلال

التي كانت تعيق حرية الفكر، وتوجهت الشياطين -بعد نـــزعها لقرونها- إلى المعابد، وتخلى الملوك عن ظلمهم وجبروتهم، وساروا في طريق العدالة.

وبفضل الحكمة المنبثقة عن روح الإسلام (يمكن إطلاق تعبير الفلسفة الإسلامية على هذه الحِكَم) تغير الوجه العام للفكر، وتغيرت معالم وجه الأرض حتى أصبحت تشـــبه ديباجا رائعا، وتحول الوجود والحوادث إلى خطيب مفوه وواعظ مؤثر، كما انقلب أديم الأرض إلى أم رؤوف تضم الجميع إلى صدرها الحاني، وبدأت المياه تبعث بخريرها نغمات العشق والْوَلَه والوصال إلى قلوبنا، وتُسمعنا أنغام اللانهاية. أما الجبال المهيبة، والوديان، والسهول المنبسطة فقد أصبحت ممثلة وصوتا لعمقٍ يتجاوز كيانها وبنيتها المادية، وبدأت البساتين والحدائق تمطرنا بألوانها المختلفة بالبسمات، وتقدم الورودُ والأزهارُ بكل سخاء أروع أنواع الجمال التي تدير الرؤوس وتعرضها أمام أنظارنا وقلوبنا، حتى ذاقت أرواحنا فرحة الوجود، وذاق العارفون بالله سعادة لا يمكن التعبير عنها ولا وصفها.

أما أصحاب الحظ النكد الذين لم يدركوا بعدُ أن الإسلام أعظم هدية لله تعالى للإنسانية -وهذا ناتج إما عن حكم مسبق، أو عن سوء تمثيل المسلمين للإسلام- فلا يفهمون الرسالة التي قدمها ولا يدركونها، ولا يستطيعون فهم وعوده وبشاراته، ولا الإحساس بها. ولا يتغير هذا الأمر السلبي عند أمثال هؤلاء حتى وإن داروا حولـــه وتجولوا بقربه. فهم قريبون منه ظاهرا ولكنهم بعيدون عنه جدا في الحقيقة. ينظرون إليه على الدوام، ولكنهم لا يفهمونه أبدا لوجود غشاوة على أبصارهم. حتى إن قربهم منه يصبح وسيلة وسببا للبعد عنه، ويصبح النظر إليه وســيلة لعدم الإبصار ولعدم الاحساس به. ولكن ما العمل! فهذه هي طبيعتهم، والشوك يبقى شـــوكا مؤذيا وإن كان قرب زهرة جميلة وعطرة. والغراب يبقى غرابـــا وإن حط على شـــجرة في بســـتان بالقرب من البلابل، ويبقى صوته صوت غراب. إنّ عدد الذين

يلعنون النـــور ليس قليلا. ولقد رأينا جميعا الذين حاربوا النظام والأمن. وعندما أتذكر أو أرى من يتقيأ عند شـــمّ رائحة الورد يتعكر مزاجي. والخلاصة أن كلا يعمل على شاكلته.

تبتهج الأرواح -التي تعرفت على الإسلام وأنست به- بنداء اللانهاية الذي تسمعه وهو صادر من كل شيء حواليها. فمن يخطو إلى شاطئه الآمن الهادئ يتبوأ الصدارة وإن عُدَّ من الدهماء عند الناس. وهؤلاء الذين يضعون جباههم على الأرض ساجدين مائة مرة يوميا في جو من المهابة والمخافة يتبارون مع الملائكة الكرام كفرسيْ رهان.

أما التيجان التي لم يستسلم أصحابها للإسلام فهي تيجان مؤقتة زائلة، وكل بيان أو كلام لم يؤخَذ منه، ولم يُستنبط منه ولم يَتخذه أساسا، فهو أسطورة من الأســـاطير أو خرافة من الخرافات. القلوب التي لم تتغذ به، ولم تتشربه تبقى فجة وفارغة، وحظوظها سوداء مظلمة. وقد تلتمع أحياناً وتُبهر بعض العيون، ولكنها لا تستطيع اللمعان طويلا، ولا إضاءة ما حواليها أبدا.

إن احتـــواء أي فكر أو نظام لجميع الأزمنة واحتضانـــه لها، والبقاء والاستمرار على الدوام دون ضعف أو وهن، ولا بهت في اللون أو شحوب، مرتبط بمدى قابليته على تجاوز كل الصعاب. والأفكار والكلمات والحِكَم والنظم التي لا تستطيع تجاوز الزمان والمكان ســـرعان ما يأتي أوان ضمورها وشحوبها وموتها، وتتساقط تساقط أوراق الخريف، وتنمحي أسماء أصحابها وواضعيها.

الإسلام ثابت من جهة، ومتغير ومتطور من جهة أخرى، فهو كشجرة باسقة أصلها في الأرض وفرعها في الســـماء، قـــد ضربت جذورها في الأعماق، تعجز أي عاصفة مهما اشـــتدت عن اقتلاعها، وأغصانها ممتدة للجهات الأربع، تعطي في كل فصل أثمارا جديـــدة. أيْ هو كشجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. وكلما آتى الإسلام أُكُلَه فتح عهدا جديدا.

فيه عصارة اللذات الدنيوية والأخروية... فيه سحر الأبدية والخلود، وسره... يبقى ضياء الشمس الذي تنشره على العالم كذبالة شمعة مرتجفة بجانبه... تبقى بساتين وحدائق إرم ذات العماد أمام بساتين وحدائق المعاني التي ينبتها في القلوب كصحراء جرداء... أما المسافات والعوالم الفسيحة التي يقدمها للعقل وللمنطق وللمشاعر، فلا يسعها الكون الهائل بأكمله.

إن الأفكار النضرة والأنوار التي أهداها الإسلام للفكر الإنساني سماوية كلها، وليست من أي منبع آخر، ولم تَرْضَع من أفكار أخرى، أو تختلط مع أضواء أجنبية، ولم يتكدر صفاؤها بتيارات أخرى، ولم يشعل فتيلها من مواقد أخرى. بل على العكس، فكل بارقة ضوء، وكل بركة، وكل وجه من وجوه الجمال، وكل طعم ولذة مقدمة من قِبَله، إنما هي ثمرة من ثمار ما وراء السماوات، لم تمسسها يد أحد. ولو لم تكن هناك خصومة الأعداء، وأفكارهم وأحكامهم المسبقة الظالمة، ولا جهل الأصدقاء وجحودهم، لاجتمعت الإنسانية جمعاء اليوم حول مائدته السماوية، واتحدت وتصافحت.

لقد بقي الأعداء سادرين في عقدة الخصومة له والعداء معه. أما الأصدقاء فقد كدروا أفقه، لذا حَرَمَنا الإسلام من عطاياه السماوية الثرة، وانكمش على نفسه مثل لؤلؤة داخل صدفتها. إن الشمس تتعاطى ضياءها مع من يتوجه إليها، وتلبس الورود ملابسها المزركشة طوال نظرها للشمس دون أن تطرف عينها، وتبقى الأشجار حية ونشطة ما دامت تديم علاقتها مع الماء ومع التربة والهواء. أيْ أن كل شيء، نعم كل شيء دون استثناء يأخذ مكافأته وجائزته بدرجة دوام ارتباطاته، فإن لم تنصت القلوب للإسلام فلا يستطيع الإسلام إيصال صوته إليها. فإن لم يتم تمثيله بشكل صحيح ولائق خَفَتَ صوته وعجز عن التأثير في الأرواح. وكلما أسند الكلام الجيد بالتمثيل الجيد والقدوة الحسنة استطاع تهييج القلوب، واجتياز جميع العقبات، والوصول إلى كل قلب يحمل استعدادا للخير وتوجها له. وما

أكثر القلوب التي فتحها والتي اجتازت جميع العوائق التي وقفت أمامها، وما أكثر حضارات القلوب التي أسسها أصحاب هذه القلوب التي تنبض على الدوام بتوقير الإسلام عند قيامهم وقعودهم، من الذين يعيشون في جو من المحبة والوجد والعشق، ويحيون به.

أما نحن فالإسلام في نظرنا –حتى مع أرواحنا المتهدمة والخربة هذه– هو أمنيتنا ونور قلوبنا. إن متنا نتمنى أن نموت بين أذرعه وفي حضنه. وإن عشنا نروم العيش في مناخه وتحت ظله. نستمد منه دفء الرغبة في الحياة، والشوق إليها، وعشقها. ذلك لأن كل شيء سينمحي وسينهدم، وكل شيء سيزول من الذاكرة وسينسى في هذه الحياة الفانية. هو وحده الباقي بقيمه دون شحوب أو زوال. وهو وحده الباقي نضرا على الدوام. أينما رفرف عَلَمُه ساد الهدوء والأمن والسكينة، وحيثما تليت خطبته سادت القيم الإنسانية وضُمن بقاؤها. هو الصورة الأرضية للنظام في السماوات... وصورة التلاؤم والتناغم الموجود بين الملائكة على الأرض. الذين ينسجمون مع إيقاعه يكونون في انسجام مع التناغم العام الموجود في الكون، ويتخلصون من أي تضادّ مع الحوادث وحقائق الأشياء أو تضارب معها.

هو نسيج من الذهب الخالص مُحاك بحيث يستحيل على أي نظام آخر الدنو حتى إلى عتبة بابه، أو الاقتراب من إتقان نقوشه ومن ظرفها. فيه نرى تناغم عوالم السماوات وما وراءها، ونسمع فيه نبض قلوبنا، ونستمع إليها. وبالانتساب إليه نجد السر الكامن وراء استيعاب قلوبنا سعة الكون كله. ندرك هذا فنشعر بالرجفة وهي تسري في أجسامنا. ولا يوجد أي نظام معنوي وروحي أو أيّ فلسفة أو أيّ تيار يستطيع أن يَهَبَ العمق والدفء والبهجة للأرواح مثله. فقد وهب الله تعالى له وحده سعادة الروح والبدن، وسعادة المادة والمعنى، وسعادة الدنيا والعقبى.

من لا يستطيع الاستماع إلى صوت الضمير لا يستطيع فهمه. والذين لا ينظرون بعين القلب لا يستطيعون رؤيته بطابعه الأصيل الحقيقي. وكما قال الغزالي "لا يستطيع عقل المعاش الدنيوي أن ينقلب إلى عقل المعاد الأخروي"، وحسب قول جلال الدين الرومي: "إن لم يستطع العقل الترابي أن ينقلب إلى عقل سماوي" فلا مناص من وقوع أقوى منطق إلى وهدة اللامنطق. لقد قاست الإنسانية منذ ظهورها حتى الآن من صخب النـــزاع بين العقل والقلب. ولو فشلنا في إقامة جسر بين العقل والقلب، ولقاء بينهما، وتأمين التناغم والتلاؤم بينهما، فإن هذا النـــزاع والخصام سيستمر.

# أفق القرآن الساحر

القرآن هو الضوء اللامع للكلمات والحروف في عالم الأزل والأبد. هو صوت الملكوت الذي يخاطب فكر الإنس والجن ومشاعرهما. وعندما أتى اليوم الموعود وتحول إلى لؤلؤة خارقة الجمال في أجمل صدفة وأنقاها، رأى فيه أبطال البلاغة والأدب جمالا لا يبهت، وحسنا لا يزول. وسيبقى هذا الكون الكبير الذي هو معرض للجمال والفن والألوان الإلهية المتناسقة والمتناغمة موطن الخوف وبلد الرعب تجول فيه العفاريت والأرواح الشريرة، مع أنه -أي الكون- يُعَدّ كتابا يفشي كلُّ سطر فيه سرا من أسرار الملأ الأعلى، وستبقى سطور هذا الكون وأوراقه مبعثرة ومتشتتة حتى يأتي اليوم الذي يتحول فيه القرآن إلى نور ينهمر على وجه هذا الوجود. ويُجمع الناسُ -عدا أصحاب الأفكار المسبقة- أنه عندما أشرق القرآن كشمس ساطعة، تبددت الغيوم السوداء التي كانت تجثم على الدنيا، وظهر الجمال الباهر للوجود، وانقلبت جميع الأشـــياء إلى فقرات وجمل وكلمات لكتاب ممتع ومؤنس ومبهج لقارئه. عندما رَنّ صوته انهمرت الأنوار على عيون القلب، وبدأت المشاعر التي فارت في الأرواح وتوهجت، والألسنة التي أصبحت ترجمانا لهذه المشاعر بإنشاد أناشيد النور.

أجل!.. فاعتباراً من اليوم الذي أضيئت به العيون والقلوب وتنورت، كم من لغز في الكون كان ينتظر الحل منذ آلاف الســـنوات، وكم من مشاكل معقدة متداخل بعضها مع البعض الآخر كانت تنتظر الحلول حلت الواحدة منها إثر الأخرى، وظهرت العلاقة الصحيحة بين الإنسان والوجود والخالق واضحة وضوح البدر التمام، ولبست كل الألغاز والمعميات لباس المعاني وانتظمت في مدارات الحكمة.

القرآن هو قمة الفكر المتين والصحيح، وأساس التعبير الدقيق، وقاعدة للتعبير المنطقي. وكما كان هذا الفرقان العظيم سيد الكتب السماوية وغير السماوية كان المخاطب الأول له سيد الأنبياء والمرسلين. الكتب السابقة جاءت لكي تضع إشارات على طريقه وأعلاما، أما الكتب التي جاءت بعده فلكي تقوم بشرحه ووضع الهوامش والحواشي، كلٌّ حسب خريطة روحه وغنى ذلك الروح. عَرَفَه مَنْ قَبِلَه بصورته التي بَشّر بها الأنبياء هذه الرسالة، وعرفه الذين جاءوا مِن بعده بصورته المنـــزلة الملموسة، ورأوا التأثير الكبير الذي أحدثه، والانقلاب العظيم الـــذي حققه، فانحنوا أمام بلاغته التي لا تضاهى، واعترفوا بأنــه ســلطان الكلمة والإعجاز البلاغي. وعندما كان القرآن يتنـــزل إلى الدنيا بموجات مختلفة من الأنـــوار لم يَصرِف أصحاب القلوب النيرة نظرَهم عنه أبـــدا، ولم يلتفتوا عنه، بل ارتبطوا بـــه بكل جوارحهم وأرواحهم. أجل!.. بينما كان ينـــزل من السماء كشلال ليملأ القلوب العطشى، فتح أصحاب القلوب الواعية صدورهم له ولم يضيعوا قطرة واحدة منه.

استطاع هذا القرآن أن يوصل صوته إلى أبعد زاوية من زوايا الدنيا في قفزة واحدة، وأن يسكت كل أصوات الشؤم، وأثار في كل فكر يبتغي الحق ولا يملك فكرا أو حكما مسبقا عواطفَ جياشة كأنها أصوات خرير الكوثر، وأطفأ في القلوب التي فتحها نيران الهجر، وفجّر في كل روح أمل الوصال والشوق إليه. الطبائـــع الباردة تحرَّك بها نبضُ الحرارة، أما القلوب المتولهة برغبة الأبدية والخلود فقد أنست به واطمأنت إليه.

وإذا كان هناك من بقي جديدا ونضر الألوان على الدوام في هذه الدنيا الفانية التي يَقدُم فيها كل جديد ويبلى فيها كل نضر، ويبهت فيها كل لون، فهو القرآن. فهو الكتاب الوحيد الذي استطاع أن يقف منذ نـــزوله في وجه جميع الأعاصير والعواصف التي هبت، والأمطار والثلوج التي سقطت،

وفي وجه جميع الظروف القاسية التي ظهرت وبدت أمامه. واستطاع أن يحافظ على أصله ككتاب سماوي وحيد دون تغيير أو تحريف. لذا فما أن يرتفع صوت القرآن من حنجرة قارئ حتى نشعر وكأنه نزل الآن من السماء وكأننا مدعوون إلى وليمة إلهية آتية من الجنة، وعندما ينثر اللآلئ تشعر القلوب المؤمنة أنها قد سَمَتْ واستغنت عن جميع ثروات الدنيا. القرآن قلادة بيان منظومة من الكلام الإلهي، وفيض من العلم الذي يشكل الحدود النهائية للإدراك البشري، وخارطة لكل الوجود مرسومة ومزينة ومحاكة بالحرير اللاهوتي. عندما يُسمَع صوتُه في أي بقعة يبدو كل كلام وكل تعبير آخر نوعا من الضوضاء لا غير. وفي البقاع التي ترتفع فيها أعلامه يغمر النور قلوب المؤمنين، وتنزل الحجارة على رؤوس الشياطين، ويعيش الربانيون هناك أعيادا دائمة.

ربط الله تعالى رب العالمين ذو القوة المتين سعادة الدارين بإرشاده وتوجيهه. فلا يمكن الوصول إلى الهدف من دونه، ومن يستغن عن إرشاده ووصاياه ولا يلتجئ إليه ضائع في الطرق وتائه. هو آخر وأكمل كلام يهدي من اتبعه وسار في إثره، ويوصله إلى الغاية والهدف دون خطأ أو انحراف. ومع أنه يُتلى بكل سهولة صباح مساء فلا يُستطاع الإتيان بمثله. ومن يستمع إليه بأعماقه يشعر أنه قد سمع كل ما يجب سماعه، ومن ذاق هذه اللذة يصبح مطمح النظر الإلهي، وأصوات هؤلاء تتداخل على الدوام مع أنفاس الملائكة.

حتى نزوله وتشريفه للأرض كان كل نبي يشعل مشعل الهداية التي يحملها من مصدر نوره وضيائه، ويحول الصحارى القاحلة حوله بقطرات قليلة منه إلى جنان وارفة الظلال.

بل إن العصور المظلمة التي جال فيها ظِلُّه أصبحت عصورا ذهبية. اما العصور التي تعرفت به عن قرب وعاشته فقد تحولت إلى ما يشبه الجنة. من

وهب نفسه له سما إلى مرتبة الملائكة، وأصبح كل ما في الكون من أحياء وجماد أليفا عنده.

مَنْ فهم القرآن حق الفهم تصبح البحار الواسعة كقطرة ماء أمام ما يرد إلى صدره من إلهام. والعقل الذي تنور بنوره تتحول الشمس تجاهه إلى مجرد شمعة. أنفاسه التي نشعر بها في أعماق قلوبنا تحيينا، وضياؤه الذي يغمر الأشياء يجعل كل موجود برهانا للحق تعالى. من يصله صوته -وإن كان في أبعد أرض وأخفاها- دبت فيه الحياة وكأنه سمع صور إسرافيل. والقلوب التي تستمع لصوته وبلغته الخاصة بـه يتوثب حركة ويحيا وكأنه يستمع إلى نغمات من جبريل، ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:٢). أجل هو بصائر ورحمة للذين لم تمت قلوبهم.

لم يكن القرآن في أي يوم من الأيام -مثل غيره من الكتب- كتابا بقي ضمن إطار زمن أو مكان معين من طفولة الإنسانية. بل هو معجزة كبيرة وشاملة وغنية تتجاوز كل الأزمنة والأمكنة، وتلبي جميع المطالب الإنسانية بدءً من العقائد وانتهاءً بأصغر الآداب الاجتماعية. وهو بعمقه هذا يستطيع حتى اليوم تحدي الجميع وتحدي جميع الأشياء.

قام في العهد الذي نـزل فيه بمواجهة جميع اعتراضات مخاطبيه، وتحداهم أن يأتوا بكتاب، أو حتى بسـورة أو بآية من مثله. ذُهل منه المعارضون الأولون له، وسُحروا من بيانه ومن بلاغته، حتى اتهموا الرسـول ﷺ بأنه ساحر، وأنه شاعر. وإزاء أخباره الغيبية التي أتى بها من وراء الأستار فقدوا صوابهم فقالوا عنه إنه كاهن، ولكنهم عجزوا تماما عن الإتيان بمثله. أيْ أن أبطال الشعر والنثر والخطابة وأعلامها من معارضيه اضطروا إلى الصمت والخرس والانسحاب إلى جحورهم. أما منكرو هذا العصر المعاندون الذين ورثوا روح المعارضة والإنكار من هؤلاء السابقين، إلا أنهم على الرغم من كل أنواع الديماغوغية والديالكتيك وجميع أنواع المجابهة والاعتراض لم

يستطيعوا إنجاز شيء خارج إظهار العجز والغضب. تغيَّر الزمان وتعاقبت العصور واختلفت القناعات ووجهات النظر، وحميت حدة المعارضة والصراع، ولكن القرآن لا يزال واقفا كالطود الشامخ، وكالبحر الواسع، وكالسماء التي لا تحدها حدود تجاه جميع المعارضين وتجاه جميع الاعتراضات. وهو مستمر في بث روعه وروعته في القلوب، وفي هداية العقول. منذ نزوله قبل أربعة عشر قرنا وتربعه على عروش قلوبنا تقلبت عهود كثيرة ظهر فيها العديد من مشاهير البلغاء، ومدارس فكرية عديدة، ونظم عديدة وفلسفات مختلفة. وقد حاول العديد منها هدم القرآن واستعملوا لهذا الغرض كل ما لديهم من وسائل ومن سحر الكلام من بيان ومن بلاغة لهدم القرآن، وخاضوا على الدوام غمار الحرب معه. ولكنهم غُلبوا على الدوام وارتدّوا على أعقابهم خائبين أمام الأسس القوية المتناسقة والمنطقية التي وضعها للكون وللوجود وللإنسان، والإيضاحات العميقة لهذه العلاقات. أجل لقد أتى القرآن بنظرة متميزة للكون وللأشياء وللإنسان بأسلوب غاية في الروعة والسحر. لأنه يتناول الإنسان ككل ضمن الوجود بأكمله، ولا يهمل أيَّ شيء، بل يضع كل شيء مهما كان صغيرا في مكانه المناسب. الأجزاء فيه مرتبطة ارتباطا وثيقا ودقيقا بالكل، والأجوبة المختلفة عن أدق الأسئلة التي تخطر على بال الإنسان في هذا المعرض الكوني الهائل ترد فيه. وبينما يقوم بتحليل أدق المسائل الموجودة سواء في عالم الشهود أم فيما وراء الأستار حتى أدق تفاصيلها، لا يدع هناك أي تردد أو شبهة أو علامة استفهام في العقول. أجل! إن القرآن في جميع هذه التفاصيل الدقيقة التي يوردها لا يدع أي فراغ في هذا الموضوع لا في العقول ولا في القلوب ولا في المشاعر ولا في المنطق، لأنه يحيط بعقل الإنسان وبأحاسيسه وبمشاعره وإدراكه بشكل يجعل الإنسان وهو تحت تأثير هذا العشق يكاد يخرج من هويته الإنسانية متوجها إلى الذات العلية. ومثل جميع السائرين في الطريق إلى الله تعالى ينتقل من الدهشة إلى الذهول ومن الذهول إلى بحر من العواطف

المتلاطمة التي تجعله ينحني من الخشية وهو يقول ﴿قُلْ لَــوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَــوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾(الكهف:١٠٩). إذن فهذا هو القرآن... المفتاح الذهبي لخزائن الكلمات التي لا تنفد ولا تنتهي. والإيمان هو شفرات أو أسنان هذا المفتاح السحري. ولا أعتقد أن من يملك مثل هذا المفتاح وهذه الشفرات سيحتاج إلى أي شيء آخر بخصوص مسائل القواعد والأسس العامة المتعلقة بالإنسان والوجود والكون.

ولا يتوهمن أحد أنني بكلماتي العاجزة هذه أقوم بسرد مديح للقرآن، فمن أنا لكي أمدح القرآن!! وكما قال الشاعر:

من يستطيع وصفه سوى الله الوصّاف؟

الملائكة الكرام المصطفون صفا صفا،

يصفونه ويعظّمونه حتى تحسبهم في طواف...

وقد يظهر من لا يستطيع رؤية هــذه الميزة الخارقة في موضوع البلاغة وجواهر الكلام، ولكن من الواضح أن كل من يستعمل ضميره يعلم أنه لم يخطئ في أي وقت في هذا الصدد، ولا سيما إن أجال ناظريه وشاهد التأثير العالمي للقرآن.

لقد أحدث القرآن في أول عهده بالنــزول وأول عهده بتشريفه الدنيا تأثيرا لا يمكن تصــوره في الأرواح وفي العقول والقلوب أيضا، بحيث إن درجة الكمال التي وصلت إليها الأجيال التي نشأت في جوه النوراني كانت معجزة قائمة بذاتها لا نحتاج معها إلى ذكر اي نوع آخر من معجزاته. ولا يمكن العثور على أي أمثال لهم في مستواهم من ناحية التدين والتفكير وأفق الفكر والخُلق ومعرفة أسرار العبودية. فالحقيقة أن القرآن قد أنشأ جيلا من الصحابة آنذاك لا نبالغ إن قلنا إنهم كانوا في مستوى الملائكة. وحتى اليوم فهو يقوم بتنوير قلوب المتوجهين إليه الناهلين من نبعه، ويهمس في أرواحهم

أسرار الوجود. والذين يَدَعون أنفسهم بكل أحاسيسهم ومشاعرهم وقلوبهم وقابلية إدراكهم تسبح في جوه الذي لا مثيل له سرعان ما تتغير عواطفهم وأفكارهم، ويحس كل واحد منهم بأنه قد تغير بمقياس معين وأنه أصبح يعيش في عالم آخر. أجل! ما أن يتوجه إليه الإنسان من كل قلبه، حتى لا يستطيع بعد ذلك الخلاص من تأثير سحره وجاذبيته. إن القرآن يتناول الطالب الذي جذبه نحوه فيعجنه ويشكله من جديد ويجعل منه شخصا آخر تماما... شخصا رقيقا ذا حساسية مرهفة، إلى درجة أن الإنسان يتأكد بأن أي تغيير لا يكون إلا به، بل يمكن في أحيان كثيرة تحقيق العديد من الأمور والتي كان يخَيَّل من قبلُ أنها مستحيلة التحقيق، حيث تتحول هذه الأمور في ظله إلى حالة اعتيادية مما يُذهل الجميع. والقرآن يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾(الرعد:٣١) لأنه أجرى في القلوب والعواطف والأحاسيس وفي العقول تأثيرا بالغ المدى بحيث أن هذا التأثير لا يقلّ غرابة عن تسيير الجبال أو عن تقطيع الأرض أو تكليم الموتى، أو عن إحياء أجساد بالية منذ آلاف السنين.

كان كل صحابي بطلا في عالم القلب والروح، وكان مجتمع الصحابة مجتمعاً متميزا مباركا نشأ في ظل فيض وبركة القرآن. واستطاع هؤلاء الصحابة إجراء تأثير عميق وكبير على خُمس البشرية، حتى إأن عملهم هذا ما كان يقلّ من ناحية الروعة والخارقية عن قلع الجبال عن أماكنها أو سقي الأموات ماء الحياة أو ربط السماء بالأرض. وما كان هناك أي مجتمع آخر يمكن مقارنته بمجتمعهم الفريد هذا. فهؤلاء الصحابة الذين عُجنوا بروح القرآن، وتشكلت أنفسهم حسب مبادئه السماوية، أي أصبحوا من ناحية الروح والمعنى ترجمانا للقرآن، استطاعوا تحقيق المستحيلات وفتحوا به طرق الخلود أمام الأرواح الميتة، وغيروا وجه الدنيا، ونقلوا الإحساس بلذة عالم الروح إلى المجتمعات التي احتكوا بها وتعرفوا عليها، وكسروا الأقفال

الموجودة على الأفكار وفوق الأفواه، ورفعوا الإنسان مرة أخرى إلى المرتبة الرفيعة التي رفعه الله إليها وشـــرفه بها، وقدموا نظرة جديدة وتفسيرا جديدا لموقع الإنسان في الكون بين الموجودات، وركّزوا الأنظار على السر العميق الموجود بين الأوامر التكوينية وبين القواعد الشرعية، شارحين وموضحين الغاية والحدود النهائية للقلب والإرادة والأحاسيس والمشـــاعر، ومحركين وباعثين أصول وأسس القيم الكامنة والنسبية الموجودة في روح الإنسان، لكي يوجهوا الإنسان العادي إلى طريق الإنسان الكامل. فنجحوا في جعل الإنسان يحس في كل ما يقع بصرُه عليه أو يصل إليه بأحاسيسه، أو يشعر به في قلبه، بأصابع الإرادة الإلهيـــة والقدرة اللانهائية، أي يربـــط كل شيء ويرجعه إلى صاحبه الأصلي.

إن كان المؤمن ثـــاقـــب النظر متفتح البصيرة يقظ الروح والأحاسيس مرتبطا بالله بفكره وتدبره، يكون قـــد ابتعد تماما عن ســـطحية الارتباط بالجسد وبمطالبه، وينظر إلى الحياة من زاوية أخرى ويرى لها طعما آخر، أيْ ينتبه إلى ما وراء أفق هذه الحياة. ومثل رجل الحقيقة هذا يرى ويشاهد في كل شيء في هذا الوجود العلم الإلهي مرفرفا عليه، ويد القدرة عاملة فيه، فيحس برجفة، وتتداخل في نفسه مشاعر الأمل والقرب مع الخشية والرهبة. ومع كونه يعيش في الدنيا إلا أنـــه يحس وكأنه في ذروة من ذرى الآخرة. عندما يأخذ نفسا يحس بالأمل والترقب، وعندما يعطي نفسا يحس بالمخافة والمهابة. ويتجول دائما في الساحة التي رسمها القرآن ويعيش حياته في ظلال القرآن وألوانه.

# الدعاء

الدعاء نداء وتضرع، وتوجه من الصغير إلى الكبير، ومن الأسفل إلى الأعلى، ولهفة من الأرض ومن سـكان الأرض نحو ما وراء السماوات، وطلب ورغبة وطرح لما في الصدور من آلام. والداعي يشعر بضآلته أولا، وبعظمة صاحب الباب الذي يتوجه إليه ثانيا. لذا يكون متواضعا جدا، وعندما يرفع يديه بالدعاء مؤمنا بالاستجابة، يتحول ومن حولـه إلى عالم روحاني وسماوي، وكأنه يسمع تسبيحات وأذكار الروحانيين وأدعيتهم. والمؤمن بهذا التوجه وبهذا الدعاء لا يطلب ما يوده وما يطمح إليه فقط، بل يستغيث أيضا مما يخافه ويخشاه، وهو يعلم بأن الدعاء حصنه الحصين الذي يلجأ إليه.

آمالنا ورغباتنا هي دوافع نجاحنا وتوفيقنا. أما قلقنا وخشيتنا فوسيلة من وسائل يقظتنا وانتباهنا تجاه تصرفاتنا السلبية. ومع أننا لا نعرف ما قدره الله تعالى لنا ولمسـتقبلنا من أمور، نعدّ آمالنا وخشيتنا في كل حين وعزمنا وقرارنا أمارة من أمارات ذلك القدر، ونعد دعواتنا القولية والفعلية والحالية وسيلة من وسائل هذا القدر في مستوى الشرط العادي. لأننا نعلم من بيان النبي الصادق المصدوق ﷺ أن النتيجة التي يحصل عليها كل واحد ستتحقق بمقياس كبير حسب سلوكه وأعماله. غير أنه ليس من الصحيح عند التوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن نقدم رغباتنا ومطالبنا، ونربط أدعيتنا بها. ولكن الصحيح هو أن نتوجه إلى الحق تعالى، ونعرض عليه حالنا بشعور العبودية، وبشعور من التواضع والفناء، وبلسان الفقر والعجز.

والحقيقة أننا بأدعيتنا نظهر ثقتنا واعتمادنا وتوقيرنا لربنا، وبأنه قادر على كل شيء. ويجب أن تتوجه أدعيتنا إلى هذا أكثر من توجهها لطلب تحقيق رغباتنا الدنيوية. ونصل أحياناً في الدعاء إلى نقطة نسكت فيها ونصمت، ونكل كل شيء إليه مـــع الاحتفاظ بالتوسل بالأسباب، ونقول كما قال الشاعر:

أحوالنا معلومة يا رب من قِبلك،

ما الدعاء إلا تضرع من عبيدك...

وأحيـــاناً نقتبس أدعيتنا من القرآن الكريم أو من أدعية ســـيد البلغاء والأنبياء، ونفتح يد الضراعة أمام بـــاب الرحمن الذي هـــو محرابنا الأبدي لنشرح ونشكو أحوالنا وما يجول في أعماق أرواحنـــا. ورعايةً منا لأدب المثول أمامه نغلق أفواهنا تماما وننتقل إلى مراقبة صامتة. وهذه الحال حسب بعضهم وبدرجة الصدق المصاحب لها أبلغ من كل كلام، وأفضل من كل بيـــان، وأحسن من كل تضرع. ولما كان الله تعالى على علم بكل أحوالنا، الظاهرة منها والخفية، فـــإن المهم هنا في الدعـــاء اللب والجوهر أكثر من الكلمات نفسها. والله تعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(البقرة:١٨٦). إذن فهو من ناحيـــة معرفة طلباتنا ورغباتنا أقرب إلينا منـــا. لذا فحسب هذه المعرفة بالحضور الإلهي وبالقرب الإلهي فـــإن الأدعية الصامتة هي عين الأدب مع ذلك المستوى المتميز من العباد. وسواء أكان هذا نابعا من مفهوم الغيب أو من مفهوم الحضور الإلهي فإن الله تعالى الذي يقول ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(غافر:٦٠) يشوقنا إلى الدعاء. لذا يعد عدم الدعاء استغناء لا معنى له وانقطاعا وبعدا عن الله تعالى.

إن من يستطيع فتح يديه لله داعيا وضارعا من كل قلبه، ويتوجه لـــه، يستطيع تجاوز البعد الموجود بينه وبين ربه —الـــذي هو أقرب إليه من حبل

الوريد– والنابع من وضعه المادي والجسماني. وباحترامه لهذا القرب يستطيع الخلاص من وحشة بُعده عنه. ويشاء الله تعالى إسماعه ما يجب أن يسمع، ويريه ما يجب عليه أن يرى، وينطقه بما يجب عليه أن ينطق، ويوفقه لعمل ما يجب عليه أن يعمله. وهـــذه المرتبة من القرب مرتبة خاصة يمكن الوصول إليها عن طريـــق النوافل، حيث يرى ما وراء المُشاهَد، ويسمع ما وراء الأصوات، وتكون قابلياته الأخرى أيضا غير اعتيادية، وتتجاوز قدراتـــه السابقة ليصبح في هبة واحدة إنسانا في بُعد آخر، وليرتفع إلى مستوى آخر، ويكون عبدا دائم التضرع لله، يتضرع إليه ويدعوه ويجد منه الاستجابة... يتمسك بالدعاء والتضرع كتعبير عن إيمانه بالقدرة غير المحدودة لربه، ويسند ظهره إلى قوته غير المحدودة، فلا تفتر شـــفتاه عن الدعاء في كل أمر من الأمور وإن بدا أبعد شيء عن التحقق.

ولهذا فإن الأرواح التي وصلت لمستوى تذوق لـــذة الإيمان وسمت بالعبادات، لا تقصّر أبدا في الدعـــاء. على العكس من هذا، فهي تدرك أن العبادات هي غاية الموجودات وســـبب خلقها. لـــذا تعطي للدعاء أهمية قصوى. وبجانب قيـــام أصحاب هذه الأرواح برعاية الأســـباب المادية والمعنوية، يسارعون إلى فتح يد الدعاء والتضرع لربهم من أعماق قلوبهم، ويرون أن الأدعية وسيلة تقربهم إلى خالقهم، وهي منبع آمالهم ورجائهم. وفي مثل هذا الجو من القرب يُحَسّ بجو من المهابة والقلق إلى جانب الشعور بالبهجة وتَوقُّع تحقيق الآمال. وعندما ينظر الإنسان إلى كل شيء من خلال تأمله في أزليته وأبديته سبحانه، يحس وكأنه يستمع إلى دقات قلبه المرتعش، وينتقل إلى حالة من اليقظة والتمكين. وهاتان الحالان اللتان تترافقان عادة عند الدعاء وتتداخلان ببعضهما تتسعان وتتطوران بنسبة طردية مع سعة أفق المعرفة الإلهية عند الإنسان. والقرآن يشير إلى حال المؤمن عند الدعاء وإلى حالته الروحية عندما يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(الأعراف:٥٥). وهذه الآية تشير إلى أن المؤمن لا يمكن أبدا أن يستغني عن الدعاء وعن

الالتجاء إلى الله، وإلى أن الله تعالى بجانب عظمته وكبريائه وجبروته فلا يسد أبواب رحمته وعنايته، بل يذكّر الإنسان بأن أبواب رحمته مفتوحة للجميع على الدوام على مصاريعها، ويؤكد على أهمية الدعاء.

ونظرا لكونه هو وحده خالقنا وموجدنا ومطعمنا ومطورنا من حال لحال، والعارف بحاجاتنا ورغباتنا والمستجيب لها، وصاحب الرحمة الواسعة الذي لا يدع أمورنا لغيره، وذلك مقابل عجزنا وفقرنا وضعفنا وحاجتنا، لذا كان من الأهمية بمكان قيامنا بتعيير سلوكنا وتصرفاتنا تجاهه بكل دقة وعناية. نحن عاجزون وضعفاء ومحتاجون، بينما هو الحاكم المطلق على كل شيء. لذا نحس على الدوام بمدى صغرنا، وبمدى عظمته، ولا نتوجه عند طلباتنا الفعلية والحالية إلا إليه وحده دون غيره، ونعلم أن الظهور بمظهر المستغني عنه ليس إلا سوء أدب. كما نَعُدّ أي تصرف يتسم باللامبالاة عند عبادتنا له أو عند توجهنا له بالدعاء، أو أيّ تصرف يفتقر إلى الجدية، عدمَ احترام وعدم توقير. لذا نعتني غاية الاعتناء أن نتوجه إليه على الدوام بمشاعر الخوف والإشفاق والمهابة. وعندما نشعر بمدى قربه منا وبأنـــه سيستجيب لدعائنا نشعر بعظمته وكبريائه جنبا إلى جنب مع ســـعة رحمته وشـــفقته ولطفه... فنرتجف من خشيته ونرتعش، ونعيد النظر في تصرفاتنا وسلوكنا وأعمالنا، وحتى في درجة ارتفاع أصواتنا، ونعيرها من جديد، لأننا سنكون في جو من الشـــعور بأننا تحت مراقبة من لا يغيب عنه شيء، وتحت نظره. فبجانب أذواقنا لا ندع الاحتياط والتدبير. وبهذا المعنى فالدعاء أصفى مظهر من مظاهر العبودية وأصدقها في كل حين لكونه لبّ التوجه إلى الحق تعالى بالطلب وأفضلَ إعلان للعبودية. والحقيقة أن كل الموجودات تدعوه وحده على الدوام بلسان حالها، ونوع قابلياتها، وبلسان حاجاتها الفطرية، فيقوم بالرد والاستجابة لها ضمن إطار من الحكمة، ويسمع كل صوت ويستجيب له.

ولكن ليس من الصحيح توقع الاستجابة لكل أدعيتنا كما هي، لأننا لا

نأخذ بنظر الاعتبار إلا رغباتنا وطلباتنا المتعلقة بأيامنا الحالية. فنضيّق بهذا إطار طلباتنا، وننسى أو نهمل المستقبل أو الأمور الأخرى المتعلقة بنا عن قرب، ولا نأخذها بنظر الاعتبار. ولكنه تعالى يرى حالنا الحاضر، وكذلك مستقبلنا القريب والبعيد في اللحظة نفسها، فيوسع ما ضيقناه حتى يجعل أدعيتنا بوســعة الدارين في الدنيا وفي العقبى، ويستجيب لها ضمن أبعاد متعددة حسب موجبات رحمته وحكمته. أجل!.. فهو عندما ينير أوضاعنا الحالية لا يفسد مستقبلنا، ولا يحوّل أضـــواء أيامنا الحالية إلى ظلمات في المستقبل. وعندما يقوم بالإنعام علينا لا يَسحب من الآخريـــن نعمه ولا يحرمهم من فضله، بل يستجيب للجميع ولكل شيء استجابات عميقة، ليظهر لنا أنه سمع أدعيتنا، وأخذ طلباتنا بنظر الاعتبار، فيهب قلوبنا بقربه وحضوره انشراحا وبهجة وراء كل خيال وتصور.

والقلب المتفتح على هذه المعاني عندما يفتح كف التضرع والدعاء يعلم بوجود من يراه ويحس حتى بأنفاسه، ويعلم ســـره ونجواه، ويشهد أنينه وبكاءه، وهو على كل شيء قدير، وحاكم ومسيطر على كل شيء، يعمل ما يشاء وكيفما يشاء، وأن هناك حِكَما مختلفة في كل ما يفعله، واستنادا إلى رحمته وإرادته ومشيئته يرى بأنه يستطيع التغلب على كل صعب من الصعاب، ويحس بالطمأنينة في أكثر أوقاتـــه توترا، وفي أصعب وأحلك الحوادث التي يجابهها، ولا يتخلى عن أمله أبدا ولا يلفه اليأس مطلقا. وكم من معان عميقة تكمن في توجهه نحوه تعالى عدة مرات يوميا ضمن هذا الإطار محاولا أن يرى ويسمع بقلبه ما وراء هذا العالم المادي. والذي يذوق فضل ونعمة مثل هذا التوجه لا يستطيع ترك ملازمة عتبة بابه تعالى. وحتى وإن لم نستطع الوصول تماما إلى مثل هذا الفضل، نتوجه للمرة الأخيرة نحو باب حظيرته، ونلمس مطرقة الباب لنتضرع وندعو بقلب يئن:

أيها الموجود الأزلي الذي هو ســـبب وعلة وجودنـــا، وروح أرواحنا! يا من نوره ضياء أعيننا وأبصارنا! لو لم تنفخ الروح في أبداننا لبقينا حمأ

مسنونا، ولو لم تهب النور لأعيننا كيف كنا نستطيع فهم وتقييم الكون من حولنا، وكيف كنا نســـتطيع معرفتك؟ لقد أوجدتنا مرتين... مرة عندما خلقتنا... ومرة عندما وهبت لنا الإيمان والعرفان. ولو قمنا بحمدك والثناء عليك بعدد ذرات الكون لما وفّينا حقك من الشكر.

يا أجمل من كل جميل! ويا أبهى من كل بهي! يا من تظهر صور الجمال في كل آن وحين، وتستر ما يبدو قبيحا حتى تضفي عليه مسحة نسبية من الجمال! نتضرع إليك أن تملأ قلوبنا بمشاعر الجمال وأحاسيسه، وأن تبصرنا بطرق الجمال ومسالكه على الدوام.

يا أرحم من كل رحيم! يا من لا تعاقب المسيء فورا، بل تمهل وتتغاضى عمن يتجاوز حدّه، وتترك له فرصة لتنقية قلبه من الذنوب والآثام المعنوية! احفظنا يـــا رب من التلوث بالآثام وبالذنوب، واغفر لنا عندما نتلوث ببعضها، ولا تحرمنا من مغفرتك ومن رحمتك ولا تبعدنا عنها. كنا عدما فأوجدتنا، ونحن مستمرون في الحياة بفضلك وبلطفك وبجودك وإحسانك، محاطون على الدوام بجودك وبإحسانك وكرمك. أنت يـــا رب من يمنح النور لعقولنا، ولذةَ الإيمان لقلوبنا. كان العقل في تشوش وتخبط حتى وصل إليك، وكانت النفس تعدو وراء البغي. وعندما جعلتَ العقل مرشدا وهاديا لجمت به أهواءِ النفس وفتحت أمامها أفق الاطمئنان. لقد وَجدنا أنفسنا بفضلك، وتخلصنا من الضياع هنا وهناك في الدروب بلطفك.

ما وصلت قلوبنا إلى الاطمئنان إلا بمعرفتك. وما تخلصت أفكارنا من الهذيان القاتل وانسلّت منه إلا بالاستسلام لك. أتينا إلى بابك وطرقناه بذلة وخضوع، ندعوك أن تديم هذه الذلة لك إلى أبد الآبدين. اسمك على الدوام على شفاهنا عند دعائك، وننتظر بِرَهْبة وخشية جوابك. لم يســـمعنا حتى اليوم ســـواك، ولم يربّت بشفقة على رؤوســـنا أو ينظر أحد ســـواك إلى وجوهنا. كل ما وجدناه كان من عندك وحدك. وبفضل الإيمان بك تخلصنا

من مشاعر الغربة والحيرة والذهول، ومن آلام الوحدة والوحشة، لذا نتوجه إليك مرة أخرى بكل كياننا نطلب منك العفو والعافية.

نعوذ بك من قساوة القلب، ومن الاستناد إلى غيرك، ومن الغفلة ومن الإهانة والهوان، ومن المسكنة والجهل، ومن علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع، ونفس لا تشبع، ومن دعاء لا يستجاب له، ومن زوال النعم، وتغير الألطاف، ومن عذاب عاجل وغضب ماحق.

ندعوك أن تهب لنا لسانا ضارعا، وقلبا خاشعا. اقبل منا يا رب توبتنا، ونقنا من خطايانا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، واستجب لدعائنا، وافتح آفاق قلوبنا، وألـزم ألسـنتنا كلمة الصدق، وطهر قلوبنا من الدنس يا رب! وهب لنـا يا رب ثباتا في أعمالنا، وعزما وقرارا في طريق القرآن، وحساسية تجاه نعمك. لا تُرجِعْ يـا رب من يـدق بابك خائبا، وتفضل بنعمك وألطافك على عبادك الطائعين، واهد من عصاك وضل عن سبيلك. وزين دعاء المضطرين بالاسـتجابة لهم، وساعد أصحاب الكرب، وعالج أصحاب القلوب المريضة وهب لهم الشفاء، وأظهر نورك للذين يتخبطون في ظلمة الكفر والإلحاد كي لا تبقى فيهم أي نقطة أو ركن مظلم.

# الكعبة

الكعبة هي المحراب المشترك لنبضات قلوب المؤمنين، والتي تم تمجيدها وبيان فضلها عند وصفها بأنها "أول بيت وضع للناس". وضع خطط أسسها وقواعدها فيما وراء هذا العالم، وبُنيت بيد أطهر نبي في وقت لم تكن مواد البناء من لبنات ومواد رابطة قد عرفت أو استعملت في الأرض.

تقرر موقعها وموضعها قبل نـــزول آدم عليه السلام إلى الأرض وتشريفه لها بأعوام وأعوام، إلى درجة أن الملائكة أخبرت يوما آدم عليه السلام بأنها طافت حول الكعبة مرارا قبل خلقه. وبعد الطوفان وحسب الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(البقرة:١٢٧) قام أبو الأنبياء إبراهيم وابنه الكريم إسماعيل عليهما السلام برفع بنيان هذا البيت الذي كان قد هدم وسوّي بالأرض من جديد.

إن الكعبة التي هي عبارة عن مقطع مجسم لعمود نوراني يمتد من مركز الأرض إلى سدرة المنتهى والتي لا يفتر الإنس والجن من الطواف حولها في كل وقت وحين تشتاق إلى حريمها مليارات من الأرواح الطاهرة، المرئية منها وغير المرئية، تود وصالها. أيْ أنها بناء لا مثيل ولا نظير له. فإن قلنا بأن قيمتها تعادل السموات لم نقل شططاً. فاسمها في الأرض وفي الســـماء هو "بيت الله".

في كل عـــام يهرع المؤمنون إلى جوهـــا الروحاني الدافق والدافئ من أرجاء الارض بالطائرات أو الســـيارات أو البواخر، ومنذ بداية رحلتهم يضعون جانبا جميع مشاغلهم اليومية وجميع مشاكلهم وأســـباب قلقهم

ويتخلصون منها. وبعد أن يلتحفوا لباس الحج الأبيض الطاهر يصلون إلى درجة ونوع قريب من الملائكية يغبطون عليها.

في هذه الرحلة المباركة يحس معظمهم بأنهم يتجولون في دهشة وذهول في سواحل عالم آخر ودنيا أخرى. تراهم مرة في وقفة وقورة كوقفة شجرة دلب ضخمة، أو وقفة مهيبة كهيبة غابة صامتة، أو وقفة تذكرك بعظمة البحر الزاخر... ولكنك لن تعدم ملاحظة صفة عامة فيها، ألا وهي صفة الإخلاص والصدق.

الطرق إلى الكعبة طويلة، والمسافات شاسعة ومرهقة. فكما أن طريق التصوف والسير فيه، ومجاهدة النفس وتطهيرها، وكذلك سفوح وتلال ما يحيط بالجنة، والوديان القريبة من جهنم حافلة بالمشاق والصعاب، كذلك فلهذه الرحلة المباركة متاعبها. ولكنها شرط ضروري لزيادة التهيؤ الروحي ولتكملة الاستعداد الداخلي. فكل إنسان يهيئ نفسه في خلال هذه الرحلة ويمتلئ حسب استعداده وقابليته. فلا يصل إلى هناك إلا وقد استعد وتهيأ بزاد كبير.

كانت هذه الرحلة المباركة تتم في السابق على ظهور الخيول والإبل. ويصادف كل حاج في طريقه عشرات الأضرحة والمقابر، ويزور الأماكن التي عاش فيها الأنبياء العظام ويعيش ويتحاور مع خيالاتهم، ويشترك في مجالس الأولياء والأصفياء، فيقتبس منهم نوراً لقلبه، أي تكون رحلته هذه رحلة عامرة بالمعاني، ويتسلح روحه ويتطهر وكأنه اغتسل في محراب الجمال والشعر والرومانسية، فيكون مستعداً لجميع الإلهامات والعطايا الواردة من عالم المعاني، ومستعداً بعد ذلك لطرق باب الحق تعالى.

وبعد أن تتفاعل ما أحس به وحدسه ورآه وما شاهده طوال رحلته في أعماق قلبه وروحه، وتنقلب إلى قابلية فهم وحدس يصل إلى الكعبة –التي

تنتظر زوارها بشوق وتنظر اليهم وقد تطاول رأسها إلى ما وراء السماوات- ويضع نفسه في شوق شديد في أحضانها.

أجل!.. إن كل قلب يشاهد المنظر الوقور للكعبة وظلّ جبهتها النورانية المنعكسة على المرمر، والمعاني التي تمثلها والتي تسمو وتتطاول نحو السموات، وجوها الذي ينبثق نورا، لا بد وأن يلمس بعض المعاني الخاصة الموجودة وراء منظر الكعبة، ويحس بلذة الهدف الذي من أجله قام بهذه الرحلة، وذلك في جو من نشوة العبادة، فيصل إلى سعادة بارتشاف لذة لا توصف.

إن الكعبة ملائمة لموضعها إلى درجة أن كل من ينظر اليها بدقة يكتشف وجود رابطة قوية بين موضعها وموقعها وبين روحها ومعناها. فكأنها لم تُبْنَ بمواد بناء من الخارج بل انبثقت من جوف الأرض، أو كأن الملائكة بنتها في السماء ثم أنزلتها إلى الأرض. وهي تبدو وكأنها تقود حلقة ذكر بين الجبال والتلال وأكوام الحجارة الموجودة بالقرب منها والتي أحرقتها الشمس، وكأن الوجود حولها يئن بأنينها وترفع أيدي الضراعة نحو السماء ثم تصمت وتستمع إليها في خشوع.

الكعبة حريم مفتوح لأسرار الصديق، وما حواليها مضيف مفتوح للغير. والصفا والمروة بمثابة قمرية لمشاهدة سماء الحقيقة وتأملها. وعلى بعد خطوات هناك المقام الإبراهيمي كسلّم نوراني يقود إلى ما وراء الأفق. ثم بئر زمزم وكأنها ساقي الشراب في مجلس العشق الإلهي. وعندما يقوم كل هؤلاء معا بتحية المسافر العاشق، يحس ذلك المسافر بأنه انتقل إلى عالم آخر... إلى عالم أخروي، فيبدأ بالتطلع إلى "عالم الملكوت" من خلال النوافذ التي فتحت في قلبه، وتأخذ أشرعة خياله بالإبحار إلى آفاق رحبة وبعيدة، حتى يخيل إليه أنه لو خطا خطوة أخرى لوجد نفسه في ذلك العالم الخيالي الأزرق الموجود خلف الآفاق البعيدة وراء هذا العالم.

الكعبة بناء أرضي بنيت بمواد بنائية موجودة حواليها، ولكنها تبدو

كزهرة نبتت في حضن العماء[1] وامتدت جذورهـا منها واحتضنت في روحها أسـرار كل الوجود، وكأن هناك علاقة -حتى وإن كانت غير مباشرة- بينها وبين الأرض والسماء. إنها بناء تاريخي عتيق وقديم بل هي أقدم بناء وأكثرها عراقة ضمن جميع العهود والأدوار وأكثرها أصالة. إنها درة تاريخية تضاعفت قيمتها حية وجديدة ونابضة في القلوب. وكما كان آدم عليه السلام أهم مصدر من ناحية خلق وطباع جميع الأجيال التي جاءت من صلبه، كذلك الكعبة، فهي بيت في الأرض يحمل أسرار وغموض روح البناء ومعناه.

في حريمها تشم الأرواح المنفتحة على الحقائق في كل وقت الروائح الفردوسية المنشية التي تهب من جميع الجهات. والذين يهرعون إليها من جميع أصقاع العالم، ما أن يروها حتى يغيبوا عن أنفسهم ويبدأوا بالطواف حول هذا المحراب العام طواف الفراشة حول النور باحثين عن طرق الوصول إلى المصدر الحقيقي للأنوار. ومع أن الطواف الظاهري لأهل القلوب هو حول الكعبة، إلا أنه يجري في الحقيقة داخل حلزون نوراني مستند إلى القلب يغيب في المكان ويتلاشى.

الأرواح العاشقة التي تصل إلى أنس الكعبة وجوها العبق، وتحقق الوصال معها، تصل إلى بعد أعمق في فكرها العميق أصلا، وتحس بسحر الكعبة وتشعر به بشكل أقوى وبمذاق آخر.

الكعبة في نظر أمثال هؤلاء مكان عند الحضرة الإلهية. ومعناها وروحها وجوهرها في نظر الإنسان هو كأستاذ ناصح للإنسان مرشد له يهمس في قلبه شيئا ما على الدوام.

لكل وظيفة ومهمة حول الكعبة سحر خاص. ولا يمكن للقلوب المؤمنة

---

(١) العماء: صفحة الوجود فيما وراء الأثير، أو الحالة البدائية للسماوات عندما كانت مجرد غبار وغيوم. وفي التصوف: تجلي الواحدية.

ألا تبقى تحت تأثير هذا السحر. فالأرواح الطائفة حولها في كل لحظة، والتي تزداد في كل حين حتى تغدو كسيل هادر يملأ كل ما حواليها تنسى أنفسها في دوامة هذا السيل وفي دوامة مشاعر الحب والوجد والتوله، وتجد أنفسها في عالم روحاني لا يمكن وصفه. وهناك في ذلك العالم الروحاني يحس كل واحد أن كل دعاء وتضرع وتوسل تعبير عن أشواقه ولهفته، ويجد أن أخفى مشاعر قلبه تجد طريقها إلى لسانه بأخفى الكلمات وأكثرها سرا... عند ذلك سيتذكر طوال حياته أحاسيسه هذه التي اتحدت في ظل تلك الأصوات والأضواء والموسيقى والتي أوصلته إلى لذائـــذ لا توصف ويصعب بلوغها، ويحتفظ بها كأعز وأثمن وأدوم الذكريات في حنايا فؤاده.

# الروضة المطهرة

الروضة هي البناء الوحيد الذي يُسمعنا روح وجودنـــا في الدنيا. إن علاقاتنا بهذه البناية المباركة، وروابطنا القلبية معها تثير في قلوبنا مشاعر قدسية مرهفة إلى درجة أننا عندما نريد ذكر شيء عنها نرتجف خوفا وكأننا نتكلم عن رمز للعفة والطهارة ونخشى أن تبدر منا كلمة غير مناسبة يساء تفسيرها. وكل روح يلتجئ إلى عالمها المضيء يسمع في أعماق وجدانه قول الشاعر:

إياك أن تغفل هنا...

عن الأدب والتوقير...

هنا مقام حبيب الله...

مقام المصطفى...

محط النظر الإلهي...

يسمع صدى هذه الكلمات في وجدانه فيرتجف. كانت مكة طوال التاريخ البشري -عدا فترات استثنائية قصيرة- محراب الإنسانية. وترجع هذه الميزة لمكة المكرمة إلى وجود الكعبة فيها. لذا فالكعبة هي محراب... بل سلطان المحاريب. ولهذا المحراب المجيد منبر -على صاحبه الصلوات والسلام بقدر ذرات أجسادنا- وهو الروضة المطهرة التي هي أطهر من رياض الجنة وبساتينها.

تأتي الروضة بمعنى الحديقة الزاهرة. وهي بالنسبة للمؤمنين الذين يحسون

بعلاقات معينة مع الأشياء المباركة، وما ينتج عن هذه العلاقة من مشاعر وأفكار وتصورات وتلقيات مختلفة ومتغيرة على الدوام ضمن دائرة "الفن-المعبد" ومطاف الأرواح المقدسة، تشكل حظيرة القدس.

تغير المظهر الخارجي لهذا المكان الطاهر من الناحية المعمارية والفنية عدة مرات وتبدلت نقوشه الخارجية، ولكن لم تمتد أي يد لتغيير ما يتعلق منه بعالم القلوب، ولا يمكن أن تمتد.

هناك أبواب كثيرة تنفتح نحو صاحب الروضة الطاهرة مثل انفتاح القلوب والصدور المتمزقة بحبه، ومنافذ كثيرة كالمنافذ الكثيرة التي تفتحت من روحه للإنسانية كلها. وأشهر هذه الأبواب هو "باب السلام" الذي قال فيه الشاعر "نابي":

هذا الهلال في السماء...

عاشق ولهان لباب السلام...

فالذين يسلمون عليه وهم يلجون من هذا الباب يدخلون إلى جو وعالم من الروح وكأنهم سيلاقون سيد القلوب بعد خطوتين... يحسون بهذا ثم يدعون أنفسهم في مهب نسائم خاصة ومختلفة.

الذين يصلّون ويتعبدون بالوقار الذي يحتمه وجودهم في حضرة النبي الكريم وبالجد والمهابة اللازمة ويدعون ويصلون عليه يرون أنفسهم وكأنهم يمشون في ممر نوراني بين أصحاب القلوب المتولهة بحب الله ورسوله الكريم. وبهذا الشوق واللهفة يتقدمون نحو "المواجهة"،[1] وهم يتوقعون في كل خطوة مفاجآت لا تخطر على البال ولا على الخيال. وآه عندما يصل إلى "المواجهة"!! آه!! لا ترى عيون أصحاب الأرواح النزيهة هنا شيئا غير ذكراه... يذكره كل منهم ويئنّ!.. ولا يجد السلوان إلا في ذكراه. فإن كان

(١) المواجهة: هي المشبك الحديدي الذي يحيط بقبر الرسول ﷺ من جهة القبلة. (المترجم)

قد تهيأ مسبقا، ووضع في الخيال رأسه فوق تلك العتبة وجاء إلى ذلك المكان بعمق وجدانه ووسعة قلبه فلا تسأل عن حاله. هنا يعجز البيان عن التصوير وتخرس الألسنة عن التعبير، ولا يجد الإنسان كلمة واحدة غير التعبير عن هذا العجز.

عندما يصل الإنسان إلى سُترة المرقد -الذي تتخيل بسمة حزينة عليها- من جهة القبلة يواجه المئات من أصحاب القلوب العاشقة التي تنبض نبضا بالأمل والرجاء. فيحس أنه في جو ســاحر من إقليم النور الذي يفتح أمامه باب عالم آخر حسب درجة كل إنسان. وكل من يصل إلى "المواجهة" من أصحاب القلوب العاشقة يحس بأنه سيلاقي حبيبه بعد خطوة أو خطوتين وسيحتضنه، فيثور قلبه في ظل هذه المشاعر، ويسمع في أعماق قلبه أنغاما لمشاعر شوق وعشق لم يخطها قلم ولا ســال بها حبر على ورق. ثم إذا بتداعيات ذلك الجو والإقليم الذهبي تلف كل كيانه بأصوات وكلمات وخيالات لا تعد ولا تحصى، وتجذبه إلى عالم آخر فوق الزمان. وكل من يصل إلى هذا العالم يجمع يومه مع أمسه وأمسه مع عصر النور للحبيب، ويثمل من أخفى همسات مجلسه، فيكاد يغيب عن وعيه.

يمر الزمان أمام الروضة المطهرة مرور حلم أو خيال. ويكاد كل روح لم يدر ظهره تماما لصاحب الروضة قد شرب من كوثر شراب عشقه فثمل فلا يود أن يفارق هذا المكان. هنا تتوقف الأفكار وتصمت، وتدخل الأرواح تحت ظلال الأحاسيس، ويلف القلوبَ الشوقُ إلى الوصال. هنــا تتفتح خيالات كالورود في أعماق الإنســان لا تقبل دخــول أحد حريمها... خيالات يكاد يذوق منها صاحبها أذواق حدائق الجنة، وأذواق أصحاب الجنة واطمئنانهم ونشوتهم. كأن هذا المكان في الدنيا امتداد لمكان من وراء الفضاء صمم بيــد القدرة منذ الأزل لتهييج خيــالات الأرواح الحساسة وتصعيدها، وشحذ مشاعر المحبة فيها، ووضع أعذب ألحان المحبة والشوق

فيها. والذين يدعون ويسلمون أنفسهم إلى الأعماق الملونة والغنية لإقليم الإيمان سيجدون أنفسهم في بحار واسعة وغنية من التصورات، ويدركون أن هناك في الحياة التي يسلكون دروبها جانبا مجهولا من النفس، أي "أنا" آخر هو هدف بني الإنسان في الحياة، يتماوج فيها "الخفي" و"الأخفى". كأن الستار الرقيق لعالم الشهادة قد ثقب فظهرت حقيقة الإنسان كما هي مثل ظهور حقائق الأشياء الأخرى. لذا يحس كل إنسان كأنه يعيش في الحياة الآخرة، فيتبع تناغم ذلك العالم ويحس بنشوة الفردوس.

يلفنا جو العبادة في الكعبة وجو العشق والهيام في الروضة المطهرة. في الأولى نحاول الحصول على جواب لسر العبادة وفهمه، ونحتضن الأخرى بصدق ووفاء. ومع أننا لا ندرك تماما ما نحسه من أمور وأشياء هنا تمام الفهم، إلا أننا بمشاعر وجد يجل عن الوصف، وبعواطف عميقة تتلاطم في جوانبنا نحس أننا قد انتشينا في عالم سحري وشاعري خاص فنجد أنفسنا وقد انحنينا راكعين ساجدين بمشاعر لا نستطيع التعبير عنها.

تمر أيام هذه الحياة التي نعيشها هنا بين أمواج عواطف العشق والشوق الضاربة في سواحل قلوبنا كعهد وصال ولقاء. كل صرخة مكتومة وكل أنين خافت يبعث رجفة في القلوب كرجفتها عند سماع صرير الباب المفتوح على الحبيب. يئن الروح قائلا: "أنا أريد اللقاء... أنا أريد الوصال". أحياناً يبدو ثم يتلاشى خيال الحبيب من وراء عصره أمام خيال العيون المغمضة للواقفين وقفة توقير واحترام أمام باب الحبيب، الباحثين عن منفذ خيال يوصلهم إليه. هذا الباب يشوقهم على الدوام ويجدد أملهم برقة ولطف.

الجدران هنـا والأعمدة والقباب التي تبـدو وكأن مثاقب العشق قد حفرتها، بل حتى الأرضيات ومفروشاتها وكل شيء تقريبا لوحات جمال تذكر بألوانها الزرقاء والخضراء والصفراء ألوان الزهور الرقيقة.

والقبة الخضراء والمرقد الطاهر الذي نستطيع تشبيهه على الدوام بروح

طاهر عندما يتمازج مع أعماق عالم الفكر لدى العاشقين يتحول إلى نوع من عالم تلفه الأسرار حتى إن الإنسان يحسب هناك أن مكانه قطعة اقتطعت وجلبت من الجنة.

لقد رأيت حتى الآن العديد من الأماكن المباركة التي تحمل ذكريات روحية ومعنوية. ولكن الروضة الطاهرة للرسـول ﷺ كانت وستبقى إلى الأبد صاحبة أعمق الآثار في قلبي. فقد احتضن روحي تلك البلدة على الدوام بحسرة مَنْ هدّه الشوق للوصال. وكلما احتضنها يرتفع صوت من أعماقي يقول: "هذه هي البلدة التي لن أستبدل بحفنة ترابها العالم كله".

هذه أحاسيس روح فج لم ينضج بعد. أما ما يشعر به أصحاب الأرواح السامية بالعرفان والمحلقة عاليا بالعشق فيجب أن نستمع ذلك منهم ونتعلم. وما أحاول هنا قوله هو أنني -بقابلياتي المحدودة القاصرة- أحاول فقط إثارة أهل الحمية... فإن استطعت هذا عددته وسيلة لإحراز رضا روح سيد الأنام، فأقبل لألمس مطرقة بابه متوسلا ومتضرعا: "اقبلني يا رسول الله!.. اقبلني بأبي أنت وأمي!"

# المسجد الأقصى

أحياناً لا تتلاءم التقديرات الموجودة في الأرض مع القيم الموجودة في السماء. فمثلا ترى شخصا مباركا هناك وهو محتقر في الأرض، والمطاف المقدس هناك تراه تحت الأقدام في الدنيا. والمسجد الأقصى اليوم أفضل مثال على هذا.

كان هذا المعبد التاريخي المشهور مقدسا لدى اليهود والنصارى منذ القديم. ثم تشرف بكونه ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال لدى المسلمين. عاش المسجد الأقصى عصره الذهبي في عهد النبي داود وسليمان عليهما السلام، ولم يبق اليوم شيء من هذا المعبد العائد إلى ذلك العصر الذهبي المجيد.

بعد هذين النبيين الكريمين بدأ عهد الانحلال والتفتت الداخلي في بني اسرائيل على مستوى الدولة. وكانت من النتائج الطبيعية لهذا الانحلال تعرضهم لسيطرة الأمم الأخرى وللتهجير وللنفي والأسر... إلخ. وقبل أن تلتئم جروح استيلاء الآشوريين على فلسطين والمسجد الأقصى، انسحق هذا البلد تحت أقدام البابليين وتعرض لظلم صارخ أنساه ظلم السابقين. ثم بدأت سنوات الأسر الطويلة وعهد المهانة والذل التي تخجل منه الإنسانية. ثم ظهر عهد من التجمع، ثم عهد من الاستعباد والاحتلال الروماني، أي عهد آخر من الأسر ومن الذل. وهكذا انصرمت الأعوام بين غدر العدو وتجرع آلام الاستعباد، وكذلك بين أنين المسجد الاقصى تحت الأغلال.

عاش المسجد الأقصى عصره الذهبي الثاني في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وبعد عدة عصور من هذا العهد الزاهر جاء الصليبيون

بكل ما في جعبتهم من الظلم والهدم والتخريب والدم والنار، فدنسوا حريمه وعلقوا الصليب على قبته. وبينما كان هذا المعبد المبارك ينتظر البطل الذي يعيد كرامة المسلمين وهيبتهم إذا به أمام البطل التاريخي صلاح الدين الأيوبي الذي قام بإنقاذه وتحريره. أما عهد الطمأنينة والسلام الأخير الذي عاشه هذا المعبد المبارك طوال الأربعة عصور الأخيرة فقد كان بفضل السلطان الداهية سليم صاحب الروح العالي والقلب النـــزيه.

كان المسجد الأقصى من قبل محط أرق الذكريات الدينية والمعجزات وأصفى المشـــاعر الروحية... أما الآن فهو كسير الفؤاد متعب قـــد لفه الصمت. أما نحن فنئنّ شوقاً إلى الوصال لعدم قدرتنا على الوصول إليه.

وجـــد المسجد الأقصى على الأرض في الشـــريط الزمني نفسه تقريبا للكعبة، وارتفع -مثله مثل الكعبة- بأمر من السماء وكأنه انبثق انبثاقا من باطن الأرض، وأصبح محراب الأولياء أحياناً، ومنبرهم أحياناً أخرى. فتح جناحيه فوق كل من دخل حريمه طوال العصور مرددا على الدوام وحتى في أظلم العهود وأحلكها: "لا ظل إلا ظله هو"، وأصبح مكانا مباركا ورمزا للأمن وكأنه "جنة المأوى" على الأرض.

هذا المعبد العظيم الذي يحمل ألف ذكرى وذكرى، وألف خيال وخيال يقف الآن وقد نكس رأسه إلى الأرض، وأحاطت بـــه الظلمات من كل الأطراف، وقد نال منه الرهق والنصب وهو يتطلع إلينا وعلى وجهه مسحة من الحزن. كلما رأيناه بهذه الحال نحس كأن مآقينا تمتلئ بدل الدموع دما، وكأن أنفاسنا تتقطع. وبينما كان بالأمس محرابا مقدســا ينفح في نفوسنا نفحات ربانية، ومنبرا مبجلا، نراه الآن وقد قلع من جذوره وتكسرت أجنحته، وأطفئت أنواره التي كانت تشع على العالم، وتحول في يد بعضهم إلى شمعة تكاد تنطفئ، وإلى هيكل عظمي يكاد يقع وينكفئ على وجهه.

عندما نشاهد صورة هذا المعبد الحزين الذي أُبعد عن أشقائه في لوحات

الصور أو في شاشات التلفزيون، يرجع بنا الخيال إلى أيامه المجيدة، فنكاد نسمع أصوات حلقات الذكر فيه. وبينما تستعد نفوسنا للدخول إلى عالمه الطاهر، إذا بنا نتذكر فجأة حاله الحاضر من الأسر المرير، فنحس كأن نصلا حادا ينغرس في أرواحنا، أو كأن يدا قطعت وسلخت منا رئتنا. وهو بوضعه هذا يبدو كضحية مظلومة قُطّعت أوصالها إربا إربا. يبدو كإنسان حزين قد حصر بين جحود الأصدقاء وبين غدر الأعداء وظلمهم. كأنه عندما مُزّق أشلاء، ورُميت أشلاؤه يمينا ويسارا صرخ بأعلى صوته، ولكن لم يسمعه ولم يهبّ لنجدته أحد.

كلما ظهر أمام أنظارنا المملوءة حيرة ودهشة يبدو مختلفا عن السابق. كان نضرا وشابا، يجلب النظر والانتباه، أما الآن فقد بهتت ألوانه وخفتت أضواؤه. كان من قبل ذا زينة وذا دلال، أما الآن فيبدو شيخا وعاجزا. كانت قبابه من قبلُ تردد أصداء العبادات والطاعات، وتنشر عطر الروح والمعاني السامية. أما الآن فهو بنقوشه الباهتة وبصوته المبحوح، وبالاحتلال الذي تعرض له يبدو كإنسان قد انقرض وزال طالعه.

أجل!.. فبينما كان المسجد الأقصى بذكرياته العديدة الطافحة التي كانت تغني روحه المتلألئ المضيء والرزين، وبصحته وهدوئه الواسع الذي يهبّ علينا كنسيم رقيق... بينما كان مصدر نفحات إلهية وكأن آذانه في السماء وشفتيه قد التصقتا بأسماع قلوبنا، يهمس فيها همسات الطمأنينة والسكينة... نراه الآن يخاطبنا بلسان متلعثم وبلحن حزين، فيجعل عيوننا تمتلئ بالدموع، وقلوبنا بالأسى والهمّ.

وعندما رأيت لأول مرة حاله هذه التي تدهور إليها قلت: "اواه!.. إذن فلن تجتمع بكل محبةٍ القلوب المؤمنة المملوءة بالانفعالات بعد الآن بين جدرانه التي ترددت في جنباتها أصداء صوت آدم عليه السلام، وأنفاس إبراهيم عليه السلام التي تماوجت فيما حواليها، وأذكار داود وسليمان عليهما السلام التي

رنت فيها... لن نجد بعد الآن الجو الذي أحاط بسلطان الانبياء ﷺ والذي فتح أشرعته هنا لرحلة نحو عالم اللانهاية... رحلة وصال الحبيب... لن نجد هنا الأنفاس المطمئنة الآمنة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه التي ترددت في جنبات هذا المسجد، ولا النبرات الرجولية لصوت صلاح الدين الأيوبي التي ترددت تحت قبته. ولن نسمع بعد الآن كلمة الجلالة "الله" وهي تنطلق بكل وجد ومحبة من حناجر المؤمنين. اواه!.. إذن لن تنفتح بعدُ هذه الأبواب على مصاريعها لأصحاب القلوب المؤمنة... لن تنفتح ببطء... ولن تنفتح بسرعة... لا بفرجة... ولا بأي انفعال أو وجد، لن يستطيع أحد بعد اليوم أن يلتقي بتلك الأرواح السامية التي كانت لها أفضال وذكريات عاشوها في هذا المكان... لن يستطيعوا لقاءهم بعد الآن في حديقته، او عند نافورة ميضأته، أو تحت قبته المنفتحة إلى السماء... لن يستطيعوا بعد الآن عيش ذكريات الماضي المتداخلة مع أحلام المستقبل. لن يستطيع أحد بعدُ جَسّ نبض الأسرار في نوافذه... ولا الانغماس في خيال الربانيين وهم يسرحون في عالمه الذي يشبه سفوح الجنة.

إذن فقد انتهت جميع الأحلام وجميع الخيالات العائدة للمسجد الأقصى... لقد انطفأت جميع الأضوية التي كانت تشع حواليه، وصمتت أصوات التكبير والتوحيد والتهليل التي كانت ترتفع من قبته وتصل إلى السماوات. يقال إن للحجارة وللشجر آذاناً. فكم كنت أتمنى أن تكون لها ألسنة أيضا. أجل! فلو كان لهذا المعبد لسان، واستطاع أن يعبر عما رآه في السابق، وعما يلقاه اليوم لربما ارتعب المسؤولون عن حاله مما فعلوه، ولربما خجل الأصدقاء الجاحدون ورجعوا إلى أنفسهم.

وأنا شخصياً كلما نظرت وأبصرت كيف تم قرض معاني الروح الآتية من ماضيه، وكيف أهينت هذه المعاني وقضي عليها، أشعر أننا تعرضنا لهزيمة

مرة في جبهة القدس، فأشعر بغصة في حلقي.

فمن يدري كم من الحزن والأسى مطمور في قبته الباهنة، وفي جدرانه السوداء... وكم من الهمّ والغمّ يسيل مع مياه ميضأته... وعلى غرار الناس الذين لا يحسنون بثّ همومهم وأحزانهم، ويكاد الصمت يتحول عندهم إلى شيء خانق... على غرار هؤلاء تنظر إلينا هذه القبة وهذه الجدران نظرات اليأس مخفية داخلها كل همومها.

إن المسجد الأقصى الذي يريني مجدا تاريخيا، ويرجعني إلى ذكرياته، قد أصبح بجدرانه التي يفوح منها الحـــزن والأسى، وبقبته التي تبدو وكأنها انفصلت عما حواليها وتسامقت إلى السحاب، وبمحيطه وأجوائه وبأبوابه التي تبدو وكأن كل باب منها منفتح على بُعد آخر من أبعاد اللانهاية... يبدو هذا المسجد وكأنه غارق في الضباب، أو كأنه مجرد صورة باهتة لا لون لها.

إن خروج المسجد الأقصى من أيدينا يؤلمني. ورؤيته أسيرا بيد آخرين يذيب القلب من الكمد. وفي الحقيقة فإنني عندما أراه كلؤلؤة تحطمت محفظتها وعلبتها أحس بمشاعر المرارة والألم تتصاعد من روحي وتهزه من أساسه وتقلبه رأسا على عقب.

إنه بوضعه الحالي غريب سواء أسكبنا الدموع حوله أو صلينا في حرمه. وهو يعيش أكثر أنواع الأســـر قسوة وألما... وإذا قُـــدّر لنا أن ننهض وأن نرجع إلى أنفسنا، وتستيقظ أرواحنا فلا توجد لوحة أكثر تنبيها وإيقاظا وإيلاما وإثارة لنا من المنظر الحالي للمسجد الأقصى.

# أياصوفيا

أياصوفيا أفضل مثال ملهم عن الفن المعماري للقبب الفخمة في سفوح وادي الرافدين وفي سوريا، وأبقاه على مر الدهور وأفضل تمثال لـــه. وهي تمثل أول كنيسة شرقية لها صبغة عالمية، وأكبر معبد للعالم المسيحي حتى الفتح المبين لاســـطنبول. وعندما انكسرت صولة الصليب وشوكته بين البحرين تحولت "القسطنطينية" إلى "اسطنبول"، وتحولت أياصوفيا إلى جامع. واستمر هذا حتى سنة ١٩٣٤ عندما حوّل هذا الجامع إلى متحف فسكت من فوق مآذنها صوت الأذان، ومسح عن قبتها اسم الجلالة، وقصت أجنحة هذا المعبد العظيم الذي كان قد امتزج بهوية هذه الأمة وبحياتها الروحية عصورا طويلة.

أياصوفيـــا بشكلها البسيط وبهوية أي معبد آخر هي أثـــر من آثـــار "قسطنطين" وابنه. وتعرضت إلى حرائق كبيرة ثلاث مرات، وإلى إصلاحات وتعميرات لإرجاعها إلى حالها السابق. وكان هذا حظا نحسا مثل حظها الحالي حيث يحيط بها الضـــبـــاب من كل جانب. وكان أمـــر الامبراطور "جستينانوس" ببناء هذا المعبد بكامله من الطابوق هديـــة إلى مريم العذراء عليها السلام أكبر جهد تاريخي في ســـبيل هذه الكنيسة التي تحولت إلى جامع. افتتح هذا المعبد الكبير للعبادة بمراسيم فخمة تناسب ما يحتويه من إبداع معماري داخلي ومنظر خارجي فخم ومعانٍ مادية ومعنوية كبيرة ترتجف لها قلوب الأهالي لكونه هدية إلى مريم العذراء عليها السلام. وبينما كان الأهالي يطلقون صيحات البهجة والفرح لهذه الهدية المقدمة من أجل المسيح عليه السلام، كان الامبراطور يفتخر بهذا الصـــرح العظيم ويخاطب النبي

سليمان عليه السلام قائلا: "لقد سبقتك". ومن الغريب أنه لم يكن قد مر ربع قرن على الافتتاح الفخم لهذا المعبد العظيم حتى اهتز بزلزال عنيف انهار إثره جانب من قبته الكبيرة الفخمة، كما تحطم كرسي الواعظ ودواليب الشراب والخبز المقدس لدى النصارى. هنا بدأت التعميرات والتزيينات والنقوش الداخلية من جديد.

ولكن لم يمر إلا وقت قصير حتى تعرضت القسطنطينية إلى غزو اللاتينيين واحتلالهم الذين قاموا بهدم هذا المعبد الفخم وإحراقه، ونهب النفائس الموجودة فيه. ولم يكن هذا يشكل إلا جزءً يسيرا من المصائب العديدة التي تعرض لها في تاريخه الطويل، حيث لم يجد الراحة والاطمئنان إلا عندما تحول إلى أصحابه الحقيقيين في منتصف القرن الخامس عشر حيث عاش عهده الذهبي خمسة قرون.

وفي العهد الذي تصاعدت فيه الصراعات والنزاعات الدينية والمذهبية التي هزّت بيزنطة من قواعدها، عانت فيه أياصوفيا من ناحية معناها ومحتوياتها من قبل منتسبي دينها كل المعاناة، وظهرت النتائج الحتمية للسكون والخمول وعدم الحركة بأجلى مظاهرها. وعندما دخلت بيزنطة في عهد الانهدام والانحطاط، كانت قبة أياصوفيا وجدرانها تتعرض إلى الانهدام نفسه.

وبينما دخلت "القسطنطينية" في مرحلة التحول إلى "اسطنبول" امتدت يد المعماري العبقري "خير الدين" بكل التدابير الضرورية لتقوية أسسه لمنع الانهدام الذي كان مقدرا لهذا المعبد الكبير. وحسب الرواية التاريخية فقد مثل هذا المعماري الكبير بين يدي السلطان فاتح في مدينة أدرنة وقال له: "مولاي السلطان!.. لقد هيأت أسس مآذن أياصوفيا وقواعدها، فإن رغبت تحولت إلى جامع على يديك"، مظهرا بذلك أنه كان يشارك السلطان أحلامه. وهكذا استطاعت أياصوفيا وللمرة الأخيرة أن تنقذ نفسها على يد

معماري مسلم تركي من السقوط نحو هاوية الفناء والانهدام، حيث قويت أسسها وقواعدها، فوصلت بذلك إلى الخلود.

أدى السلطان فاتح وجيش الفتح صلاة الجمعة الأولى في أياصوفيا. ثم تعرضت أياصوفيا -وهي في طريــق تحولها إلى جامع- إلى تطورات عديدة وإلى تكامل بإضافة المآذن وبعض الإضافات الخارجية من حواليها، وإلى تزيينات حسب الذوق الفني في عهد كل سلطان جديد حتى وصلت ضمن مراحل عديدة إلى وضعها الحالي.

ومنذ صلاة الجمعة الأولى التي صلاها المسلمون فيها دخلت أيا صوفيا قلوب المسلمين الذين بدأوا بأداء الصلوات الخمس فيها، وتمازجت مع الحياة الروحية للمسلمين إلى درجة أن اسطنبول عندما تعرضت لغزو واحتلال "أهل الصليب"[١] الذين قرروا إرجاع جميع الكنائس التي تحولت إلى جوامع إلى أوضاعها السابقة دوى صوت قوي من قبتها، فارتجت أصداؤه في أرجاء الأناضول. وبفضل هذه الأصداء استطاعت أمتنا معرفة الطرق المؤدية إلى الاستقلال، وتخلصت أياصوفيا من تعليق الصليب على قبتها. ولكن هذا المعبد الذي مُثِّل على الدوام بأجيال الروح والإرادة حتى اليوم، وبالقوة القدسية التي كانت تحملها تلك الأجيال... بينما تخلص في السابق من عالم ماديّ والتجأ إلى الروح المحمدي الممثِّل للمعنى والروح، تحول اليوم وبعد خمسة عصور من تعلّق أصحابه الحقيقيين وارتباطهم به إلى وضع بين الجامع والكنيسة، وذلك بعد أن قــرر أصحابه الجدد الســير في ركاب الغرب وفلسفته المادية. وهو الآن ينتظر روحا معنويــا منقذا لــه. ولكي تتخلص

(١) حدث هذا في أعقاب الحرب العالمية الأولى عندما دخلت البواخر الحربية لأربعة جيوش من دول الحلفــاء إسطنبول واحتلتها. وأراد قواد هذه الجيوش تعليق نواقيس ضخمة على قبة أيا صوفيا، وعندما علم الخليفة الأسير وحيد الدين بهذه النية أمر حرسه الخاص أن يذهبوا إلى أياصوفيا ويقاتلوا حتى الموت لمنع المحتلين من تحقيق هذه النية. وعندما سمع الحلفاء بهذه النية أحجموا عن تنفيذ خطتهم خشية من اندلاع ثورة شعبية في إسطنبول. (المترجم)

أياصوفيا من هذه الوهدة الأخيرة التي سقطت فيها وترجع إلى بعث جديد، هناك حاجة لأبطال من أمثـــال الســـلطان محمد الفاتح، وخضر جلبي، وأولوباطلي حسن، وآق شمس الدين ممن شربوا من نبـــع الخضر عليه السلام. أيْ عند الرجوع إلى روح العلم الموجود في المدرسة الحقيقة، وإلى الحياة القلبية الموجودة في التكية، وإلى روح النظام الموجود في الجندية، وأخيرا إلى البطل الذي يجمع ويؤلف بين أرجل وأعمدة الاستناد هذه.

لقد امتزجت أياصوفيا بروح أمتنا، وتشربت بها، وتغلغلت في أعماقها إلى درجة أنه على الرغم من مرور كل هذه السنوات، فإن من يقترب من جوارها، ويدخل في جوهـــا النوراني المضيء الخاص، ومآذنها الغارقة في الصمت، يحس بتداعيات معانٍ عديدة من عصورها المتنورة، وكأنها تهمس في أذنه كصديق قديم بعض الأحاديث، وتهمهم ببعض الكلمات، وتحاول التعبير عن بعض المعاني. وكلما اقتربنا نحن من جوارها نتأملها وننظر إليها كجوهرة خلفها لنا أجدادنا العظام، ونتخيل أنها تبتسم لنا وتحاول أن تخاطبنا وتهمس في أرواحنا بعض المشاعر الخفية.

أجل!.. إنها بوضعها المنعزل الحزين الحالي، ووحدتها التي يتفطر لها القلب حزنا وغما، وبجو الهزيمة التي تعمقت ألوانها بمرور الزمن، لا تزال مثل طفل يحاول جلب الانتباه إليه، والحديث عنه، وتحبيب نفسه، فتسعى لملء العيون والدخول إلى القلوب، والتحول بجو من ماضيها إلى لون وضوء وشعر ينساب في أرواحنا.

إن أياصوفيـــا بمنظرها شـــبه الضبابي، وبلونها الضـــارب إلى البرتقالي، وبطبيعتها الشمالية[1] هي أقرب ما تكون إلى زهرة برية غربية وليست زهرة من الأناضول. لذا ففي النظرة الأولى قد تصطدم أنظارنا، ولكن سرعان ما تلفنا وتحيط بنا ألوان أنوار الأنس بها التي نبعت من صداقة خمسة قرون بكل

(١) بمعنى أن الذين بنوها هم من الأوروبيين وليسوا من الشرقيين الجنوبيين. (المترجم)

عطرها الذي يفوح ويتماوج ويأسرنا بموجات متتالية ومتعاقبة. لذا فلا نملك إلا أن نحتضنها بكل حب ومودة، ونشمها كزهرة من بستاننا ومن حديقتنا. فإن أضفنا إلى هذا الموقع المتميز والحبيب للماضي والخيالات التي يثيرها في القلوب من أيامها التي كانت فيها شابة نضرة مضيئة، فنحاول فهم المعاني المنسابة منها إلى القلوب بعمق والشعور بها... هنـــا نراها وكأنها تبدأ تترنم بلحن ماضيها كقطعة موســـيقية تتصاعد منها الألحان مرة وتخفت مرة لتحكي أو لتصرخ بما تخفي في أعماقها من ذكريات حلوة ومرة، ومن أيام بيضاء وسوداء، وما مر بها من خير أو شر ضمن تاريخ حياتها الطويل الممتد لألف وسبعمائة سنة... تحاول هذا ولكنها لا تستطيع، فهي كشخص سُدّ فوه بعصابة قوية، فلا تستطيع التفوه بكلمة، بل تكتفي ببلع ريقها... تحاول أن تقول شيئا أو تبوح بشيء فلا تقدر. وبحزن العجز والهجر تكاد تنكفئ على وجهها كمدا وحزنا، وتتحول إلى مجرد كومة من اللبنات الجامدات.

منذ عصور وعصور تمازجت أياصوفيا مع عالمنا، والتحمت معه التحاما إلى درجة أننا نستطيع أن ننظر إليها كأثر اسطنبولي خالص بالجدران الساندة التي تحيــط بها مـــن جميع أطرافها فتؤمن بقاءها منتصبة على قدميها، وبالإضافات الكبيرة والصغيرة في داخلها العائـــدة إلى مختلف السلاطين العثمانيين، وببقائها طوال أربعة عصور في حماية وبالقرب من قصر "طوب قابو" الذي كان مركز إدارة تلك الدولـــة العالمية. ثم كونها جارة لجامع "السلطان أحمد" طوال كل هذا الزمن، مما أدى إلى امتزاجها في جوه وعطره حتى أصبحت جزءً من عالمنا ومن دنيانا لا يمكن قطعه أو فصله عنه.

كل يوم تشرق الشمس فتنساب أشعتها موجة إثر موجة من بين مآذنها، وتلمس قبتها، وتربت عليها، وتداعبها ثم تتوجه وتصل جامع السلطان أحمد. وعند الغروب تتوجه حزمة الضياء التي تحتضن جامع السلطان أحمد مع النسائم الحزينة لما بعد العصر إلى قبة أياصوفيا لتلمسها بلطف وتمسح

عليها مـــارّة من فوق قصر "طوب قابو" قبل أن تنـــزلق وتترك نفسها للفراغ. الضوء يمر جيئة وذهابا بين هذين المعبدين العظيمين مرتين في اليوم وكأنه ينقل التحية من النبي عيسى ﷺ إلى النبي أحمد ﷺ، ومن النبي أحمد ﷺ إلى النبي عيسى ﷺ.

يحس أصحاب القلوب الحزينة في جو هذين المعبدين بهبوب نسيم ضبابي بارد من الشرق إلى الغرب باتجاه قصر "طوب قابو". ومع هبوب هذا النسيم يشعرون بلوعة يثيرها في أرواحهم الشـــعور بالعجز، وتغص حلوقهم فيئنون بألم. وأحياناً يرون وكأن الغيوم والضباب قـــد غطى وجه السماء. وأحياناً عندما تبلغ آلامهم درجة الخفقان تتحد هذه الآلام بعناية ذي القدرة اللانهائية وبلطفه، وتكون كإصبع شهادة ترنو من بين المآذن التي تشير نحو الأبدية على الدوام، فيستغرقون في تأمل فريد، ويصلون إلى نشوة لا يمكن وصفها، وكأنهم عثروا على سحر يبدد يأسهم وينور إرادتهم. وبعد خطوة واحدة يخطونها يلجون من باب رحمة الرحمن المفتوح أمامنا على الدوام. ثم يتوجهون بكل قلوبهم إليه متضرعين بكل لواعج الهجران: "يا رب!.. يا مفتح كل الأبواب الموصدة!.. افتح لنا مفاتيح أياصوفيا الصدئة وأبوابها المغلقة مثلما فتحت آلاف الأبواب الأخرى، ونوِّر أرضها التي اسودّت نتيجة حرمانها من السجدات بنور السجود مرة أخرى".

الوضع الحالي الأليم لأياصوفيا يدفع كل شخص لقول أشياء مبدعة وإن كان قولا يلفه الألم. فوضعها المؤلم يشبه منظر شخص يرنو ببصره إلينا ولا يستطيع أن ينطق بما في قلبه. وكلما شاهدنا حالها هذه بدت في أعماق أرواحنا آمال عوالمنا الداخلية ورغبات من خيالاتنا. هنا تنتبه جميع مشاعرنا النائمة والغافية، وتتحفز للقائها واحتضانها في صباح يوم مشرق، ومشاهدة أحلامنا المرتسمة عليها، وندع أنفسنا في ســـيل من أحـــلام في ديـــار من الضباب والدخان.

أحياناً تبدو أصوات الأذان المرتفعة من مآذن جامع السلطان أحمد الواصلة إلى قصر "طوب قابو" وكأنها صرخات آتية من أياصوفيا. هنا نشعر بسحر يسري في قلوبنا بطعم الماضي، ونحس أننا نطير بأجنحة سحرية في سماء الأمس. وأحياناً تتسلل إلى أرواحنا أشياء عميقة مع تداعيات صوت الأذان، فيخيل إلينا أننا نستمع مع التكبيرات إلى جلبة صوت جيش الفاتح وأصوات الطبول وصرخات الحرب: "الله أكبر! الله أكبر"، ونعيش لحظات المجد تلك.

الأشجار الهرمة الموجودة حوالي أياصوفيا، والجدران القديمة، والقبب الكبيرة منها والصغيرة المملوءة بذكريات مجهولة، تثير في نفوسنا أحياناً مشاعر مبهمة... مشاعر تنقلب إلى مثقب يثقب أرواحنا، ويترك في صدورنا آثارا لا تمحى. ولكن هذه الحال لا تلبث طويلا، حيث يشرق من أفق إيماننا فجر الآمال. وكما ينهزم برد الشتاء وقرّه أمام تفتح الربيع، وكما ينحسر الليل أمام ضوء الفجر، تنحسر الغيوم السوداء المحيطة بأياصوفيا بعد كل هذا الزمن غيمة غيمة، وتتشتت لتبدو السماء الزرقاء الصافية محلها.

لم يكن الظلام في أي وقت أبديا، ولا يمكن أن يكون... ولا يمكن أن يستمر الفراغ إلى الأبد، ولا يمكن للصمت والتدهور أن يستمرا إلى ما لا نهاية... لذا فإنه حتى في أظلم لحظة من هذا الليل البهيم الذي نعيشه... هذا الليل البعيد عن آمالنا... حتى في هذه اللحظة لم تنعدم أنوار تطرف بعيونها لنا، وتومئ لنا من بعيد... وأنفاس إلهية تملأ أرواحنا وتشرح صدورنا... ونسائم تقوي عزائمنا... لم تنعدم ولا يمكن أن تنعدم في أي حين من الأحيان.

في هذه الأيام وفي مختلف أرجاء هذه الأرض مواسم الربيع المتفتحة... كل ربيع أزهى من الآخر وأجمل!.. ولا شك أن أياصوفيا ستأخذ نصيبها من هذه الخضرة التي بدأت تنتشر في كل مكان، فهذا شيء طبيعي. ولم نفقد نحن هذا الأمل في أي وقت من الأوقات طوال أيام البعد والهجران التي عاشتها وتعيشها أياصوفيا. لم نفقد هذا الأمل، بل بدأنا وكأننا نرى أبوابها وهي تنفرج قليلا قليلا، ونحس أننا نعيش أيام أفراح وزينة واحتفالات.

كل يـــوم يمر هناك أصوات تتقوى، وصدور تنبض أكثر بالانفعال، وأرواح تترابط في هذا الموضوع بقوة أكثر، ورغبـــات تفور، وإلهامات تنـــزل إلى قلوبنا وتصعد مثل شفاه دافئة، وآمال وأشواق وأفراح حلت محل الألم والهجران... وكلها أمارات لا تكذب على الفجر الصادق.

أياصوفيا التي اصفرّ وجهها وبهت من بكاء الألوان والأنوار، وانهدت طاقتها بعد كل هذه السنين العجاف... أياصوفيا هذه حملقت على الدوام بنظرات واهنة تحمل كل معاني العتـــاب في وجوهنا. وطوال أعوام عدّة انتظرت بكل ما حواليها من حزن منعكس على الزهور الباهتة اللون وعلى نافورات الوضوء المترقرقة بحزن، والطيران الحزين للحمام البري... انتظرت على الدوام البطل الذي ينقذها.

ونحن نؤمن بعد كل لوحات الحزن هذه، وفي الليل الضبابي الحالي الذي يلف كل شيء... نؤمن بأنه: "اشتدّي أزمة تنفرجي"... وننتظر ان تنفتح أبواب السماء فجأة على مصاريعها، وتنهمر الأنوار والآمال على قلوبنا من وراء الآفـــاق... أشـــجار الدلب والصنوبر المتطأطئة رؤوســـها حزنـــا ستنتعش وتتمايل بفرح ونشوة... وبكل مظاهر الفرحة والبهجة التي ستلف أجواء أياصوفيا آنذاك ســـيزول الضباب الجاثم على صدرها ويختفي... والخلاصة أننا بانتظار أضواء وأنوار ســـرية تخرق ظلام هذا الليل البهيم لتضيء لنـــا الدروب المؤدية إلى عهد الورد والياسمين... نحن بانتظار أمثال محمد الفاتح وألو باطلي حسن وخضر جلبي وآق شمس الديـــن... لنا مثل هذه الآمال والأحلام.

عيوني دامعة يا أياصوفيا...

وفي قلبي بحر من الأحزان...

آن لك أن تفتحي لنا أبوابك...

آن ذلك يا أياصوفيا...

# القرآن – ١

هو أكثر منابع النور بركة في الوجود، وأسحر كلام وأكثره نفاذا إلى القلوب. كل أنواع الجمال الأخاذ الموجودة على سطح الأرض ظل لنوره الموجه نحو الوجود، وأكثر الأصوات والنغمات سحراً ليس إلا سلما واحدا أو نغمة واحدة من تلك الأنغام والأصوات السماوية، ونفس من أنفاس الوجود وهمسة من همساته. والتنـــزه بين آياته النورانية، وكلماته المضيئة تغسل الأدران عن القلوب والآثـــام عن العيون وتطهرها. إن تأمل الآفاق الزمردية البعيدة التي يفتحها، ينثر بذور الحكمة في العقول، وينقلها إلى سماوات وراء الأفق.

الشمس بالنسبة لعالمه النوراني مجرد حشرة مضيئة، والقمر مجرد أرض قفراء وسوداء وقع بعض الضوء على وجهه. هو بلمعانه الظاهري، وعمقه الداخلي، وغنى محتوياته مائدة آتية من وراء السماوات... مأدبة لا يستغني عنها أحد حتى الملائكة الكرام التي حملتها وتسلمتها من يد ليد كباقة من الورود العطرة حتى وصولها إلينا.

استقبلت الأرض وساكنوها هذه المائدة الإلهية بشاعرية عالية، وأشواق لهيفة، وبحاجة ملحة. وانقلبت أرجاء هذه الأرض العجوز بورود هذه المائدة الإلهية ورياحينها إلى ما يشبه سفوح الجنة. عندما لم يكن موجوداً كانت أرضنا هذه أرضاً يلفها الظلام. وعندما هلّ على الأرض غرقت سهولها وجبالها ووديانها بالنور الذي يشع منه إلى كل جهة، وأصبحت أرضنا كتاباً

يُقرأ ويتأمل. أما حقائق الأشياء التي يشرحها ويقدمها لنا فكأنها خطاب يملأ أرواحنا ويسقيها.

وُهبت له وحده نعمةُ الإرشاد إلى طريق سعادة الدارين، فالمفتاح الذهبي للسعادة في يده هو. لو لم يقم بحل الألغاز التي تقابلنا في كل مكان وتحيرنا، لبقينا في دائرة الحيرة أمام هذه الألغاز التي لا تعد ولا تحصى، وفي دائرة التيه، ولما استطعنا الوصول إلى انسجام بين أفكارنا وبين مشاهداتنا. ولو لم يهب لنجدتنا لضعنا في تيه هذه الصحارى الشاسعة التي لا يبلغ النظر مداها.

يا أيها الروح الذي أحيا موات دنيانا بأنفاسه الطاهرة... لو لم تكن لما كانت دنيانا إلا جحيماً لا يطاق... أنت من يمثل رحمة الحق تعالى على هذه الأرض... أنت من يمسح ظلمات الإنكار والإلحاد من القلوب... لم تتعلم الإنسانية الهداية إلى الصراط المستقيم وسلوكه إلا بك... تعلمت الإنسانية هذا فتخلصت من الفوضى، ومن الضياع في الدروب.

بك خفّ ظلام البشرية...

بك تنوَّر الوجود...

أيقاس بنورك البدر؟

يا نور الهداية!

أنت شمس ليلة القدر...

(الشاعر إسماعيل صفاء)

تكلم الآن واهدر بصوتك! لكي تحيا القلوب الضائعة والمتلهفة لكلامك. تكلم لكي يصل الشهد والعسل إلى الشفاه وإلى الأفواه. ولكي يتفتح الأترج النضر في القلوب كأولى ثمرات نضجه.

ولكن أنظر ماذا جرى لهذا البلد الذي تشرف بنـــزولك عليه شرفاً لا يدانى، والذي انقلب بك إلى جنات عدن... لقد تعرض لهجوم الأشواك

وأشجار الزقوم. أما نورك الذي كان ينير أرجاءه فقد رحل إلى ما وراء البحار... لا ندري لماذا... ألكي نتعذب ونمتحن؟

تعال أيها النور!.. تعال!.. لقد آن أوان انتهاء أحزاننا وآلامنا، فتعال!.. فقد طال فراقك وطال غروبك عنا... نحن لم ننسك أبداً... في هذا البلد الذي أقفرت أرضه وأظلمت سماؤه لا تزال هناك معابد يؤمها الفقراء والمساكين... لا يزال عبيرك يملأ أجواء هذه المعابد... ولا تزال القلوب تستضيء بنور مشاعلك.

أيها النور الذي نزل في مكة وفاض في المدينة المنورة... ليس من شأنك الاحتجاب، فلتفصح عن وجهك النوراني... انزع النقاب لكي ترى العيون -التي حاصرتها مشاهد القبح- جمالك... ولكي نطوف ملهوفين حول شموعك مرة أخرى.

أيها الخطاب الأزلي...

أيها النازل من العرش...

أيتها النفحة الإلهية...

لقد نورت بنزولك قلب محمد...

(الشاعر إسماعيل صفاء)

انزِل أيها الخطاب الأزلي الإلهي... انزل وكأنك نازل من العرش... انزَل لكي تستفيق القلوب وتتفتح عيونها على العالم الأحمدي النوراني مرة أخرى. أيها النور الذي تجليت في قلب فخر الكائنات، أيها الكتاب الذي كنت مرآة لوجهه الحقيقي الذي تخجل منه الشموس... اهتف بأرجاء الأرض... اهتف لكي يتردد صوتك في الخافقين... ولكي تمتلئ السماوات بأنفاسك... اهتف لكي يصمت الخطباء المزيفون، ولكي تخرس الألسن الزائفة.

مرت أعوام طوال عجاف والإنسانية تستمع إلى أوهام وضلالات حتى لم تعد تفهم الحقيقة ولا تدرك الصواب. ولطول سيرها في الظلام أصبحت خليلة للخفافيش وعقدت صداقة معها. فمتى تحل عقال لسانك لتسمع أرواحنا الشلالات الهادرة بجواهر كلامك... دع أنوارك تنهمر على دنيانا لتتخلص الإنسانية من الظلام الذي تعيش فيه منذ قرون وعصور. انفخ في صورك -كنفخ إسرافيل في الصور- واملأ أرجاء الدنيا بهدير صوتك... افعل هذا لكي يستيقظ الغافلون من نومهم، ويرجع أصحاب الأرواح الأنانية إلى صوابهم، ولكي يرتعب الذين تعودوا على الترف وعلى الكسل، ولكي تنفض الأرواح الخبيثة التي تسللت إلى كل مكان، واحتلت كل موضع.

انهمر علينا كالمطر وكالغيث، فقد جفت نفوسنا وشفاهنا، وبلغت القلوب الحناجر. هبّ علينا كريح الصبا حاملا إلينا عطر العرش، فقد تكدرت الأرواح من روائح المعصية حتى كادت تتقيأ.

اركبْ على متن الصواعق وأرسلْ دويّك إلى أرجاء الأرض لكي تهرب الحشرات التي استولت على الأرض وتدخل إلى جحورها.

كيف ستكون حالنا إن لم تهطل كالغيث، ولم تهدر كالصاعقة، ولم تسحق سحق الصاعقة؟ وكيف ستكون حال الإنسانية؟ وكيف تستفيق هذه الأمة وتنهض؟ وكيف تخطو المدارس إلى الأمام؟ وكيف تتنور المعابد؟ وأين سيجد القلب والروح والعقل ضالتهم؟ وأي شيء يستطيع أن يكون بَلْسَماً لهذه الأرواح البائسة والقلوب المكلومة وشفاء لها؟ وكيف تستطيع هذه الأرواح المشلولة أن تبسط أجنحتها وتطير؟ وكيف يستطيع العقل فتح الطرق المسدودة أمامه فيرشد الفكر إلى طريق الأبدية؟

العالم الذي لا توجد أنت فيه عالم قُصّت فيه أجنحة الإرادة. وضربت الفوضى اطنابها في عالم الأحاسيس، وتحولت فيه العواطف البشرية إلى

مستنقع. أما الموازين العقلية فدون ضوابط، والمنطق مهرج والعلم حماقة. في مثل هذا العالم يكون من العبث البحث عن قيم إنسانية وينخدع كل من يركن إلى هذا البحث.

تعال!.. تعال!.. أرسل نفحة عطر من أنفاسك، وشتت جميع مقالب الشيطان وألاعيبه، ودُلّنا على طريق التوبة التي تم إرشاد آدم عليه السلام إليها.

# القرآن – ٢

هناك العديد من المفكرين المعاصرين الذين يرون بأن العصر القادم سيكون عصر القرآن. والحقيقة أننا إن دققنا قليلاً لرأينا أن عصرنا الحالي بدأ يتجه للقرآن بسرعة أكبر مما كنا نتوقع أو نتصور.

أجل... حتى أصحاب أكثر النظرات بلادة وسطحية يستطيعون حدس كيف أن القرآن مرتبط بالكون ومتداخل معه، وكيف أن جميع بياناته حول الوجود صائبة، فلا يملكون أنفسهم من الإعجاب بقوة تأثيرها ونورانية عالمها.

والذين يعملون في ساحة العلم والعرفان والحكمة يطالعون هذا الكتاب العظيم بكل رغبة ولذة ويشهدون بأنه يشرح أسرار الوجود والأمور الدقيقة الموجودة في روح الطبيعة ويضعها أمام أنظارهم.

إن القرآن هو الذي يتناول كل جزء من أجزاء الوجود بعمق، فيوضحها ويشرح غاياتها ومحتوياتها وأسسها بشكل لا مجال فيه لأي تردد أو شبهة.

يتناول القرآن المعجز البيان أيضاً الحياة القلبية والروحية والفكرية للإنسان وينظمها ويريه أسمى الغايات والأهداف، ثم يأخذ بيده ليوصله إلى هذه الأهداف، ويوصيه بالتعامل معها بكل لطف ورحمة وشفقة وعدالة، ويضع بينه وبين السيئات والشرور عقبات وموانع لا يمكن تخطيها.

القرآن هو البيان الإلهي الذي يقيم النعم الإلهية المعطاة للإنسان كالصحة والعافية والقابلية والقوة أفضل تقييم، ويشير إلى أفضل الطرق للاستفادة

المثلى من هذه المواهب والهبات، وينقذ الناس دون أن يشكل بعضهم لبعض مشكلة أو عبئاً.

إنه كتاب ومنبع للضوء بحيث يقدح في أرواحِ مَنْ عشقه واتبعه فكرة الحرية ومفهوم العدالة وروح الأخوة والرغبة في مساعدة الآخرين ومعاونتهم والعيش من أجلهم، بحيث يكاد يجعل من هؤلاء -المخلوقين من دم ولحم- شبه ملائكة يسعون في الأرض، ويريهم الطريق المؤدي بهم إلى سعادة الدارين، ويفتح أبواب هذه السعادة على مصاريعها أمامهم.

إنه كتاب إرشاد يسير أمام الذين فتحوا أعينهم على الحقيقة بهدايته، ويأخذ بأيديهم ليسيح بهم وراء الآفاق ووراء هذا العالم. ويجول بالقلوب المشبعة بالاطمئنان في أجواء المهابة، ويسكر الأرواح المفكرة بالإعجاب والدهشة والذهول ويثملها، وينفح في الضمائر الطاهرة نفحات الخير في كل آن.

هو بيان باهر إلى درجة أنه يعد هذا الإنسان -الذي أرسل إلى الدنيا بأسمى روح وفي أحسن تقويم- بأفضل صورة من صور السعادة والهناء، وبأفضل شكل من أشكال السمو والعلو والرقي، وأكثر أنماط الحياة إنسانية بأقوم الطرق للوصول إلى ذروة "الإنسان الكامل".

ألم يكن هذا الكتاب المجيد هو الذي نظم حقوق الفرد وحقوق الجماعة، ونظم العلاقة بينهما من ناحية التعامل والسلوك والوظائف والمسؤولية؟ ألم يعين المفاهيم الصحيحة لحقائق الحرية والعدالة والمساواة وحققها بخطوة واحدة بينما كان العالم أجمع يسبح في دياجير الظلام والغفلة والضلالة؟ ألم يحقق أفضل صراع ضد الظلم والطغيان؟ ألم يدعو إلى رحمة وشفقة إنسانية، بل إلى رحمة وشفقة تشمل جميع الأحياء؟ ألم يضع للحرب وللصلح مقاييس إنسانية فجعل أتباعه دعاة وممثلي الأمن والاطمئنان فوق الأرض ورموز التوازن فيها؟

يا له من كتاب نوراني يذكّر الإنسان بعجزه وفقره من جهة، فيكسر

حدة غروره وأنانيته، ويشعل فيه من جهة أخرى أشواقه، ويدعوه لأن يشرع أشرعته للرحيل إلى ما وراء هذا الأفق.

يا له من مجموعة نفحات ربانية يؤمِّن كل أمر فيه آلاف الفوائد، ويذكرنا في كل نهي بأضرار لا تخطر على البال، ويأخذ بيدنا إلى سفوح الأمن والأمان. وفي اللحظة التي يثير قلوبنا برسائل العدالة والاحسان والأمانة ويرينا آفاق الجنة... في اللحظة نفسها تتوالى تحذيراته عن المنكرات والخلق السيء أو الاعتداء على أموال وأعراض وأرواح وحقوق الآخرين. وتتكرر دعوته لنا للالتجاء إلى حماية الله وصيانته.

إنه كتاب يؤمن بسمو درجات جميع الأنبياء والمرسلين السابقين وبجميع الكتب والصحف المنــزلة عليهم ويعتبرها كتباً وصحفاً مباركة. وعظم منــزلة التوراة والإنجيل والزبور خاصة، وعدّها كتبا مباركة، مع القيام بالحل والفصل في الأمور المختلف فيها، وتصحيح ما حرف فيها، والإيمان بما حفظ منها ولم يمس بتغيير. أي أنه عثر على الكتب القديمة المفقودة بوجه من الوجوه وأظهرها، وذكر أنبياءها بكل احترام وتوقير، ولا سيما النبي موسى عليه السلام والنبي عيسى عليه السلام حيث اعتبرهما ضمن "الانبياء من ذوي العزم". وبذلك برهن أنه كتاب ينطق بالحق. ثم ذكر بأن والدتي هذين النبيين العظيمين كانتا مظهراً للإلهام، أي كانتا تملكان قلباً وروحاً متميزين عن سواد الناس، وبذلك أثبت لجميع أصحاب القلوب السليمة أنه نــزل لإحقاق الحق ووضع كل شيء في نصابه.

إنه الكتاب الذي أنقذ الانسان من جميع أنواع الانحرافات، وأرشده إلى طريق الفضيلة، ووعد الذين ينفذون أوامر الله تعالى بجنان فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال بشر. وتَوعّد الذين يخالفون أوامره بيوم

تهلع فيه القلوب، وتزيغ فيه الابصار، وتبلغ فيه القلوب الحناجر، فوضع بذلك توازنات مدهشة احتارت لها العقول.

لقد نال هذا الكتاب شرف البقاء نقياً ومصاناً عن التحريف وعن التبديل من بين جميع الكتب منذ تشريفه الدنيا، ومحافظاً على الوحي كما أنــــزل على الرغم من اعتداءات المفكرين والملحدين المساكين، الذين لا يعرفون شيئاً سوى العداوة والكراهية وبذل المحاولات لتغييره وتبديله، وعلى الرغم من الاصدقاء المغفلين الذين لا يعطون للصداقة حقها.

عندما نــــزل القرآن كأفضل جوهرة من جواهر اللوح المحفوظ، نــــزل بمنــــزلة وبشرف لا يُدانى. وهو اليوم محافظ على هذه المنــــزلة الرفيعة كما هي، بل ربما أكثر... أما في السنوات القادمة فسيكون هو الكتاب الذي تتنافس الشموس لكي تزين تاجه.

عندما ظهر القرآن المبين واحتضن الشرق والغرب والشمال والجنوب، وضمهم إلى حضنه بيديه النورانيتين، صحب معه العلوم إلى كل الديار التي احتضنها، وحول أرجاء الأرض إلى ما يشبه سفوح الجنة. والذين تمسكوا بــــه آنذاك، وحملوا رسالته النورانية ومثلوه بصدق، كانوا هداة البشرية والمرشدين إلى "الحضارة القرانية". لقد كان هؤلاء المرشدون من مستوى رفيع، بحيث إن الذين يدّعون اليوم أنهم معلمو الإنسانية لا يستحقون -لو كانوا في زمان هؤلاء المرشدين- إلا أن يكونوا تلاميذ لهم يتعلمون منهم.

لقد جاء القرآن المجيد برسائل نورانية أزلية وأبدية، وربّى إلى جانب أبداننا وأجسامنا قلوبنا وأرواحنا وعقولنا وضمائرنا، وهيأنا لنكون إنسان المستقبل بعد أن أرانا الذرى الموجودة وراء الشواهق المادية والمعنوية. ولا شك أن كل أمة أو دولة تملك عقلا ووعيا سترى فيه في المستقبل منبعاً ثراً يجب الارتشاف منه مراراً، وهذا خلافا لرأي بعض من ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة.

ولو تصرف مسلمو اليوم في موضوع القرآن بصفاء المسلمين الأوائل – علما أن هناك حركة ملحوظة في هذا الاتجاه حاليا– لاحتلوا مكانة مرموقة في التوازن الدولي الحالي في وقت قصير، ولتخلصوا من تقليد الآخرين والسير وراءهم، ولما وجدوا السلوان في وديان التقليد الأعمى.

إن قيام الطلاب الأوائل للقرآن بتلك الحملة الإيمانية والأخلاقية التي أدهشت العالم آنذاك يجب أن يدفع إنساننا المعاصر إلى تناول تلك الحملة بالدراسة والتدقيق بكل حرص. أجل!.. إن ظاهرة قيام بضعة آلاف من الصحابة –بعد ظهور الإسلام بين جبال مكة الوعرة– بحملة وبانقلاب كبير أضاءوا به أرجاء الأرض حادثة متميزة وخارقة للعادة يجب تدقيقها وتقييمها، وهو منبع ثرّ غنيّ يرجع له المؤمنون على الدوام.

لذا نستطيع أن نقول بأن القرآن كما لم يقم بالأمس بخداع الذين آمنوا به واتبعوه ولم يحيرهم كذلك لن يخدع الذين سيتوجهون إلى جوه النوراني ويؤمنون به بعد اليوم، ولن يخيب آمالهم. لأننا نؤمن بأن العقول عندما تضاء بنور العلوم، والقلوب بمعرفة الحق، وعندما يوضع الوجود تحت عدسة العلم والحكمة للتدقيق والدراسة، سيكون كل حكم صادر باسم العلم موافقاً لروح القرآن ومتلائماً معه.

أجل... لقد كان القرآن في كل عهد وعصر كتاباً يدعو الناس إلى العلم وإلى البحث العلمي وإلى التأمل وإلى النظام في التفكير وإلى قراءة كتاب الكون وفهم أسرار الوجود، واختار طلابه الحقيقيين من بين المفكرين والمتأملين. وهذه بعض القطرات من ذلك العباب الزاخر:

١ –﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الروم:٥٠).

٢ –﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(يونس:١٠١).

٣-﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَٱلأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٦٤).

٤-﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّموَاتِ وٱلأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف: ١٨٥).

٥-﴿أَفَلَمْ يَنْظُروا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاها وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾(ق:٦).

٦-﴿وَفِي ٱلأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢٠-٢١).

٧-﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ بَدأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ ٱلآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت:٢٠)

٨-﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَٱلأرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(يوسف:١٠٥).

.بمثل هذه الآيات دعا القرآن الانسان لكي يتفكر في الخوارق التي يزخر بها الكون وليدقق المعاني الخفية للوجود، لمشاهدة آيات الجمال المنبثة حوالينا، وسماع الأصوات الآتية من جميع الأرجاء.. أيْ يقوم برفع روحه إلى الذروة بالتأمل والتفكير.

٩-﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنَا فِي ٱلآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣).

يقول الحق تبارك وتعالى في هذه الآية بأنه سيري آياته في النظم الدقيقة في الأنفس وفي الآفاق، والتناغم والعظمة البادية فيها والتي لا يملّ الإنسان من النظر إليها ومشاهدة جمالها.

١٠-﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾(الشورى:٢٩).

١١-﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾(يس:٣٦).

١٢-﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(النمل:٨٨).

١٣-﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾(يس:٣٨-٣٩).

١٤-﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(الذاريات:٤٧).

١٥-﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾(النور:٤٣).

هذه الآيات وغيرها من الآيات ذات البيان الساحر الأخاذ تومئ وتشير إلى العديد من الاكتشافات العلمية التي شكلت أساساً لخوارق هذه المدنية، بل حتى إلى بعض الأمور التي لم نفهمها تماماً بعدُ، وتدعو أهل الفكر والإنصاف إلى الانتباه والتأمل.

# الحج

يأتي الحج بمعنى القصد والتوجه. ولكن ليس من الصحيح حبس معناه ضمن إطار مجرد القصد والتوجه. فالحج يطلق على زيارة تتم في وقت مخصوص بشعائر معينة لأماكن محددة. وهو عبارة عن القيام بالإحرام في أيام محددة من أيام السنة بنية الحج والتوجه للوقوف في عرفة والطواف حـــول الكعبة. والإحرام شـــرط الحج، أما الوقفة على عرفات والطواف حـــول الكعبة فمن أركانه.

يتوجه كل سنة مئات الآلاف من الناس إلى بيت الله من جميع أنحاء العالم ضمن شريط مبارك من الزمن، فيزورون أماكن معلومة حددها لهم صاحب الشريعة ضمن أصول وشعائر معينة حيث يؤدون واجباهم ويتطهرون من آثامهم، فالحج فريضة من الفرائض الخمس بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾(آل عمران:٩٧).

الحج شعيرة إسلامية تؤسس الوحدة الاجتماعية بين المسلمين، وهي شعيرة شاملة وواســـعة إلى درجة أنه لا يوجد نظير لها من ناحية الشمول والوسعة فوق هذه الكرة الأرضية، ولا عند أي جماعة أخرى. وتمتد الكعبة بتاريخها –وبكل ما تحويه من معان مقدسة– إلى آدم عليه السلام وإلى ما قبل خلقه، ثم إلى إبراهيم عليه السلام الذي أعاد تعميرها من جديد بعد تعميرات عديـــدة سابقة. والكعبة بيت التوحيد المرتبط بالملة الإبراهيمية، وبالحقيقة الأحمدية قبل الخلق وفي مرحلة العماء، ورحم للنور المحمدي، وقبلة

جميع الأديان السماوية، ومركز للتوحيد بحيث لا يوجد هناك أي بيت أو مبنى يكون نظيرا لها أو مثيلا من هذه الناحية.

يتوجه في كل عام مئات الآلاف من النـــاس إلى هذا المكان السامي لكي يؤدوا وظيفة العبودية لله تعالى ويزدادوا قرباً منه في هذا الشريط المبارك من الزمن بالعبـــادات التي يؤدونها، حيث يتنفسون مشاعرهم وأفكارهم من خلال منافذ هذه العبادات، ويجددون عهود إيمانهم، ويتطهرون من أدران آثامهم، ويتذكر كل واحد منهم واجبـــه نحو الآخـــر ومسؤوليته تجاهه. ويؤدون جميع أمورهم الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والسياسية ضمن خلفية وعلى أرضية من العبادة المتوجهة لله تعالى ومن الشعور بالعبودية له، حيث ترقّ القلوب، وتتسع المشاعر حتى تبلغ طور مدّها وتصاعدها، فيعودون إلى بلدانهم بعزم جديد وبقوة جديدة وشوق نضر.

يذهب كل واحد منا إلى الحج عندما نـــدرك أن الأدران قد أصابت مشاعرنا ولوّثتها. وعندما نبدأ بالسفر يخيل إلينا أننا ولجنا من باب لم نعرفه ولم نعهده في السابق إلى عالم آخر من المعاني، ونؤدي الشعائر، الواحدة منها تلو الأخرى، ونحس بها ونصل إلى أعماق معانيها. وبينما نحن في الطريـــق ونقطع الجبال المهيبة، ونشبع أعيننا وقلوبنا بعلامات الإسلام وشعائره، نشعر بهبوب نسيم الحج الدافئ. ونحن نحس بهذا النسيم الدافئ أينما كنا سواء على مقاعد الســـيارات أو في غرف القطارات أو البواخر أو على مقاعد الطائرات أو في غرف الفنادق أو في صالونات وقاعات المسافرين أو حتى في الأسواق. ومهما كنا متعودين على وسائل السفر هذه أو على هذه الطرق، فإن الأيام والأسابيع التي يستغرقها السفر تكون مملوءة بمعان روحية متناغمة، وهبات وأفضال، حتى كأننا نستحم بمشاعر القرب والوصـــال وبأنواع الجمال والشعر والرومانسية، فيكتسب الروح قوة والقلب اطمئنانا، ونحسب أننا أمام باب سري يؤدي إلى عالم خاص مملوء بأنواع من الجمال الساحر.

وهذه الرحلة المباركة والمشاعر التي تتخللها تَهَبُ لعالم الأحاسيس لدينا قابلية حدس وشـــعور إلى درجة أننا نحسب والاطمئنان يلفنا -ونحن بحالة روحية خليطة من البهجة، وأحياناً بحزن خفيف ناتج عن حالة المراقبة الداخلية للنفس- وكأننا نخطو في رواق من أروقة الآخرة.

يرى أصحاب النظرة الصائبة أن الكعبة تنظر من ناحية إلينا، ومن ناحية أخرى إلى ما وراء هذا العالم المادي... إلى عالم الأبـــد... تبتهج أحياناً... وتغتم أحياناً أخرى... ونستطيع أن نطالع في وجهها الذي نستطيع تشبيهه بوجه إنسان وقور ورزين، لـــه تجربة آلاف السنين، وكأنها تريد أن تبث لنا شيئا، أو كأنها تخاطبنا وتهمس بأبيات شعر:

تعال إليّ أيها العاشق المتخفي... تعال!

هنا حريم خاص... هنا مقام الحرم،

لقد طالعتُ فيك أمارات الوفاء...

كأن الكعبة حسب موقعها ووضعها أمّ أو جدة جالسة في أفضل مكان في البيت لتشارك أولادها وأحفادها مسرَّاتهم وأحزانهم، وتعيش آلامهم. تجول بنظرها فيما حولها، تحزن أحياناً وتبتسم أخرى. ويحسب الإنسان وهو يطوف حولها في مدينة أم القرى كأنه طفل تمسك أمه بيده بقوة ليشعر بمزيد من الأمان. أجل!.. إن الإنسان وهو يطوف ضمن سيل من مئات الآلاف من الناس يحس وقد تصاعد عنده الشعور بالدار الآخرة بأنه متوجه لله تعالى بكل حب وشوق، وفارّ إليه جلّ جلاله، حتى ليكاد يغيب عن وعيه. وهو عندما يهرول وعليه ملابس الإحرام، ويرمل في الطواف وأكثر من نصف جسمه عار، تلفه المخافة من جهة، والأمل من جهة أخرى، ويعيش حالة من الانفعال وهو يسرع في طوافه هذا. ويستحيل شـــرح وتعريف الجو العميق الساحر الذي يحيط بالإنسان وهو يطوف بالبيت العتيق المبارك وما يشعر به أثناء الطواف والسعي من راحة نفسية ومشاعر رومانسية. وقبل أن

يبدأ الإنسان بالطواف يكاد يسمع -وهو يشاهد منظر الزحام الذي يذكر بزحام يوم القيامة- صمت الحرم الإلهي المنـــزوي وشعره. ولا يدري أحد أي الأبواب السرية تنفتح أمام الأرواح السامقة التي تدع أنفسها تنجرف في سحر جو الطواف، ولا أي مطارق خفية يلمسونها، ولا أي نوافذ سحرية تنفتح أمامهم على العالم الآخر؛ حتى أننا ونحن نطوف حول البيت العتيق بمشاعر فوارة ومتجددة في كل لحظة، نندهش ونتعجب من الألطاف التي تنهمر على قلوبنا من المنافذ المنفتحة في خيالنا، ومن البوارق التي تبرق في صدورنا، ومن الأسرار التي تطير بأرواحنا؛ ونتصرف وكأن في كل خطوة نخطوها باباً سرّياً سينفتح أمامنا مع دعوة لنا للدخول منه، ونحسب أننا نكاد نقطف لذة لم نعرفها من قبل، فنحس أن قلوبنا تدق بعنف.. عندها نشعر بعظمة الكعبة... هذه العظمة التي خالطت قلوبنا من قبل وسكنت فيها، وبكل عمقها... ونحس بأن نبض سحرها يسري في أنحاء جسدنا، فنرتجف من رأسنا حتى أخمص قدمنا.

ومع أن في الإمكان تفسير بعض هذه الخواطر وإسنادها إلى أسبابها، إلا أننا نبقى صامتين أمام الكثير من الســـنوحـــات والألطاف التي ترِد إلينا متجاوزة جميع مقاييسنا وتقييماتنا. لأن الكعبة وما يحيط بها من مظاهر مادية، حتى وإن كانت تعني شيئا، ولكن لكون أسلوبها أخرويا، ومعانيها ضبابية ومحتواها مغلقا وغير معروف، فليس باستطاعة الجميع فهم ما تريد الإشارة إليه. ومع ذلك فإن الجميع سواء أكانوا من العامة أم من الخواص، من الشباب أم من الشيوخ... كل فرد من هؤلاء لـــه نصيب من المعاني التي يدركها، وإن لم يستطع التعبير عنها.

وبجانب كون الكعبة بموقعها بين الجبال والتلال المهيبة تشبه زهرة زنبقة الماء منشقة عن برعمها، فهي بمثابة فانوس ســـحري يحمل ســـر الوجود، ومسقط ســـدرة المنتهى، أو هي بلورة من عصـــارة العوالم التي وراء

السماوات. وعندما يطوف الإنسان حول هذا الفانوس المحاط بالألغاز، يحس بأمور خفية بسعة الدنيا الدائرة، ويخيل إليه أنـــه ينظر من خلال موشـــور مرتبط بالسدرة المنتهى إلى عوالم فيما وراء السماوات.

أجل!.. فكل من لجأ إلى حرمها، يكتسب أعماقا في روحه ومشاعره وفكره. فعندما يفكر بوجوده وبالكعبة، ويستمر في التفكير في العلاقة بين هذين العنصرين اللذين هما مطمح النظر الإلهي، تنفتح أبواب سرية تنقلهم إلى عوالم سرية لم يكن لهم عهد بها من قبل. ولا شك أن مثل هذا الشعور والحدس، ومثل هذا المعنى والروح لا يحصل ولا يظهر إلا من اتحاد إيمان صحيح وقوي مع عيش حياة إسلامية كاملة، مع إخلاص ويقين تامين، وإلا لم يكن للقوالب المجردة مضمون حقيقي.

بفضل هذا الغنى وهذا العمق الموجودين في الكعبة، يبدو كل شيء عندما يصطبغ بصبغة الحج وبشعوره فـــوق قيمته عن الأوقات الاعتيادية، وبمهابة أكثر وألوان أجمل. عند ذلك يدع الإنسان نفسه لهذا السحر ليأخذه ويرتفع بـــه ضمن حلزون من النـــور ليصعد به ويرتفع ليصل إلى معبوده. وصلاة الطواف التي يؤديها صاحب هذا الروح الواصل إلى مثل هذه الذروة تكون مثل سجدة الشكر، ومن يشرب من ماء زمزم يكون كأنه يشرب من كوثر الجنة أو يعب من شراب الوصال.

إنْ قُمْنا بتشبيه الطواف حول الكعبة حسب التعبير الصوفي بـــ"السير في الله" الذي يعد في الأكثر سياحة حول شعور مبارك ومحاولة لزيادة العمق النفسي، فإن الذهاب والإياب في مواضع السعي يمكن أن نفسره بمعاني "السير إلى الله" و"السير من الله" الذي هو عنوان العروج من الخلق إلى الحق تعالى، ومن الحق إلى الخلق. أجل!.. ففي السعي بين الصفا والمروة يعيش الإنسان طوفان هذه المشاعر.

يعيش الإنسان في أثناء "السعي" شـــعور التضرع والطلب والدعـــاء

والاستمداد، ويعيش شـــعر وموسيقى الوصال وداء الوصال. فكأنه لا يفتر يطارد شيئا مهما. ويستمر السعي حتى يظهر ما يسعى إليه. وكل ما يظهر من أثر أو أمارة في هذا السعي يضاعف انفعال الإنسان ويثير مشاعره حتى تنطق الصدور بأمثال ما قال الشاعر:

انظر إلى حال هذا المسكين...

أصبح عبدا لشَعرة من شعر الحبيبة...

كلما غمس يده في شهد الحب...

ظمئ... فطلب الماء...

يتمتم بهذا وهو يسعى هنا كطوافه حول الكعبة. وفي مقابل محاولته عند الطواف حول الكعبة النـــزول إلى أعماق نفسه، نراه في السعي بين الصفا والمروة يسعى على خط مستقيم وقد دهمه شـــعور نبوي بالعيش من أجل الآخرين؛ بالضحك من أجلهم وبالبكاء من أجلهم، بـــل حتى بالموت من أجلهم. تراه لا يقر لـــه قرار، ولكن لا يفلت الحساب من يده. تراه قلقا، ولكن دون أن يتخلى عن الأمل. وتحت الأضواء الذهبية للســـماء، وفي الساعات الزرقاء لموسم الحج تراه يتلوى من حسرة داء وِصال جديد، ومن عدم عثوره تماما على ما يبحث عنه. فتراه يذهب ويجيء... يهَرول أو يمشي الهوينا... يصعد تلا وينـــزل من تل... يلفه التردد والاضطراب. ينغمس أحياناً في شلال نهر الناس المهرولين في المسعى ليعبر عن أحاسيسه ضمن كورس أو فرقة جماعية، وأحياناً يكون في حالة روحية يخيل إليه معها أنه لا يرى شيئا ولا يرى أحدا وأنه يسعى ويطوف منفردا، يبدو أمامه شبح السيدة هاجر عليها السلام... تراه يترنم وهو يرتشف من كأس قلبه:

اطلب أيها الولهان الحبيبة التي أهداها،

مثل الأسنة لتطفئ لوعة الفراق...

أنا ظامئ، فابحث لي عن ماء في هذه الصحراء،

خوف جهنم قد جثم على قلبي وأحرقه،

كل أملي أن يرش غيث إحسانك على قلبي الماء...

بهذه الكلمات ينتظر رحمة تنـــزل عليه من السماء لتطفئ نار قلبه. وإلى جانب ناره التي تلهب روحه وتحرقه يتلوى من حسرة ومن ألم الانتظار الذي لا ينتهي. أحياناً يهبّ في المسعى نسيم بارد من وراء أفق هذا العالم، ولكن هناك في الأغلب حزن يلفه الشوق، أو شوق يلفه الحزن، مع معاناة عشق قد صبغه الرجاء والأمل.

كثيرا ما يختلط الخيال بالحقائق في المسعى، فيبدو الناس هناك أحياناً وقد لفهم صمت عميق... وأحياناً تسمع أصوات بكاء متقطع... أحياناً كأنهم يساقون إلى الميزان وأحياناً كأنهم يركضون نحو الكوثر، فهم بين خوف ورجاء وبين خشية وفرحة... يستمرون في الذهـــاب والإياب وفي الصعود والنـــزول... الدقائق والساعات هناك مع كونها خفرة وحَيِيَّة فهي كثيرة الطلب، فهي تطلب الاهتمام على الدوام. وإلا فستزول وتنمحي دون أن تترك أي أثر.

كلما اقتربت الأيام من العيد تلوّن المطاف والزمزم والمسعى بشعور خفي من الحسرة والغربة إلى اللون اللازوردي، وتبدأ الكعبة بإنزال ستارة نوافذها شيئا فشيئا. ومثل كل الحوادث التي تدل على حقيقة الفناء وتشير إليها يفهم الإنسان أنه متى آن وقت الرحيل فعليه أن يرحل، وأنه لا بد أن يأتي يوم سيرحل فيه عن هذه الدنيا، وعند ذلك ينـــزوي في عالمه الخاص ويعيش نوعا من الانزواء الروحي.

ولكن لم ينته بعد كل شيء... فهناك طريق طويل، ورحلة طويلة تنتظر هؤلاء السائرين إلى الله تعالى. فهناك "مِنًى" بلغزها الغامض، وبسحرها الذي يدير الرؤوس منتصبة على الطريق تنتظرهم... وهناك "عرفات" التي كأنك

تسمع فيها صرير أبواب السماء ترقبهم... وهناك "المزدلفة" التي لن تدَعهم قبل أن تذيقهم مأدبة روحية... وبعد خطوات هناك المكان الذي يُظهِرون فيه كامل تسليم أنفسهم لله ويرجمون عقولهم المعاشية الدنيوية، ويضحون عن أنفسهم ويعيشون في عوالم أحاسيسهم عيد البراءة والتطهر. ثم يتوجهون إلى الكعبة وإلى كعبة قلوبهم... يتوجهون من الله إلى الله، وينهون عروجهم ونزولهم، وينثرون ابتساماتهم على حظوظهم بإلهام من تداعيات "الفناء في الله" و"البقاء بالله".

"مِنًى" التي فرشت رداءها في عالم التضحية ببريقها الساحر تقوم بإسماع أشعارها حتى قمم تلال المزدلفة، وتحاول أن تدخل إليها، بل تود حتى تجاوزها لتسلم على عرفات... تسلّم على عرفات، وترشد ضيوفها -الذين يلبثون عندها أربعا وعشرين ساعة- وتسلمهم إلى عرفات.

"منى" بالنسبة إليّ رمز سماوي للتضحية والحنان، ولمعنى الانقياد للأمر في جو من المهابة في الأرض، وحضن دافئ. هي عنوان للاستسلام وكأنه عش للإخلاص الذي لا يطلب أي مقابل أو ثمن. و"مِنًى" التي يسكنها لبضعة أيام من لا يملك بيتا أو مسكنا، ولا منـــزلا أو وطنا مكان وموضع سرّي. فما أكثر المشاعر التي تموج في قلب كل من لم يغلق قلبه للآخرة في هذا الموضع الحافل بالأسرار. أما نحن فنحس أن "مِنًى" قد امتزجت بأرواحنا إلى درجة أننا نحس وكأنها تنبض في قلوبنا وتعيش في أعصابنا. وما أن نخطو إليها خطوة حتى نشعر بأنها احتضنت روحنا (من الملفت للنظر أنها أول مكان احتضن رسولنا ﷺ)، وأنها تشير إلى الطرق المؤدية إلى ما وراء هذه الآفاق، وأنها تكملنا، وأنها تمتزج بعالم مشاعرنا، وهكذا نمتزج ونتوحد معها.

وبينما نبدأ بالتهيؤ في "مِنًى"، ونحاول أن نعطي أجنحة لأرواحنا، إذا بنا نرى عرفات وقد تزينت مثل غرفة عروس، وتهيأت لاستقبال زوارها مثل مرفأ أو ميناء أو ميدان أو قاعدة للانطلاق... تنتظر ضيوف الرحمن الذين

يسرعون إليها بلهفةِ مَنْ ألَمّ به داء الوصال... ضيوف الرحمن الذين يسرعون إليها بحثا عن احتمال جديد وإمكانية جديدة.

لعرفات نورانية متميزة، وللزمن الذي ينقضي فيها عمق آخر، بحيث إن كل روح استطاع نيل سعادة الوصول إلى هذه الحاضرة لا يفنى ولا يموت كموت غيره من أصحاب الدنيا. وكل من قضى ساعات من عمره على عرفات يتفتح طوال حياته كزهرة، ولا يشحب ولا يبهت لونه أبدا؛ فالدقائق الحانية المليئة بالعشق والوجد والشِّعر تبرق من منافذ ومن عيون أرواحنا على الدوام وتلتمع؛ ويطن في آذاننا صوت الذين يعلنون إيماهم المزين بالعشق والوجد مغردين تغريد البلابل... يعلنون إيماهم ومحبتهم وعرفاهم المتين المستقر في أخفى مناطق قلوهم، فيثيرون قلوبنا التي يغمرها الشوق آخذين بأيدينا إلى لذائذ لا يمكن بلوغها، ويهيجون مشاعرنا بألطاف ناضجة تشبع كل جوع وتضع مسحة من السحر على عيوننا –مثل استغناء الموجودات التي تملك حنكة وتجربة– وتجول بنا داخل غِنى أنفسنا.

الشروق في عرفات والغروب يكون دائما في جو من المهابة والعمق. ومن المحتمل أنه ما من شاعر بليغ يستطيع الترنم بأبيات كالتي تترنم بها عرفات وتسكبها في قلوبنا، أو همس لنا بحكمة وجودنا وغايته. وأنا أرى أنه لا بد لكل من يرغب في الوصول إلى رقة في الروح أن يتوجه إلى عرفات مرة واحدة في عمره على الأقل، ويمتزج بجوّها ويعيشه، ويتنفس شروق عرفات وغروبها كتنفسه الأوكسجين.

يعيش الإنسان في عرفات جو الدعاء والتضرع، ويطلق الآهات الحبيسة في قلبه التي ترتعش منها جوانحه. أما الأدعية بعد فترة العصر فتكون أكثر عمقا، لأنها تبدو وكأنها قد تضمخت بعطر وجوٍّ مِن وداع حزين، وتشبه الأصواتُ والأنفاس أصوات الملائكة فيما وراء السماوات، حتى تصل إلى ذروة السعة والنقاء. وكلما سمع الإنسان الآهات المنبعثة من سهل عرفات يشعر من الجو

الأخروي لهذه الأصوات، ومن الرقة والشفقة والرجاء الذي يحدثه الأمل في السعادة الأبدية، بأنه قد أصبح شابا وخالدا، وأنه اتسع وولج من فرجة باب كبير. أما عندما تغرب الشمس، وينشر الظلام جناحه فوق الأفق جالبا معه مشاعر فوارة من مشاعر الوداع، نتخيل وكأن الآمال قد تجسمت وبدأت تسيل في داخلنا، وأن مشاعرنا قد تنورت بفيض عرفات وبركتها، وأننا قد انسللنا من قوالبنا الجسدية -كما يحدث في الأحلام- ويممنا شطر نَواحٍ روحية ومعنوية غير واضحة المعالم تماما، وأننا بدأنا نئن كأنين عرفات، وأننا مع غروب الشمس ذبنا وانتهينا، وأننا قد تحولنا إلى آهات مثل الآهات التي تطرق أسماعنا في عرفات، بل إلى صراخ... ونحس بأننا قد تخلصنا من أثقالنا واكتسبنا أجنحة، ونحسب أن ماهيتنا قد تغيرت وتحولت إلى ماهية روحيـــة وكائن روحاني، فيأخذنا الذهول ونتسمر في أماكننا.

عرفات ميدان يســـود فيه الأمل والقلق مثل ميدان البعث والحشر يوم القيامة، وسفح من ســـفوح الرحمة. هي موطن لهطول الرحمة الإلهية على قلوبنا كالغيث، كأن الحوادث كلها تجري في إطـــار من الأمل، وكأن الإنسان يتجول فيها طوال يومه بين مواكب الملائكة، ويتذكر الآخرة دوما في قيامه وقعوده. يتجول الناس في سهلها وكل واحد منهم كأنه قد انسلخ من كل شيء دنيوي، لا يفكر إلا بحساب الآخرة وبالميزان... يتجول كالأشباح حاملا معه قلقه وخشيته، وكذلك أمله في الرحمة الإلهية، يرجو نيل عفو ربه، ويعيش خيال نجاته وفوزه، ويستفيد من يومه الوحيد هناك ويستغله كاملاً لكي يحصل على ألطاف سَنة كاملة وإلهاماتها... يستغل هذا اليوم، ولكنه ما أن يرى نفسه في موضع آخر وفي وقت دعاء ومناسبة تضرع، حتى يرى أنه لا يستطيع إلا الاندماج في جو الدعاء والتضرع.

لا منـــاص أمامه من هذا، لأن مزدلفة بالقرب منـــه تنتظره على بعد خطوات معدودة. فما أن نتلقى إشـــارة بأن مزدلفة في انتظارنا، حتى نترك

مكاننا الذي تحف به الأضواء والأنـــوار في عرفات التي تبتسم لنا بسمات الأمل. وبدرجة قرب الســـجود من الله بالنسبة إلى الركوع، نتوجه نحو مزدلفة التي تعد عنوان القرب من الله..[1] نتوجه إلى مزدلفة وكأننا نتوجه إلى الأبدية، أو نسير إلى الله تعالى. في هذا المكان المبارك الذي يكون البدر آنذاك قد قارب على التمام، فتماوجت الأنـــوار في السهول والجبال، وفي السفوح والوديان... يبدو كأن السماء قد دنت من الأرض ونزلت إليها، وكأن الأرض قد ارتفعت إلى السماء، وتحولت إليها. وبينما تحتضننا هذه الأحاسيس نشعر كأننا -ونحن في طريقنا إلى الله- في ميناء جديد، وشاطئ جديد، وفي سفح جديد. وضمن أجواء مزدلفة التي لم تتغير منذ إقامة الكعبة، وفي وُجُوهِ الحجاج التي ينعكس عليها نـــور السماء، نسمع أصوات هؤلاء العباد المخلصين الضارعين إلى الله تعالى... نسمعها في أجسادنا وفي أرواحنا وفي قلوبنا. عند ذلك نتوهم أننا أصبحنا في عالم آخر، وأننا نرافق الملائكة في عالم الملكوت ونتصادق معهم... عند ذلك ندع أنفسنا تماما ونتركها في لجة رحمة الله تعالى الواسعة.

يقول ابن عباس ﵁ إن سيد الأنبياء ﷺ حصل على وصفة مهمة وصريحة في المزدلفة بخصوص أمته وخلاصها، لم يستطع الحصول عليها في عرفات. وكم كان حبيبا إلى قلبي أن يكون هذا الرأي صحيحا مائة في المائة ولكان من حق المزدلفة -التي تقربنا من الله مثلما يقربنا السجود لـــه- أن تطلب منا ضراعة خاصة، وأنيناً وبكاء آخر يقربنا من الله تعالى.

الأضواء المنبعثة من المصابيح الموجودة في أرجاء المزدلفة، والوجوه النيّرة للحجاج، ونظراتهم التي ضببتها الدموع، وصدورهم التي تموج بالانفعالات، تضيف إلى ســـاحة هذا المكان المبارك -الذي لا نعرف سوى ليله- جمالا

---

(١) أي إن كانت عرفات تمثل الركوع فإن مزدلفة تمثل السجود، والقرب من الله في السجود أكثر من القرب منه في الركوع. (المترجم)

آخر يأخذ بالألباب. أما عندما يتقدم الليل فإن سحره يزداد ويتعمق. وبينما يستريح بعضهم تهيؤاً لغد حافل بالنشاط والجهد، ترى آخرين وهم يقضون الليل حتى الصباح في الصلاة والعبادة. ولا يدري أحد بماذا يفكر هؤلاء من أصحاب الأرواح السامية الذين حبسوا أصواتهم في صدورهم، ولكنهم يوصلون نبض قلوبهم إلى قلوب أهل القلوب... لا أحد يدري بماذا يفكر هؤلاء، ولا ماذا يقولون، ولا ماذا يهمسون لأنفسهم، ولا ما يخطر على بالهم. أصوات قلوبهم تتردد على الدوام في مستويات عالية سامية، وتتسابق مع أنفاس الملائكة وتكون معها كفرسَي رهان. وهؤلاء العمالقة الذين تجاوزوا الزمان، يستمعون إلى قلوبهم ويتكلمون بها. وبجانبِ وقَبْلَ لحن القلوب التي يترنم بها هؤلاء، بل وقبل قبل هذا، ينصتون ويحاولون سماع جميع الأنغام التي يستطيعون جمعها في كورس واحد من ضرب ريشة مشاعرهم على أوتار قلوبهم... يسمعونها معا وينصتون لها معا، ثم يرتشفون ماضيهم مع يومهم هذا، وكأنهم يرتشفون نغمة مليئة بالبهجة والحبور.

وعندما تلوح علامات الفجر في الأفق تبدأ جميع المشاعر والأحاسيس التي هاجت في عرفات بالانسياب إلى مزدلفة بعد أن تكون قد تضاعفت، تنساب مختلطة بأصوات أنين وبكاء مع ابيضاض وجه السماء بعد الفجر... توجّهٌ إلى الله تعالى خارج أوقات الصلوات وتوجّهٌ نحوه في الصلوات... أما الأدعية المنسابة إلى الصلوات والموجودة فيها والتي تعد بعدا من أبعاد القرب من الله تعالى فتأخذ عمقا متميزا آخر.

كأن هذه الأدعية ملابس من حرير تحيط بأجسادنا، أو أيادٍ سماوية تضيء آمالنا، وتمنح السلوان لآلامنا، أو كأنها ماء ينزل بردا وسلاما على صدورنا التي تلتهب فيها النيران، أو كأنها صوت أذان يسمعنا الحقيقة الكبرى فيرسل الرعشة إلى قلوبنا... وأحياناً تقوم بجمع أشتات دنيانا السابقة، وتلم أجزاءها المتناثرة، وتسمعنا من المعاني عن حقيقة أنفسنا

وجوهرها وعن خلودنا ودنيانا وعُقبانا ما يجعلنا نكتشف أنفسنا من جديد، ونتعرف على حقيقة ذواتنا، وننظر إلى الدنيا نظرة اعتبار ومن زاوية جديدة، ونشعر بقرب من دار العقبى، ونراها أكثر صفاء وأشد وضوحاً.

تستمر هذه التضرعات والتوسلات حتى شروق الشمس وظهورها في الأفق معلنة عن ميلاد يوم جديد. أما الجباه التي بقيت ساجدة حتى ذلك الحين فإنها في أثناء شروق الشمس تبدو وكأنها تشد الرحال من جديد لبلوغ قُرب آخر، وتبدأ برحلتها. أما الآن فأمامنا "مِنًى" التي أتيناها سابقا وسلمنا على وِديانها واديا واديا... مِنًى التي يلجم فيها أصحاب الأرواح الصافية منطقهم، ويعطون زمامهم بيد الروح... مِنًى التي يبدي فيها الواصلون إلى مرتبة التسليم انقيادَهم... مِنًى التي لجمت عقول ومنطق آلاف بل مئات الآلاف من الناس منذ عهد آدم عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام، ومنه إلى سيد المرسلين ﷺ، وربطت تقييمهم للأمور ووزنهم لها بالقلب... وأخيرا وبعد هذا كله فمِنًى هي المكان الذي تأخذ فيها النفس نصيبها بعد رجم الشيطان، وفيها يتم التمثيل الجماعي لموضوع التعبد الذي يعد أساس العبودية.

وما أكثر ما يتم عمله هناك بجانب رمي الجمرات؛ تقديم الأضاحي والحلق وتبديل ملابس الإحرام ثم أداء فرض الطواف الذي يتم في جو من مشاعر روحية عالية... هذا هو بعض ما يؤدى هنا.

يقوم الحاج منذ مغادرته بيته وطوال طريق رحلته بالتحلل من جميع أنانياته، الواحدة منها تلو الأخرى. أما من ناحية حياته القلبية والروحية فيتكامل ويتزين مثل قطعة مزينة من الحرير. أجل!.. إن الإنسان وهو في رحلته النورانية هذه يتعرف على أقدم الحقائق التي لا تبلى أبدا، وعلى الحقائق الأزلية التي تبقى نضرة على الدوام، ويمتزج معها. يصل هناك إلى أحوال لن ينساها أبدا. أما بالنسبة لمن يدرك حقيقة وكنه ما يؤديه في هذه

الرحلة الأرضية/السماوية، والألطاف الإلهية المعنوية التي تنهمر عليه، والذكريات التي يحصل عليها، فإنه يكسب عمقا قلبيا وارتباطا أقوى بالدار الآخرة. وتظل ألوان السماء، وأصوات الحجيج تملأ مخيلتنا، وتلف أرواحنا، وتشخص أمام أعين أرواحنا طوال أعمارنا.

لا يمكن ذكر أي مكان آخر غير الكعبة وما يحيط بها، له نفس الجاذبية والسحر، وإن كان هذا مشوبا بشيء من الحزن. ففي حرمها يشاهد الإنسان في كل حين جمالا أسطوريا، ويقطف هناك كل شيء وكأنه أنضج فاكهة وأحلاها، ويأكلها. والمحظوظون الذين يصلون إلى سعادة تمريغ وجوههم هناك سيتخلصون من وهم البحث عن مكان عبادة آخر، وحتى غروب عمرهم وانتهائه لن يستطيعوا نسيان السحر ذي البعد الأخروي لهذا المكان أبدا.

# الصلاة

الصلاة معراج المؤمن، ودليله النوراني وبُراقه، وسفينة السائرين من أصحاب الإيمان وطائرهم، وأقرب المنازل والديار لعوالم وراء هذه الدنيا للسائرين الذين يبتغون الوصال ويبتغون القرب، وآخر خيمة لهم، وأقرب الوسائل لبلوغ الغاية والمرام.

لكي يكون الإنسان في يوم القيامة أبيض الناصية، نوراني البصر، يتقدم على الآخرين بالأمارات الموجودة على أعضائه نتيجة الوضوء والسجود، بأيدٍ نقية، ووجوه طاهرة، بضمائر نزيهة مثل العالم الداخلي لأهل السماء... لكي يتحقق كل هذا فعليه بالصلاة وبالأعمال الصالحة قبلها. وفي الوقت نفسه نستطيع أن نطلق على عبادة الصلاة -التي هي الاسم الآخر والعنوان الآخر للقرب من الله والتي تملك أعماقا مختلفة- اسم "الرباط" الذي يعني الاستغراق في فكر العبودية لله طوال العمر.

أما الوضوء -الذي ننوي تناوله بشكل مستقل في بحث لاحق- فهو أول تنبيه في درب الصلاة، وأول تهيؤ لها. أما الأذان الذي يجب تناوله أيضا بشكل مستقل فدرب معنوي مهم. بالوضوء يتطهر الإنسان من الدنس البدني ومن السلبيات المعلومة وغير المعلومة، ويستمع الإنسان بالأذان إلى وجدانه. وعندما يصلي وحده الصلاة الأولى يحاول أن يجد الصوت الداخلي في أعماقه وأن يقتنصه، ثم ينتظر صلاة الجماعة لكي يحقق بالجماعة البدء بالحركة الكبرى.

إن هذه العبادة المباركة ذات الأبعاد الشاملة وذات الطابع المعراجي تقوم بنقل الإنسان إلى سماء اللانهاية لتصل بـــه إلى عالم الملائكة. والإنسان يدع نفسه في لجة هذه العبادة خمس مرات في اليوم وكأنه يتطهر ويغتسل في جدول دافـــق. وفي كل مرة ننغمر فيه في هذا الجدول نشعر بأننا تطهرنا أكثر. ثم ينقلنا هذا الجدول إلى بحر واســـع ويتجول بنا بين نقطتي البداية والنهاية، وهذا يعني تمرينات لنقلنا إلى نقطة من عالم الآخرة والخلود هي خارج أبعادنا الاعتيادية.

ينقسم الليل والنهار بشكل غامض بالصلاة... وتُنظم الحيـــاة حسب مفهوم زمني يتخذ العبادة محورا له، وبفضل هذا تجري تصرفاتنا وســـلوكنا مجرى حسنا تحت رقابة الله تعالى، وتأخذ حركاتنا وســـكناتنا خارج العبادة حالة عبادة أيضا، وتتلون بلون العبادة، وتبدو حيـــاتنـــا الفانية على وجه الأرض وقد تلونت بلون السماء.

وفي اللحظة التي يفيض ويحين وقت الأذان من خلال ضجة الحياة، أو من خلال الصمت المخيم عليها، ومن إشارات عقارب الســـاعة، ومن تغيير الشمس لموضعها، وزيادة الحركة والضجة حول الجامع، ومن سماع خرخشة مكبرات الصوت بينما يحاول المؤذن تعيير صوته تهيؤا للأذان... بعد كل هذه الإشارات حول قرب وقت الصلاة، تبدأ في الصدور أحاديث صامتة، وسماع أصوات غير واضحة المعالم مثل هذيان المستيقظ توا من النوم، وسماع كلمات تتجاوز أبعادنا الجسمية، وكأن الإنسان بدأ يعيش حياة برزخ بين الدنيا والآخرة. ومع أن الصلاة لم تبدأ بعد إلا أن أحاسيس أخرى تبدأ بالظهور نتيجة مناورات الفكر ومحاولته البحث عن مجار وقنوات جديدة... ويدمدم الإنسان بأشياء لا تعد ولا تحصى... وهنا وبعد قليل وقبيل بدء العبادة المزمع إقامتها تتوجه القلوب إلى نوع من التوثب والتركيز الروحي... وتحاول بمعاونة جميع الملكات الروحية والقابليات الوصول إلى حالة من التهيؤ والاستعداد المرجو.

يمكن أن يعد التوضؤ أول خطوة للتهيؤ لعالم العبادة، ثم يأتي التوجه نحو المسجد... كل هذه الأمور تعدّ تعبيرا وجهدا للوصول إلى نقطة معينة من النضوج في هذا الأمر. أما الأذان فكأنه دعوة للدخول إلى الحرم، وصوت لَدُني يساعدنا للوصول إلى تركيز معين في أعماقنا، وريشة عود تضرب على أوتار أحاسيسنا. ومع أن آذاننا تعودت على صوت الأذان الذي يتكرر كل يوم، إلا أنه يظهر أمامنا فجأة على الدوام وكأنه قمر يرتفع من وراء التلال الموجودة بيننا وبين العوالم الأخرى... ويقصف كالرعد ليحول أنظارنا الدنيوية إلى السماء. وهنا يبدأ فاصل موسيقى إلهي كأنه صوت نافورة فوارة أو صوت شلال هادر. وما أن يبدأ هذا حتى ينهمر على أرواحنا أعذب الحان الدنيا... ألحان تحيي القلوب وتوقظها. ولا يقف أمر الأذان هنا، فهو يسحبنا بتداعياته إلى إقليمه الحريري ليهمس في قلوبنا سحر العهود النورانية، وليأخذ بيد خيالنا الذي يتجاوز الزمن ليتجول بنا في دروب التاريخ، ليجد ما فقدناه هناك، ويهبه لنا، مما يثير هذا الخيال ويهيجه. وهو يهب لنا في كل مرة باقة نضرة من صوت ومن شعر متناغم. نحن نتلقى الأذان في كل مرة ونستشعره في أعماقنا وكأننا نغتسل في جدول من الموسيقى، ونجد فيه سحرا آخر وطعما آخر ولطافة وسعادة أخرى. ويثير سماعه وحدس معانيه عندنا في أكثر الأحيان شعورا وكأننا نرتفع إلى السماء ضمن سلّم حلزوني سحري، أو نتجول ببالون في الأعالي. وأما إن كان الأذان يُؤدى على أصوله وكصوت للوجدان وكنَفَسِه... فما أرقّ دقائق الأذان وما أنورها عندما يتردد صدى هذا الأذان المحمّدي في السماء ويتماوج!.. ولو استطاع الإنسان أن ينـزل في تلك الدقائق إلى أعماق روحه ليستمع إلى وجدانه لأحس بمعان لم تُكشف عنها وهي تنساب إلى داخله، واستمع لتداعيات متماوجة في أعماقه!

أما أصحاب الضمائر الحية الذين يجددون أنفسهم على الدوام، ويحافظون على نضارة حياتهم القلبية والروحية، فإنهم يحسون عند كل أذان

بحلاوةِ وطراوةِ أول أذان في العهد الذي نـــزل فيه لأول مرة من السماء، ويتخيلون في أصوات الأذان هذه وكأهم يســـتمعون إلى نداءات الأنبياء... ويصلون في عوالم قلوبهم إلى كورس الملائكة وهـــم يكبرون ويهللون ويشهِّدون... ويخيل إليهم وكأهم يسمعون أنفاس جبرائيل التي تهب الحياة، وأنفاس إسرافيل التي تبعث من في القبور.

وبعد أن يتم بالأذان التهيؤ المعنوي والإشباع الروحي، وقبل الإبحار في بحار القرب من الله قبل صلاة الفريضة، تعد صلاة النافلة، ثم إقامة الصلاة فترة استقبال لنسائم الرحمة الإلهية الهابّة على الأرواح، وزيادة في التركيز المتزايد بشكل تصاعدي حتى تلك الدقيقة، ويتم فحصه والتثبت منه مرة أخرى، ويعاد النظر مرة أخرى في حالة التهيؤ والتوجه والســـكينة النهائية. وهكذا يتم الإقبال على الصلاة وكأن الإنسان مقبل على العروج إلى السماء. وتتم في أوتار ضمائرنا عملية تنظيم لمشاعرنا الإنسانية النابضة في قلوبنا وتعبيرها، وللأصوات والكلمات والتصرفات التي توجهنا نحو محرابنا الأبدي، إلى أن نجد النغمات الحقيقية العائدة لقلوبنا. ولا شك أن الصوت الحقيقي يبدأ بالسلوك المشترك والمشاعر المتوحدة للجماعة التي تقف تجاه القبلة وتصطف خلف الإمام وقد عقدوا أيديهم أمامهم تعبيرا عن التوقير والاحترام... يركعون ويسجدون للحق تعالى، ويظهرون أقصى آيات التعظيم له، ويقفون أمامه خاشعين، وعند السجود يستوي عندهم موضع أقدامهم مع موضع جباههم. وبنسبة إحساسنا بشعور الجماعة في قلوبنا نستطيع تذوق كل صور جمال عصور الأنبياء والإحساس بها.

أجل!.. إن من يتواصل مع تناغم الصلاة السماوية، فإن كل حركة وراء الإمام في الصلاة وكل كلمة، هي عند ابن آدم صوت داء الوصال وصوت حسرة للجنة المفقودة، وتظهر بشكل شعور بالأمل وبالفرح بالوصال. والصلاة بالنسبة لمعظم من ترك نفسه في الجو المعراجي للصلاة تعد إشراقات فجر للأيام الحلوة التي تملأ خيالاتنا لعهودنا في الجنة من قبل، أو للجنات

المقبلة. أما نحن فعند وقوفنا لكل صلاة نحس -بنسبة سعة عالم الأحاسيس لدينا- وكأننا نرتشف بهجة صفو جيل نوراني وصمته... بهجة ممتدة من جمال الجنة إلى العهود الذهبية لتاريخنا. وبفضل هذا نستطيع جمع أذهاننا المشتتة بفعل المشاغل العديدة للدنيا، وتركيزها. أما أرواحنا فتنسلخ من الجو القاسي للجسد، وتنفعل مرة أخرى بأمل الوصال. ومع أنه لا يكون في كل صلاة ولا في كل صلاة فريضة فإن أرباب القلوب يستطيعون السياحة بين عالم الأزل والأبد عدة مرات في اليوم الواحد، ويمررون الماضي والمستقبل معا من منشور الفكر بوتائر متعاقبة. ويتأملون الشرائط الذهبية للزمن الماضي مع التلال الزمردية الخضراء للمستقبل المحفوف بالأمل في آن واحد. وبهذا نستطيع أن نشعر ونعيش حياتنا وحياة الآخرين في اللحظة نفسها، ونجد في أعماقنا لذة آلاف الذكريات وكأننا نرتشف ماء الكوثر. وكما يحدث في الأحلام نقوم بطيّ المسافات، والتجول في عوالم فوق الزمن... ونتذوق طعم جميع الأمور الخارقة وغير الاعتيادية... وننتقل من فكر إلى فكر، ومن شعور إلى آخر... ونقضي كل لحظة في جو من عرفان، وفي جو من محبة، وفي طوفان من شعور باللذة... وينطبق هذا على من استطاع الوصول إلى مثل هذا الأفق من العرفان.

عندما تمتزج الصلاة بالروح وبالقلب وتسري فيهما، تقوم هذه الحالة النورانية الفريدة بتقليب أعمالنا الاعتيادية لتضع تناغمها، وشعرها، وحالتها السماوية، وتقيمها بدلا منها.

الحركات السرية العائدة للصلاة التي تغذي أفكارنا وأخيلتنا كل يوم عدة مرات تجد على الدوام طرقا ومنافذ وراء أفق هذا العالم لتنقلنا إليها وهي تهمس في قلوبنا بأبيات الشاعر نسيمي:

مكاني أصبح لا مكانا،

انقلب كياني كله روحا،

وتجلى عندي نظر الحق عيانا،
فغبت عن نفسي من لذة الوصال...

وهكذا تقوم العبادة بإفشاء ما يستتر في القلوب من الجمال الأزلي الذي كان كنـــزا مخفيا من قبل، والذي هو منبع جميع الإلهامات والهبات، بكل أعماقها التي لا تسعها الأبعاد والمسافات. لذا فما يُعاش في أثناء الصلاة -بجانب الأمور الواضحة المعروفة للجميع- هو في الأكثر طوفان من المشاعر المتسمة بالعظمة والمهابة والتي تتجاوز الكميات والكيفيات، ودوامة من الأحاسيس. في الصلاة يخيم على دنيا التعبير والبيان عندنـــا ما لا يمكن أن يُقال، وهمس مشاعر لا يمكن التعبير عنها بموسيقى فريدة في أرواحنا، وتشغل كياننا أحاسيس واسعة وعريضة لا تسعها الألفاظ اليومية الاعتيادية، وتنفرج فطنة -تتجاوز العقل المادي وتتسم وتتلون بلون وطابع غيبي مفتوح للحدس والإلهام- عن باب فكر أخروي مرتبط بالخط النبوي... لذا نستطيع أن نقول من هذه الزاوية إنه لا توجد للعبد عبادة أكبر من عبادة الصلاة، ولا توجد أحاسيس أصوب وأصح من الأحاسيس التي تظهر في تصوراته وخيالاته وهو قائم في الصلاة.

إن أفق الصلاة الذي تصله روح الإنسان التي تتجاوز بمشاعرها وإلهاماتها وحدسها الجسد وعالم الشهود، مع جميع الأرواح التي تحس به، تنطق بالحسرة وبآلام داء الهجران. كما تنطق في الوقت نفسه عن اطمئنان القلب، ورَوْحِ وريحان المشاعر الإنسانية، وعن المصير والقدر الأزلي للوجود، وعن تأمل النجوم لسطح الأرض، وعن أســـرار السماوات، وعن أضواء دار العقبى، وسفوح الجنة، والأشجار المتمايلة في تلك السفوح، وعن الأنهار الهادرة تحت هذه السفوح... تنطق بأركانها... وتنطق بالقرآن الموجود فيها، وبالأدعية... تنطق بكل هذا وتكرره بأداء وبأسلوب جديـــد وكأنه يسقي أرواحنا مياه الكوثر.

وبعد الوقوف للصلاة يود هؤلاء العباد الصادقون أن يعلنوا عن طريق الركوع مدى انفعال أرواحهم الصافية، وعن ارتجافات ورعشات أفكارهم النيرة المستقيمة التي لا عوج فيها ولا التواء. وبشعور خليط من الإحساس بأنهم تجاه عظمة وجبروت، وأمام رحمة ولطف ينحنون مثل انحناء عصا... ينحنون وهـم يتمتمون بصوت خافت وبشـعور من العبودية يلف كل كيانهم... يتمتمون دوما عن العظمة الإلهية، ويدقون باب الحضرة الإلهية بالركوع الذي يعد أسلوب توجه أهل السماء وإبداء خضوعهم له. وبنسبة انفراج ذلك الباب يستطيعون الوصول إلى أعماق عالمهم الروحي. وكما في الحج أو في رحلات أخرى نحتاج فيها إلى تكرار التكبير والتهليل عند تسلق تلال، أو عند النـزول إلى سـهول، وكأننا ننتقل من فصل لفصل آخر، كذلك يتم في الصلاة التي هي عنوان رحلة الروح ومعراجها التعبير عن الانتقال من فصل فيها إلى فصل آخر بكلمات مباركة تحمل المعنى والشعور والفكر المبارك نفسه. ففي كل ركوع تقريبا يتم لمس مطرقة باب الحضرة الإلهية العظمى بالتكبير والحمد وبالمشاعر التي تتداعى بهذه الكلمات. ثم يتم انتظار الوقت المبارك بكل يقظة وانتباه ورسوخ لتقييمه بأفضل شكل، وتتم محاولة اصطياد التجليات الإلهية وهباتها وألطافها بصبر العنكبوت ودقة الهرّ في اصطياد فريسته.

ينفث الركوع الذي يأتي بعد خطوة واحـدة من الوقوف في الصلاة نفحاته علينا، ويهمس في أرواحنا همسات أجمل من الحياة نفسها، وأثمن من الأذواق الجسمية، وعن رؤيا لا يمكن أن نتخيلها أو نتصورها، ولا يمكن أن تتحقق في هـذه الدنيا أبدا. ويَعِدُ قلوبنا أمورا تتجاوز بكثير ما ننتظره أو نتوقعه... يعدها بأيام ودقائق زمردية وراء هـذا العالم. ألسـنا جميعا أبناء أفكارنا وخيالاتنا وآمالنا بوجه من الوجوه؟ فعندما اهتدينا إلى الحقيقة بعد أن قاسينا الكثير في هذه الأيام الصعبة، فإننا نتجاوز الزمن الذي نوجد فيه

ونثبت أنظارنا على "الزمن الآتي" بأمل الحصول على السعادة، حيث نتأمل باسمين سفوح الجنة.

الركوع ببُعده الذي يحمل معنى الانحناء أمام الحق تعالى توقيرا وتعظيما لــــه، لذا فهو يأخذ معنى الانحناء من كل من أحنى ظهره، وأحياناً يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أو ﴿إِنَّمَا أَشْــــكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾ فنشــــعر برائحة قميص يوســــف من عالم يوسف عليه السلام أو صوت خرير ماء الحياة. يُسمعنا هذا ويهيج مشاعرنا بالخوارق المنتظرة من وراء الحقائق. يهيجنا إلى درجة أن شعورا بالحمد والثناء يلف كياننا فنعتدل في الوقوف لكي نهدي له تعالى عرفاننا بالمنة له. وهذه الوقفة القصيرة تختلف عن الوقفة الأولى، فهي مرحلة جديــــدة من مراحل الرحلة والسير نحو الله تعالى، وشاطئ آخر من هذه الرحلة. في هذا الميناء النوراني نسترجع في أعماق قلوبنــــا تسبيحات الركوع، ونحاول في هذه الوقفة القصيرة الإحساس بمشاعرنا التي لا تحد، وخيالاتنا اللانهائية، ونجعل قدرة الحس عندنا في استنفار لتصيد الألطاف، وبأطياف "الكنــــز المخفي" الذي عرفناه ندع أنفسنا في شلال جديد من أحاسيس واسعة مصطبغة بصبغة القرب من الله. ومن الصعب معرفة مقدار اللذة والخشية ومشاعر التوقير التي تلف كيان الذين يشعرون بالصلاة في ركوعهم وقيامهم في أعماق ضمائرهم، وكيف ينفعلون بالأمل، ويرتجفون من الخيفة. هذا الشعور، وهذا الإحساس العميق هو أولى الخطوات التي يخطوها الإنسان نحو الوصال، وأكثرها جدية، والسجود هي الخطوة الثانية.

الســــجدة هي أرضية وخلفية الشكر، ووعاء المهابة الذي تصهر فيه العبودية وتسكب إلى قلب وقالب الواصلين، وعرصة وخليج مشاعر وأفكار الوصال المتوجهة للذات الإلهية ونقطة اللقاء.

وكلما شعرنا بالسجود على وجهه الحقيقي، وتفاعلنا معه نحس –ونحن ننتقل من القيام في الصلاة إلى الركوع ثم إلى القيام– وكأن هناك عصارة من

الإيمان ومن الإســلام ومن الإحسان تنسكب إلى التلال الزمردية لقلوبنا وتنساب إليها.

عند السجود تلتقي جبهتنا وأقدامنا في المستوى نفسه، ونشكل نصف قوس، ونتوتر مثل وتر القوس، وننقلب إلى نَفَسٍ وإلى صوت أنين، فنحس أن وسعة آمالنا تسبق أعمالنا، وتكفي كل شيء، وأن رحمة الله تسبق كل شيء عندما تتحد مع إيماننا وتكوِّن وحدة معها، فنشعر وكأننا نمر من تحت أكاليل سماوية يقع طرف منها في عالمنا والطرف الآخر في دار العقبى محاولين تغيير حظوظنا.

وعندما ينظر الإنسان من موقعٍ ونقطة ذروة حظه التي يســمو إليها بمشاعره في السجود، ويتطلع ويتأمل الحقيقة، ويشرح بلسان قلبه جميع الكلمات المعبرة عن أحاسيسه، يوجه دنياه قليلا نحو الآخرة، ويعكس بعضا من عالمه البعيد إلى عالمه الروحي، فيستطيع الإحساس بمناخ عبوديته والعيش فيها وكأنه يقرأ ويطالع مناقب هذه العبودية ومآثرها.

أجل!.. إن أدعيته التي يثيرها شــعوره بعبوديته، عندما تختلط بشلالات الرحمة الإلهية وألطافه، وتجريان معا لتلتقيا بالاستجابة الإلهية تعيش عندها مشاعرنا في جو جميل كجو الجنة، وتنشد أغاني الوصال. وجمال هذا –عند الذين يفهمون هذا الأمر– جمال أخاذ، وجمال جذاب وساحر إلى درجة أن من ذاق طعم هذا الجمال مرة واحــدة في حياته لا يدري كيف يشكر صاحب هذه النعم وصاحب هذه الأفضال.

إن بطل القرب من الله الذي يتعمق قربــه من الله كل حين، الواضع جبهته على الأرض، والذي يرتفع في سياحة سماوية وبشكل حلزوني إلى ذرى لا يمكن بلوغها... مثل بطل القرب هذا يشــعر وكأنه اقترب من "حظيرة القدس". وبسُكْر هذا الشعور، يرفع رأســه بكل توقير من السجود مبديا تعظيمه وعرفانه بكرمه تعالى لكي يلوّن شعوره بالوصال ببعد آخر،

لكي يقول: "التحيات لله..." بكل الأدب الذي يقتضيه وجوده في الحضرة الإلهية... يقول هذا ويأخذ بـــه الوجد حتى كأنه لم يعد كائنا من كائنات هذه الدنيا، أي يأخذ حالا ومعنى وسحرا فوق الطبيعة.

وبعاطفة لا تعرف الارتواء ولا الشبع يتوجه بطل الصلاة بهذه المشاعر الفوارة -خارج حدود الكم والكيف، والمتعمقة بالنية الخالصة التي يخلد بها يقينه ويرتبط بها بالله تعالى- لأداء فرض الشكر للحق تعالى على كل نعمه من حياة ومال وسائر نعمه الأخرى، فيذكر الله بكل مشاعر كيانه ويئن... يذكر النبي، فيمتلئ داخله بالانشراح... ويفكر بالمؤمنين الذين يشاطرونه السعادة نفسها فيدعو لهم بالخير... ثم ينهي صلاته التي بدأها بالتكبير بالشهادة التي هي أساس الدين، وأساس رحلة المعراج هذه.

الذين تعودوا على أداء الصلاة، ويتغذون بها، لا يشبعون منها أبدا. ليس الشبع منها، بل يقول كل منهم عقب الانتهاء من كل صلاة: "هل من مزيد؟" فينتقل من صلاة نافلة، إلى نافلة أخرى، ويرتفع كالشمس في صلاة الضحى، ويلمس بصلاة الأوابين مطرقة باب القرب من الله، ويرسل الأنوار بصلاة التهجد إلى ظلام البرزخ، ويحاول أن ينسج حياته بالصلاة مثل دانتيلا جميلة، ولا يدير رأسه أبدا عن العالم النوراني الذي يعيش فيه، ولا عن المعاني التي تلف روحه... بل يَعْدو على الدوام ويسرع وراء أنواع صور الجمال التي تَعِد بها الصلاة.

# الميلاد السعيد

إن ميلاد فخر الكائنات يعد ميلادا جديدا للإنسانية كلها. فحتى تشريفه للدنيا لم يكن هناك فرق بين الأسود والأبيض، ولا بين الليل والنهار، ولا بين الورد والشـــوك. كانت الدنيا وكأنها في مأتم عام، والفوضى تســـود الوجود... وبفضل النور الذي أنـــار بـــه الوجود افترق الضياء عن الظلام، وانقلب الليل إلى نهار، وانقلب الكون إلى كتـــاب يمكن قراءته كلمة كلمة وجملة جملة وفصلا فصلا... كأن كل شيء قد بعث من جديد، ووصل إلى قيمته الحقيقية.

أجل!.. إن تشريفه الدنيا يعد حادثة كونية، أي أهم حادثـــة جرت في الأرض وفي السماء، وبعثا وحيـــاة جديدة للإنسانية في الوقت نفسه. فهو بالرسالة النورانية التي حملها بيديه كان يقوم بتنظيم الدنيا من جديد حسب قيم السماوات، وبوظيفة الترجمان للحقائق الموجودة خلف أستار الوجود، وبتقديم تفسير جديد ونظرة جديدة للأشياء وللحوادث. فقد كان الوجود قبله دون معنى ودون روح، قد تمزقت الروابط فيه، وأصبح كل شيء غريبا عن الآخر. كأن الجمادات كانت من قبله رموزا لمسيرة العبث في مسرح الوجود، وتبدو الأحياء وكأنها في قبضة الانتخاب الطبيعي، وفي كل يوم بقبضة موت مختلف. وفي مثل هذه الوحشة المظلمة كان الإنسان يئن من الفراق كل آن كيتيم وكمظلوم. بالنور الذي نشره انـــزاحت الأستار وزال سحر الظلام فجأة، وفرّت الشـــياطين، وهُزمت الضلالات واستقرت في أعماق الجحيم، وتغيرت ماهيات الأشياء، فانقلب الهدم إلى بناء، والانقراض

إلى التعافي. وبدأ المجيء إلى الدنيا والرحيـــل عنها يأخذ شكل مراسيم عيد، المجيء إليها عيد ميلاد، وفراقها عرس رحيل.

منذ أن داعب نوره رؤوســـنا زال عن أرواحنـــا رعب الفناء، وفاضت بشائر الوصال من ديار الأحبة على الصدور الملتاعة. وبإكسير الحياة الذي نفخه في قلوبنا وفي قلب الإنسانية كلها بدأنا ندرك أنفسنا ونفهمها، وندرك ماهية العلاقات بين الأشياء، ونستطيع تقييم القابليات الموجودة في ماهيتنا وجوهرنا، ونحدس بُعد اللانهاية الموجودة لدينا. لولاه لما اكتشفنا هذا العمق الموجود في أرواحنا، ولا استبشرنا وفرحنـــا بالرحلة التي تمر من القبر نحو اللانهاية. هو الذي نثر على قلوبنا انفعالات الوجد والعشق... هو الذي أنار عيوننا بالنور... وهو الذي هيأنا للرحلة إلى بلد الأبد والخلود.

هو بالنسبة للساحل الذي ننتظر فيه بدء هذه السفرة الطويلة والمليئة بالأسرار قبطان السفينة ومرشد الطريق. وهو بالنسبة للعالم الذي نرحل إليه ونصله. المضيف ومستقبل الضيوف ودليلهم، وشـــفيع لنا. لذا كانت هناك مسؤوليات معينة لنا تجاهه، ولا يمكن أن نبقى غير مبالين بهذا الأمر أبدا. ولكن الغريب أننا طوال عصور عديدة بقينا غير مبالين برمز الضياء هذا وبرسالته النورانية... لا، ليس فقط غير مبالين، بل أحياناً تصرفنا دون توقير واحترام تجاهه.

ومع أننا نحاول في الحقيقة ضمن دائرة معينة وضمن مقياس ما، القيام بشعائر الاحتفال بمولده بتوزيع بعض الحلويات وماء الورد، وأحياناً بجلب بعض المغنين أو قراء المدائح النبوية لإثبات ارتباطنا به... ولكن كل هذه المحاولات لا ترتقي ولا تتناسب مع عظمته. بل لم تصـــل حتى إلى الاحترام والاهتمام الموجه إلى عظماء في التاريخ لا يستطيعون إلا أن يقفوا باحترام أمام ســـيد الأنبياء والمرسلين. فمثلا لا نشاهد أي فورة فرح أو مظاهر بهجة كالتي نشاهدها في مناسبات عيد ميلاد المسيح عليه السلام وفي احتفالات رأس السنة الميلادية.

والمقترحات التي يمكن تقديمها هنا ليست بطبيعة الحال من التكاليف الشرعية، فلا يمكن لأي أحد ادعاء هذا. ولكني أتساءل ألا يمكن أن نجعل هذه الاحتفالات -باسم رسالته الهادية النورانية- أكثر عمقا وغنى وجدية؟

يتم الاحتفال بالأيام العائدة إلى السيد المسيح عليه السلام في جميع البلدان تقريبا، المسيحية منها وغير المسيحية، بمظاهر كبيرة من الفرح والحبور والبهجة. وتستمر هذه الاحتفالات أسابيع، بل أشهرا، تجري فيها حوارات وكلام في هذا الموضوع. وفي كل أسبوع يتم تبادل التهاني والهدايا باسمه، ويكون هذا هو الشغل الشاغل لدوائر البريد في تلك الأيام، وتدق الهواتف على الدوام من أجله، وترتفع سماعات الهواتف لـه، وتتزين كل الأرجاء بالشموع، وتغرق الأسواق والمحلات التجارية بالأضواء، وترتفع الضحكات. تنقلب البيوت إلى خلية نحل تئز بالمشاعر نحوه، وتئن المعابد بأناشيده، ويمر كل يوم ضمن احتفالات ساحرة تدير الرؤوس.

صحيح أن العديد من الناس في هذه الكرنافالات التي يختلط فيها الحابل بالنابل لا يعرفون ما يفعلون ولا يعرفون لماذا يفعلون، ويكون الكثير من تصرفاتهم تصرفات تهريجية ودون أي ضوابط. ولكن مع هذا تَشم في تلك الأيام نوعا من الوجد الديني، وقطاعات كبيرة من الناس تعرف ماذا تفعل.

على أي حال من الأحوال فإن الأيام والليالي المرتبطة بالمسيح عليه السلام قد امتزجت في فكر الإنسانية إلى درجة أن الجميع -أدركوا ذلك أو لم يدركوه- يجدون أنفسهم في خضم هذه الاحتفالات الغربية. وسواء أكانت الاحتفالات عبادة أو لهوا أو تهريجا، فهم يجدون أنفسهم يشاركون المسيحيين المشاعر نفسها، ويقومون ويقعدون مع هذه المشاعر، حتى إنهم يقومون بقطع أشجار الصنوبر وبذبح الديك الرومي، وبشرب الشمبانيا، فيسكرون حتى الثمالة، ويخرجون إلى الشارع سكارى لا يدرون ما يفعلون.

طبعا نحن لا نرضى ولا يوجد هناك شخص واحد يرضى أو يقبل تحول مناسبة المولد السعيد والمبارك والمبجل، ولا تحول الدين الإسلامي إلى مثل هذه الكرنافالات. كما لا يملك أحد القدرة على القيام بمثل هذا التحويل. ولكن كلما شاهدنا كيف أن دنيا يسودها الكذب والرياء استطاعت استغفال الإنسانية كلها وأخذتها في شباكها... كلما شاهدنا هذا نحاسب أنفسنا ونتسائل بحزن: "لماذا لا يستطيع العالم الإسلامي الاحتفال في ربيع الأول كما يجب بمولد سلطان الأنبياء الذي هو في الوقت نفسه ميلاد هذا العالم وربيعه، ويوم خلاص الإنسانية نفسها... الاحتفال بنفس المشاعر الجياشة".

لا يجب أن يتبادر إلى الأذهان مما ذكرنا أعلاه أننا نريد المسّ بمقام سيدنا المسيح عليه السلام وبمنزلته، أو بمقام أتباعه وحوارييه. فالاحترام والتوقير الذي نحمله نحن المسلمين تجاه هذا الرسول الكريم لا حد له. كما نؤمن بأن الرسالة التي أتى بها تشكل الآن ركنا مهما من أركان المدنية الغربية الحالية. فالمؤرخون وعلماء فلسفة الحضارات يذكرون بأنه لولا رسالة المسيح عليه السلام وما حملته من روح ومعنى لما ظهرت المدنية الغربية. لأن هذه المدنية تعتمد على أركان أو على أسس ثلاثة هي: الفكر اليوناني (الفكر الرياضي)، والقانون الروماني، ثم الركن الثالث المهم وهو الدين المسيحي. ويجب هنا أن نسجل بأنه لولا فخر الكائنات محمد ﷺ ورسالته الهادية المنيرة لما كانت هناك حضارة تحت اسم الحضارة الإسلامية. ولولا الحضارة الإسلامية لما كانت هناك الحضارة الغربية.

أجل!.. فلو لم يكن هناك الدين الإسلامي بسماحته المعروفة ودفئه وتقديره للعلم والفكر وحضّه عليهما... ولولا شروقه على سفوح الغرب بألوانه السماوية... ولولا قيام العلماء المسلمين والمفكرين الأتراك منذ القرن العاشر بنقل الثقافة اليونانية-اللاتينية إلى أوروبا وتعريفها للأوروبين لبقي

الغرب حتى الآن في ظلام القرون الوسطى. وكما هو معروف فإن علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والهندسة والطب وغيرها من العلوم كلها من منشأ شـــرقي، ومنصهرة في البوتقة الإســـلامية. وعلى الرغم من وجود فئة مســـتغربة تتصور أن الغرب وحده هـــو مصدر كل شيء متعلق بالمدنية، وهي لا تقبل سوى هذه النظرة، فإن الغرب اضطر لكي يأخذ موضعه الحالي من المدنية إلى الانتظار ســـتة عصور بعد بعثة المسيح عليه السلام... انتظر والتقى بالإسلام. وسواء أسْتطاع الغرب تقييم هذا اللقاء كما ينبغي أم لم يستطع، فهذه مسألة أخرى، ولكنه تأثر به دون أي شك، واستفاد منه كثيرا، وخطط مستقبله على ضوئه.

على الرغم من عدم قيـــام الغرب بتبني الضوابط التي تشكل أسس الحضارة الإسلامية إلا أنه أخذ الشيء الكثير من الإســـلام واستفاد منه. ولعب ما أخذه عن الإســـلام، وما تداعى إليه منه، دورا كبيرا في تشكيل العقل والفكر الغربي الحديث. لذا نستطيع أن نقول مع الشاعر محمد عاكف:

الدنيا مدينة له فيما تملكه،

المجتمع والفرد مدين له،

البشرية بأسرها مدينة لذلك المعصوم،

يا رب!.. ثبتنا على هذه الكلمة يوم الحشر...

منذ عصور ونحن عاجزون عن الاحتفال بيوم وأسبوع وشهر ولادة هذا الرسول الكريم ﷺ الذي تدين له الإنسانية جمعاء، بما يتناسب مع قامته السامقة الرفيعة، بل لا يتم الاحتفال به بنسبة ما تتم من الاحتفالات لعظماء التاريخ الذين لا يستطيعون بلوغ كعبه ﷺ. فلو رتبت الاحتفالات بمولده أياما وسنوات وعصورا لما تم الإيفاء بحقه. ولو أنشدنـــا عشرات وآلاف القصائد والأناشيد كل ليلة لما أوفيناه حقه. ولكن انطلاقا من المثل الشعبي القائل: "السلطنة تليق بالسلطان، والتسول يليق بالمتسولين" نقول: "بدلا من

عدم عمل أي شيء، فمن الأفضل عمل ما يمكننا عمله في الأقل". لذا يجب ترتيب ندوات على غرار "ندوة الرسالة الخالدة"[١] على أن تعقد هذه الندوة كل سنة في بلد مختلف، وتخصيص فترة معينة من الزمن لها. وإذا كان من الممكن تخصيص العام القادم كـــ(عام محمد ﷺ) مع شعورنا بالخجل والحياء من بخلنا وعدم وفائنا المتجلي بتخصيص عام واحد فقط له.

---

(١) تعقد هذه الندوة سنويا في تركيا. (المترجم)

# الهجرة النبوية

الهجرة رحلة لغاية مقدسة ولهدف جليل وكبير... ومثل هذه الهجرة ترمي إلى تحقيق مثل هذا الهدف بمدٍّ وتقوية من العقيدة والعاطفة والفكر وتغذية وعون منه. وبمقدار درجة الإخلاص في هذه الهجرة وعمقها، تكون مساوية ومعادلة لسياحة الإنسان في السماء. وقد شُـــرِّف فخر الإنسانية بهاتين السياحتين، السماوية منها والأرضية. السياحة الأولى كانت خاصة به وغير متاحة لأحد غيره. أما الثانية فهي طريق واسعة باقية ومفتوحة للجميع حتى يوم القيامة في شروط خاصة ومعلومة... طريق واسعة ومضيئة مشى عليها مئات الآلاف من الناس قبل بعثة شمس سماء النبوة وقمرها. ولا شك أن أكثر هذه الهجرات المباركة فضلا، وأكثرها دويا في سمع الزمن، هي الهجرة التي قام بها فخر الإنسانية الصادق المصدوق ﷺ مع أصحابه الصديقين. لقد تحمل الرسول الكريم كل صعاب الهجرة -التي جاء الأمر بها من فوق سبع سماوات- من أجل العثور على معاونين مخلصين لأصحابه الكرام الأوفياء، وعلى موطئ قدم أمين وراسخ ليؤسس هناك دولته، ويقيم الجسور للناس ليوصلهم إلى رحاب دين عالمي، له أبعاد عديدة ومتداخلة وعميقة، ويملك قابلية إنشاء تاريخ جديد ومدنية جديدة.

الخطة والمشروع واسع سعة السماء، والمسافة بين المبدأ والنتيجة والهدف مسافة هائلة. ففي هذه الطريق الطويلة احتشدت الشياطين والعفاريت على طولها من أولها لآخرها، وفارت في كل جانب منها مشاعر السوء والشر، وأوقدت في كل منحنى منها نيران للفتن. أجل!.. فعلى الرغم من جميع هذه

الظروف السلبية كان هناك منبع قـوة كانت كافية لملء القلوب بالأمل والانشراح والاطمئنان، ففي كل قلب، وعلى كل لسان كانت هناك جملة واحدة تتكرر (حسبنا الله ونعم الوكيل). فكل منهم قـد توكل على الله واستند إليه وإلى توفيقه، وبدأ رحلته في هذا الدرب الطويل... بدأ رحلته في هذا الدرب دون أن ينظر إلى ورائه، ودون أن يهمل من يمشي وراءه.

في تلك الأيام كانت جميع الطرق تجرب مع كفار مكة وطغاتها، ويستعان بجميع الحلول الممكنة. ولكن رجال الدعوة هؤلاء الناذرين أنفسهم لوظيفة الدعوة إلى الله لم يجدوا أي تجاوب، ولم يكن هناك أي وجه للمقارنة بين ما صرف من عمل ومن جهد وبين ما تم التوصل إليه من نتائج. وهذه الحقيقة هي التي دفعت بصاحب الرسالة ﷺ المرتبط بكل كيانه بالدعوة إلى الله، إلى البحث عن أناس وعن أقوام آخرين خارج مكة لإيصال كلمة الله إليهم. وكانت رحلة الطائف أول تجربة في هذا المجال. وعلى الرغم من آلام هذه الرحلة ومضايقاتها فقد رجع إلى مكة مهموما، ولكن دون فقد آماله، ومع سلوة اهتداء شخص واحد. ثم أعقبتها بيعة العقبة السرية في جبل "منى" الشامخ، التي تم فيها البحث عن جيل النور، وعن الصدور المفتوحة للهداية. كان من الصعب حدس من سـيكون أصحاب هذه القلوب المؤمنة، ولكن تبين فيما بعد أنهم ستة من المحظوظين من أهل "يثرب". لقد أصبح هؤلاء الستة المحظوظون الوسيلة الأولى وواسطتها في يد النبوة لتغيير وجهة الإنسانية وقدرها السيء. وكل ما كان معروفا آنذاك حول المخلّص الأبدي للإنسانية هو ما كانوا يسمعونه أحياناً من اليهود:

"إن الله سـيبعث نبيا من بني إسرائيل هـو خاتم الأنبياء، وأن اليهود سيجتمعون تحت رايته وسيسودون جميع الأمم". صحيح أن هذه الأمنية لم تنفعهم كثيرا، ولكنها كانت كافية لإشعال فتيل حب الحقيقة في صدور أهل يثرب وتوجيههم الوجهة الصحيحة. كانت هذه المعلومات البسيطة في

ذلك الزمن بمثابة لبّ حقيقة كبيرة وجوهرها. وعندما آن الأوان المناسب فاز أهل يثرب بلقب "الأنصار"، هذا اللقب الجليل الذي سيبقى إلى يوم القيامة مفخرة لهم، وتاجا على رؤوسهم، وفازوا بنعمة الدنيا والآخرة.

أعقب هؤلاء المحظوظين الستة فيما بعد عشرة آخرون. وبعد سنة واحدة آمن سبعون منهم –بينهم عدد من النساء– وأقروا برسالته ثم دعوه إلى يثرب بعد اجتماعهم به ﷺ في مكان آمن. كانوا جادّين في دعوته إلى مدينتهم، لقد قبلوا كل ما جاء به، وعاهدوه على أن يمنعوه مما يمنعون به أنفسهم ونساءهم وأولادهم. لقد قبلوه وضموه إلى صدورهم، وعاهدوه أن يصونوه بأرواحهم ومُهجهم. ومقابل هذا كان الله تعالى يعدهم بالجنة. تمت البيعة التي رضي عنها رسول الله ﷺ ورضي عنها الأنصار، وفتحت "يثرب" أبوابها للمهاجرين على مصاريعها.

بدأت مكة تفرغ تدريجيا، فهناك كل يوم ثلاثة أو أربعة من أهلها يتركها ويهاجر إلى "يثرب" إما خفية أو علنـــا. وبدأت عملية الهجرة وما حفتها من تضحيات، وما قام به الأنصار من إيثار، ترسم لوحات مضيئة. وتحولت ظاهرة الهجرة إلى شيء سماوي يشبه عملية المعراج، فكأنها سياحة الملائكة في عوالم خلف المكان والزمان. وكانت القافلة الأخيرة لهذه الرحلة السماوية على الأرض من نصيب صاحب القافلة الأخيرة في موكب النبوة. وعلى قاعدة "الأجر على قدر المشقة" وكذلك على قاعدة "أشدّ الناس بلاء الأنبياء..." فقد حَفّت أكثر أنـــواع المكاره والأخطار بهجرته ﷺ، ولكنه تجاوز جميع أودية الموت المرعبة، ووصل إلى البلدة المنورة بفضل تفويض أمره إلى الله، وتوكله عليه، واستسلامه لـــه. وصل إلى المدينة دون أن يصيبه مكروه من قبل سُراقةَ، وما كان يعتمل في صدره من أفكار سوداء، ولا أي خطر من المخاطر التي كانت موجودة داخل وخارج غار ثور، ولا من أذى قطاع الطرق واللصوص الموجودين في الطريق. أصبح سراقة صديقا ومرشحا

لأن يكون صحابيا، وتعرف بُرَيْدةُ مع أصدقائه بالإسلام. أما فخر الكائنات ووردة الجزيرة العربية فقد كان يواصل طريقه إلى بلدته الجديدة وهو يحوِّل طريقه المحفوف بالمخاطر إلى بساتين وحدائق.

وبينما كان بعض أهل مكة ممن يقطر الدم من أفكارهم ومن مشاعرهم يكادون أن يجنوا من الحقد والكره إلى درجة السعار، كان رسول الله ﷺ يدخل "يثرب" في ظل الفرح الغامر لأهلها وهم ينشدون:

طلع البدر علينا من ثنية الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وفي الموضع الذي توجد فيه القبة الخضراء حاليا أقام الرسول ﷺ مسكنه المبارك، كما بنى مسجده بجوار بيته، فكان بيته ومسجده المباركان متداخلان ويتنفسان الجو العطر المبارك نفسه. ثم بدأ ينفث فيما حواليه الحياة بالوحي وبالرسالة الإلهية وبإلهام روحه... فَدَيْنا نبع الحياة هذا، ومن بلغه ونفثه ونشره بأرواحنا وأنفسنا.

كان آدم عليه السلام قد بدأ رحلة هجرته الطويلة من الجنة إلى الأرض، لكي يصل إلى الأفق الواسع للحياة الأخروية التي يشير إليها معنى وروح الهجرة. أما نوح عليه السلام فقد تحمل أعباء السياحة في البحار إضافة إلى سياحته في البر. وتجول إبراهيم عليه السلام في أقطار بابل والحجاز وأرض كنعان دون أن يفتر. وانتقل موسى عليه السلام من بيت والدته إلى قصر فرعون، ثم من مصر إلى الأيكة ذهابا وإيابا مرات عديدة. ومر السيد المسيح عليه السلام من جميع الجسور التي مر عليها الأنبياء السابقون. أما حواريو عصر النبوة فقد نظموا كوادر الإرشاد وقوافلها إلى جميع أرجاء العالم.

وإذا أتينا إلى حواريي عصرنا الحالي فقد انتشروا في الجهات الأربع للأرض وهم يستخدمون الوسائل العصرية ويبلغون فكرهم وهم يرددون الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ

وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(النساء:٤). وبفضل هجرتهم هذه سيصل صوت القرآن إلى العديد من الناس، وسينفتح أمام بعضهم سبل الإيمان، وأمام البعض الآخر سبل تأسيس الصداقة والتفاهم والحوار.

أجل!.. سيقوم هؤلاء الحواريون بنفث الصدى المنعكس من غار حراء على قلوبهم على من حولهم في كل مكان يحلّون فيه، ويرشدون القلوب المتخدرة باليأس إلى طرق تحريك هذه القلوب وإحيائها من جديد، وإيصال الهبات والنعم الإلهية إلى الجميع عن طريق العقل والمنطق. ورفع الموانع والعوائق الموجودة بين القرآن والقلوب منهين بذلك فراقا دام عدة عصور، ومحققين بذلك اللقاء الكبير. وهم على وعي بأن نشاطهم هذا إنما هو سباق في مجال الإيمان والعشق والشوق، وأنهم بقيامهم بتعليم الصغار الذين استولى اليأس والخوف والضعف على قلوبهم ينقذونهم من الجو الضيق والخانق لهذه الحياة الفانية، ويدلونهم على طرق الوجود الحقيقي والحر، وعلى آداب المحبة والتوقير.

# أفكارنا ومثلنا في ظلال القبة الخضراء

محمد رســـول الله ﷺ هو المعنى الأسمى للخلق، وخلاصة الوجود. فهو الأول حسب شجرة الخلق وهو الأخير بمعنى من المعاني. فكأن الوجود نُظم كأبيات شعر باسمه، وكأن وجوده وجسده كان الكلمة الأخيرة من هذا الشعر. كان تشريفه للدنيا رمزا لولادة الإنسانية من جديد. أما نبوته فكانت وسيلة لظهور المعاني والقيم الحقيقية للأشـــياء والحوادث، وهجرته طريق خلاص الإنسانية، ورسالته جسرا لسعادة الدنيا والآخرة. وصلت بفضله القلوب المؤمنة إلى مشاهدة الوجود كمعرض، والقيام بتقييمه على هذا الأساس، وعلى تفسيره بعد قراءته ككتاب، والعثور في إقليمه المضيء على الطرق المؤدية إلى الحق تعالى. والذين عثروا على الحقيقة بواسطته وبه، يتنفسون على الدوام معاني الأبدية والخلود. والذين وُهبوا المعرفة العميقة بسيرته حصلوا على عصارة كل العلوم ولبّها.

وعلى الرغم من مرور كل هذه السنين والأعوام فهو لا يزال يلتمع في أفق حياتنا كشهاب وكنجم جديـــد، بل كشمس لها القدرة على إضاءة الوجود كله، بل هو في الحقيقة منبع ضياء قوي يستطيع تتويج الشمس. حدود وأفق وظيفته منبع حكمة تهب شـــعور العبودية للقلوب، أما روحه المشبع بالحب فيربط جوانب الوجود بعضها ببعض.

كلما خطا الإنسان إلى جـــو يحيط بما يذكّر به أحس بأن دمه يجري بالحب. وما أن يخطو إلى جـــوه وإقليمه خطوة واحدة حتى يجد نفسه في منتصف الطرق الموصلة إلى الله. أما زيارة قريته فهي بمثابة مرسى وميناء

ونقطة انطلاق إلى عصر النور. والذين يؤمنون بنقطة الانطلاق هذه يصلون إلى شـــرف اللقاء به، وتمتلئ أرواحهم بالشـــوق إليـــه. ومهما كان عدد الزيارات التي يقوم بها الشخص لمرقده الأخضر الطاهر المتناسق الذي ينبعث منه الحب والجمال والرومانتيكية والشعر -وكأنـــه في مغتسل موسيقي- يشعر في كل زيارة بعمق وغنى وخصوصية ذلك الجو والعالم الذي يحيط به، ويستسلم قلبه لعالم الوصال، ويشعر بتغير في نبض الحيـــاة من حوله، ويجد نفسه في خضم متلاطم من عواطف متداخلة من الفرح والحزن.

أجل... في هذا المكان الذي تجلله المهابة، والذي يحيط به المعبد المبارك، والقبة الخضراء التي تبدو وكأنها تريد الانطلاق نحو سدرة المنتهى، يغرق الإنسان على الدوام في بحر من الأفكار حول أحوال العالم الإسلامي، وتحيط به مشاعر عميقة، وتملأ قلبه عواطف متأججة وملتهبة. أحياناً يحس الإنسان أن ضبابا يلف هذا المكان المبارك، وأن حزنـــا ينتشر في أرجاء هذا المعبد، وتبدو القبة الخضراء آنذاك وكأنها جواد أصيل وقف على قائمتيه الخلفيتين تتحدث مع أرواحنا، أو كأنها فتحت يد الضراعة نحو السماء خلف الثاوي المبارك قربها... تمد يد الضراعة نحو السماء وتتوسل، وتذكّرنا بأيام الهجران والحسرة. يحدث أحياناً كأن نـــورا يغمر كل مكان هناك، فيتحول المسجد إلى هالة مثل هـــالـــة القمر، وتبدو القبة وكأنها تقدم تحيـــات الفرح لأهل السماء. وأحياناً يبدو منظرها المتوجه إلى الســـماء في حالة ترقب وانتظار عميق ومؤثر إلى درجة أنـــك تتخيل هذه القبة الخضراء وكأنها ترجمان لآلامك وأحزانك، أو تتوهمها وكأنها تغني أشعار الغزل الفرحة. وفي غمرة صمتها العميق، وانفعالها الصامت تسمع ما لا يُسمع وتشعر ما لا يُشعر، وتحدس ما لا يُحدس، فتحس وكأنك تجاوزت أبعاد المكان الذي أنت موجود فيه، وأبحرت في بُعد وفي عمق آخر.

تبدو القبة الخضراء والمعبد المبارك الذي يحيط بها -مع الجبال والتلال

الصغيرة والكبيرة حواليها- في تناغم تامّ مع السهول الواسعة والصحراء الممتدة والواحات التي تهب فيها نسائم كأنها قادمة من الأبدية، حتى لتبدو وكأنها قد صُممت في السماء ثم رسمت على الأرض. أجل فالقبة الخضراء أعمق حتى من أعمق زرقة في السماء، وقطعة محفوفة بالأسرار. فكأن أسطر وصفحة كتاب الطبيعة التي تكون هذه البقعة المباركة قد اختيرت بدقة، ووضعت بعناية في محلها وفي موقعها، حتى كأنها نقطة التقاء السـماء مع الأرض، ونقطة التقاء العديد من الأشـياء المادية والمعنوية. أما القلوب المفتوحة لصاحب هذا المكان -جعلت أنفسنا فداء لـه- فما أن يلجوا ويتنسموا جوه حتى يحسبوا أنفسهم، وكأنهم بدأوا يخالطون أهل السماء. وما أن يُقبل الإنسان على المواجهة التي تعد البستان الخاص وحديقة العشاق حتى تثور عنده المشاعر، ويحس بأن قلبه على وشك التوقف، ويتصاعد الانفعال في قسمات الوجوه الطاهرة. والحقيقة أن عدد الذين توفوا هناك بالسكتة القلبية ليس قليلا.

كانت المواجهة على الدوام بالنسبة للعشاق مرفأ ونقطة انطلاق نحو الأعالي. وكل من وصل إلى هناك من أصحاب القلوب العاشقة يبدو وكأنه دخل إلى دهليز من زمان سحري، وفتح جناحيه إلى السماوات العالية أو أبحر في بحار واسعة... يدخل وكأنه يستمع إلى شعر حول جمال تلك البقعة المباركة وإلى براءتها التي هي فوق كل براءة، ويعبّ من هذا الجمال كأنه يعبّ من ماء الكوثر. ويشعر في كل لحظة تمضي بلون جديد من السعادة.

الزمان عند المواجهة مضيء وساحر ومفتوح للخيال إلى درجة أن كل صاحب فؤاد ذكي وصل إلى هناك يتخيل وكأنه يرى الوجه المشرق الطاهر للنبي ﷺ، ويحس بجزء من انفعالات صدره المتفتح للوحي، ويتخيل أنه يسمع صوت أبواب السماء وهي تنفتح، وأصوات رفرفة أجنحة جبريل عليه السلام، وأصوات تلاوة مهيبة للقرآن وهي تتردد، فيحس وكأنه قد تبلل من رأسه

إلى أخمص قدميه بمطر الرحمة من ذلك العهد السعيد، فلا يملك نفسه من التناغم مع هذا الجو، فتذرف عيونه دموعا ساخنة. وعندما يحس أن أحاسيس الروضة الطاهرة قد طوقته وأحاطت به بعمق، يتمنى أن يذوب وأن يسيل إلى تلك الروضة الطاهرة.

والحقيقة أن كل ما يراه الإنسان هناك ويحس به يتصف بأنه عميق، ويخاطب سريرة الإنسان وقلبه. المكان هناك وكل شيء لا بد أن يهمس للإنسان شيئا. وبجانب بكاء العاشقين وأنينهم ترى الأعمدة المحظوظة الصامتة هناك، والبسمة الحزينة المشاهدة في حال "المواجهة" التي يرسل من خلالها الضريح المبارك -المطاف القدسي للأرواح- البسمات إلى عيون خيالاتنا مثل صاحب بيت مضياف ووفي... هذه البسمات دافئة ومؤثرة إلى درجة أن صاحب كل فؤاد ذكي يحس تجاه هذه المعاملة الخاصة والسرية وكأنه وصل إلى الخلود.

والذين يحسون في قلوبهم، وينظرون إلى هذا الدرب الملائكي بهذه العين، ويفهمونه بهذا المعنى، يخيل إليهم أنه لا يوجد هناك أي شيء حي أو أي جماد، بل صمت تلفه ألوان المهابة، وكأن هناك انتظارا عاما ضمن جو انفعالات الزيارة. فما أن يخطو أي زائر الخطوة الأولى إلى ذلك المقام حتى يجد نفسه تحت تأثير ذلك الجو ويبدأ بالإنصات إليه. أما الروضة المطهرة فتبدو وكأنها تقدم أسلوبها وصمتها أنموذجا لهم، وتفتح في عالم عواطفهم خمسين نوعا من المنافذ لأحاسيس وعواطف بِكر لم يعرفوها، ولم يتذوقوها من قبل.

يلقى الإنسان في حضن الروضة المطهرة على الدوام سحرا يبرق أمام العيون ويلف القلوب، فيحس بنسائم عالم جديد في أحاسيسه وفي أفكاره، فيلج من أبواب خيالية في أعماق قلبه إلى عوالم غامضة تلفها الأسرار، فكأنه يسمع من منبر الأرض تلك الخطبة الخالدة -التي شكّل كلامُ الحق تعالى

بيانه– من فم سيد الفصحاء، وتفعم السعادة قلبه لكونه من أمته، فيهوي إلى الأرض ساجدا سجدة الشكر.

لا شك بأن مثل هذا الحدس والاستماع بأذن القلب، ومثل هذه الانفعالات والعواطف والأذواق تظهر وتأتي نتيجة تفاعل وتجمع وتراكم العقيدة مع قناعة وتوجه كامل ومع حدس عميق. فما أكثر ما تستطيع الروضة المطهرة والمسجد النبوي وموطن النبي ﷺ وموطن العاشقين من نفث للمعاني في روع هؤلاء الذين ملكوا مثل هذه العقيدة والقناعة والتوجه وهذا الحدس.

أجل فللروضة المطهرة بالنسبة لزوارها الذين أكملوا وأتموا تركيزهم القلبي والروحي موضع هام في عالم أحاسيسهم وانفعالاتهم، ولها موقع خاص متميز بكل تفصيل من تفاصيله... بِصَمْتها المهيب، ومنظرها الوقور وعمقها اللدني... كأنها تنشد شعر الوجود وتومئ إلى العالم الآخر... كأن كورس السماء ينشد هناك أعذب ألحان الموسيقى، ويضع في قلوب المتوجهين إليها جمرة العشق، فيعيش كل واحد منهم فترة لذة العشق والوصال، ثم تغيب مرة في ذلك الصمت العميق، وتتركك في وحدة حزينة وسط خيمة الوصال، وكأنها لم تفتح لك قبل قليل أستار الأسرار... تتركك وحدك وترجع إلى حالها البكر السابق... تتركك ولكنها لا تهمل الدعوة الثانية لقلبك.

# من فيض العيد

العيد هو يوم لقاء للمشاعر وللفكر الإسلامي الذي يفيض فيه من إنائه ويتماوج وينتشر فيحتضن كل جانب... كأن كل ماضينا مستقر ومستكنّ فيه... كأن ماضينا يتكلم أو يهذي في حلمه... ثم يستيقظ ويدبّ فيه النشاط. لقد تسربت كل خصائص ومميزات عالمنا -من الماضي وحتى الآن- إلى بوتقته وإلى جوه العام، إلى درجة أننا نشعر في أعماقنا كلما أدركنا أيامه المباركات وكأننا نعيش أيامنا المجيدة السابقة. وعندما نغمض أعيننا لنصيخ السمع للأعياد، تتراءى أمام خيالنا تلك الأيام التي كانت راياتنا تخفق عالية في السماء، فنشعر بطعم تلك الأيام وبلذاتها المجيدة، ونعيش مرة أخرى في صفحات ذلك التاريخ العملاق... بل نعيش -بالأصح- قِيَمنا وهويتنا والمعانيَ العائدة لنا. وهكذا نكون وكأننا نصيخ بسمعنا في هذه الأيام إلى مجموعة من الأنغام المتناسقة الإيقاع والمتآلفة من أحزان القلب ومن أفراحه.

أجل!.. نعيش في العيد من حين لآخر شعور غربة وهجران، وأحياناً يداهمنا شعور لذيذ من لهفتنا إلى الوصال. وتبدو لنا بعض الأعياد حاليا وكأنها برزخ بين الفرح والحزن. فبينما تحتضن أقوى المشاعر العلوية السامية أرواحنا وتثيرها، نرى الأحزان من جانب آخر وهي تُضخ إلى قلوبنا. أجل!.. فكل منا يعيش في هذه الأيام بمشاعر متداخلة من فرح غامر ومن حزن يكاد يبكينا. ففي اللحظة التي نشعر فيها بكدرٍ وحزنٍ فقْدِنا -في يوم من الأيام- جناتنا، تتراءى أمام أعيننا في اللحظة نفسها خيالاتُ الفردوس الذي نؤمن بأننا سنصل إليه في المستقبل فنكاد نغيب عن أنفسنا في لجة

الفرح والبهجة. أي بينما تذرف عيوننا دموعا كمطر الربيع، تبدو أمام أرواحنا مناظر سفوح الجنة. أجل!.. على الرغم من كل شيء فإن الحيوية الدافقة لخيالات أيام العيد المليئة بالحسرة تبدو وكأنها تهدي لنا هدية موسم ربيع جديد ناضر حتى ولو كنا في أيام الخريف أو في أواسط الشتاء. في هذه الأيام الزاخرة بالأنوار نشعر بأننا نحيا من جديد بحزن لطيف وبانشراح عميق وبأمل عريض واسع يلفنا ويثير مشاعرنا، وفي كل مكان نرتاده ونـــزوره نشعر وكأن الخضر عليه السلام كان هناك قبلنا وفرش سجادته على تلك الأرض، فندخل في عالم من البعث بعد الموت.

الأصوات الحبيبة في العيد... البسمات المرسومة على الشفاه المنبعثة من الأرواح... مظاهر الإخاء التي تراها في كل مكان... إلقاء السلام على كل شخص تصادفه واحتضانك لـــه... توســـيع دائرة الإخاء بحيث تشمل الجميع... الضيافة وكرمها في كل مكان، وكأنها ولائم أعراس... ومظاهر الاحتفال في كل ناحية... يجري كل هذا أمام أعيننا ليهمس في آذاننا باسم الإخاء العالمي أشياء وأشياء.

تهفو نفوسنا إلى الأعياد، وتعتبرها ضرورة ماسة، ونحاول أن نشعر بهذه الأيـــام المباركة بكل عمق وبكل هبـــاتها وهداياها وألطافها... وتتصاعد مشـــاعرنـــا وانفعالاتنا بالتكبيرات والتهليلات... ويتطهر عالمنا الداخلي بالاستغفار... ونلقي بفرح ونشوة جميع همومنا وأحزاننا جانبا... ونتنفس بالمدائح النبوية والأناشيد الدينية وبصورٍ وأنواع المناجاة التي تشكل بُعدا من أبعاد ثقافتنا. وما أكثر الألحان التي نستمع إليها دون كلمات أو أبيات في هذه الأيام الخصبة الغنية! أما الذين بقوا بمشاعرهم وأفكارهم على صلة بجذور هذه الأمة وبمعانيها وبقيمها، وكذلك الذين بقوا ببنية وطبيعة أسرهم وعوائلهم مرتبطين بعالمِ وبدنيا هذه الأمة يحسون طعما آخر ومعني آخر في هذا الشريط الزمني الزاخر بالألوان. وســـواء أكان المحتفلون بالعيد جالسين

على الفرش والوسائد في خيامهم، أم جالسين قرب مواقدهم أو مدافئهم المتواضعة، أو جالسين في ظلال أغصان أشجار حدائقهم وفي حضن بساط أخضر، أو في غرف رحبة وصالونات واسعة في قصورهم، يشربون الشاي والقهوة، ويتناولون أنواع الحلوى... في كل هـــذه الأجـــواء يفوح عطر الاحتفال بالعيد في كل مكان، وتنتشر فرحة العيـــد فوق جميع الرؤوس. الأصوات الدافئة والكلمات التي نسمعها في هذا الجو الحريري للعيد، تمس القلوب المملوءة بالإيمان، والمطمئنة به حتى تصل إلى أعماق تاريخنا المجيد مثيرة لدينا تداعيات كلٌّ منها بقيمة هذا العالم.

ينتهز الأطفال ســـاعات العيـــد ودقائقه المفتوحة على الجميع والمتميزة بالمسامحة ليشاركوا بعواطفهم الجياشة وبأصواتهم التي تشبه زقزقة العصافير وتغريد البلابل التي تنتقل من غصن لغصن فيلعبون ويمرحون في جو العيد حتى منتصف الليل حتى ينال منهم التعب بعد قيامهم بحركات لا تخطر على البال. وهكذا يجعلوننا نعيش عيدا داخل العيد.

الأعياد أكثر المناسبات العملية لتقوية العلاقات الإنسانية، وأفضل أرضية للأذواق القلبية، وأفضل جو لنشر المحبة والتعاون والامتزاج، وأفضل مسرح لسماع أدبيات الحوار والتساند. وفي ساعاته ودقائقه الزرقاء زرقة السماء نستمتع -بجانب جميع اللذائذ الجسدية المشروعة- ونأخذ نصيبنا من موائد الفكر والمشاعر ونستمع إلى تناغم أرواحنا. أما عندما نؤدي عباداتنا وطاعاتنا بإحساس وشعور... وعندما تحيطنا التكبيرات والتهليلات من كل صوب، ويأتي العيد بطعمه الفريد، ومذاقه الخاص، وجوه المتميز، وينسكب إلى أفئدتنا موجة إثر موجة، لتغرق أرواحنا بجو الآخرة... عند ذلك نشعر بأن القيود التي تربطنا مع هذه الدنيا الفانية ترتخي وتنحل قيدا إثر قيد، ونحسب أنفسنا وكأننا في عالم آخر جديـــد... نحسب هذا ونرى أن كل دقيقة مستثارة بالبهجة في العيد تنـــزل كغيث من رحمة الله على قلوبنا

الظامئة للعيد منذ سنوات، ليغسل جوانب أرواحنا التي يبست ويرطبها، ويصبح سورا يحافظ على زهور الأمل المتفتحة في أعماق صدورنا، وينفخ فيها الحياة.

نحن نرى على الدوام أن الأعياد بالنسبة لأصحاب القلوب المؤمنة تقوم بإشباع أذواقهم الأخروية، وأشواقهم القلبية، ووَلَعِهم الذي لا يعرف الفتور، وآمالهم في الحياة الأبدية الخالدة. ومن يدري عدد الأشواق التي نصل بها إليها. والحقيقة أن من الصعب للمؤمنين معرفة ما تحس به قلوبهم في الأعياد وما يشعرون بــه، ويشعرون بصعوبة التعبير عنه. لأن من الضروري لفهم الأحاسيس التي تسكبها الحياة -ضمن تجلياتها الأخرويــة- في الصدور الطاهرة، الشعور بهذه النسمات بدرجة شعور هذه الصدور والبلوغ مبلغها في هذا الأمر.

يتم تلمس أســلوب ســحري في تصرفات المؤمنين في الأعياد، وفي سلوكهم المتوازن المطبوع بطابع الوقار، وفي نظراتهم العميقة، وأحاديثهم التي تفوح بالإخلاص حتى كأنك تستمع إلى حوار سحري من حوارات الجنة. أجل!.. إن هؤلاء الذين يفهمون جــو الأحاسيس الخاصة بالأعياد، بعد القيام بإيفاء وظائفهم ومسؤولياتهم، يبدون نضجا وسعة أفق إلى درجة أن كل نظراتهم تحمل على الدوام عمقا ربانيا، ويحمل كل تصرف من تصرفاتهم وكل حركة من حركاتهم وسكناتهم جدية ســاحرة، ويحمل صمتهم شيئا وراء هذا العالم، وبسماتهم لطافة دافئة. كل واحد يأخذ -حسب درجته- نصيبه من سحر العيد، حيث يمكن سماع هذا من كل مؤمن وملاحظته في وجه كل واحد منهم. يمكن هذا لأن أغلبية هؤلاء الناس هم من الذيــن لم يتيسر لهم التعلم والقراءة ولم يتلقوا تثقيفا جديا. ولكن ترى عليهم آثارا غنية من مكتسبات التكايــا والزوايــا والمدارس الدينية الأهلية والمدارس الرسمية، ويملكون غنى روحيا على الدوام، ويتصرفون على ضوئه. ومعظم

هؤلاء على درجة كبيرة من الارتباط بالإسلام، ويتمتعون بدرجة كبيرة من الإخلاص، حتى كأنهم ليسوا أناسا عاديين، بل موازينَ دقيقة تزن كل قيم تاريخنا المجيد، ويمثلون حراسة حية للخزانة البلورية لهذه القيم المتجمعة فيها طوال عصور عديدة من التاريخ. ونحس في سلوكهم وتصرفاتهم بلذة ثمرات الجنة وبسكينة سفوح الفردوس وحلاوة مشاهدة الجمال الإلهي. نظراتهم جدية في كل شيء، وبنية تفكيرهم متينة في كل مسألة. وهذا يظهر كيف أن أعماق أرواحهم لا تزال محافظة على جذور عميقة من المعاني، مما يهمس في قلوبنا مجد الماضي وأمل المستقبل. لأن هؤلاء بتواضعهم وعزة أنفسهم وإخلاصهم وحالاتهم الروحية الممزوجة بالحزن والبهجة يقدمون أنموذجا غير موجود في الأمم الأخرى. في مظهرهم العام ترى -بجانب الألوان الخفية الناتجة عن الانتساب لأمة مجيدة ذات تاريخ عريق- صفات الأرواح التي نضجت بالقرآن من جدية ووقار. وقـــد لا ينتبه بعضنا لهذا، ولكن الأمر هكذا، لذا فالنغمات التي تنساب من نظراتهم وتنسكب إلى أرواحنا على الدوام تعكس أصداء واسعة في أعماقنا.

# المعاني الفياضة من المعبد

المعبد ترجمان سـري يخاطب روح الإنسـان وقلبه بلغة مبهمة وببيان سحري ويحاول إفشاء الحقائق العليا بكل لسان.

يشعر الإنسان في المعبد باليوم وبالأمس... بالأمس وبالأبد معا وبشكل متداخل... فكأنه يسبح في بحر واسع من فكر العبادة ومنبعها ومعناها. فإن أضيف إلى هذا اللسان البليغ للمعبد خطيب عالم ومفوه فلا يمكن تصوير مبلغ اللذة الروحية التي تصل إليها القلوب.

أجل!.. إن المعنى الذي همس به المعابد بوقار ورزانة، المترع بالإيماءات والإشـارات، عندما يتحد بصوت رخيم للدعوة الإلهية من مؤذن أودع حنجرته بإمرة قلبه... عندئـذ نحس بهذه المعاني وهي تنسكب كغيث على مشـاعرنـا... وتملأ قلوبنا... فكأنها في النضارة أزهار وورود تفتحت للربيع... ونحس حتى أعماقنا بفرحة الوجود.

كأننا صامتون أزاء الوجود خارج المعبد... وكأن قلوبنا مغلقة تجاه ما وراء الوجود... لذا نرى المعبد كأنه مؤذن يقوم بتحرير مشاعرنا المدفونة في أعماقنا، ويحررها من السجن المظلم لأجسادنا ويوصل صوتها إلى السماوات السبع كخطيب مجلجل الصوت. فنحس في حريمه عندما يغشى الصوتُ الصمتَ، وعندما يغشى الصمتُ الصوتَ وكأن أعناقنا قـد امتدت إلى السماء وإلى اللانهاية.

وبنسبة تفتح القلوب للنور يثير الصوت والذكر في المعبد مشـاعرنـا ليقودنا من لذة إلى لذة ومن فورة إلى فورة ومن الإيمان إلى العشق، ومن العشق إلى الفداء، ويكون لنا أجنحة وريشا لنعلو إلى السماء. أحياناً يهمس

المعبد بلسان يفهمه الروح ويثير فيـــه الشوق إلى اللقاء.. أحياناً يُسمِعُ أرواحَنا خرير أنهار الجنة، وأنغام بلابلها ويتجول بنا تحت أشجار الجنة... أحياناً يفتح لنا ممرات للوصول إلى الجمال الأزلي، ويؤسس لنا جسورا بين الدنيا والآخرة ويربط بين هذين العالمين، ويفتح أمامنا منافذ من هنا إلى هناك، ويثير فينا خيالات مبهمة.

إن ما يظهر في المعبد عند أداء العبادات والطاعات والذكر والأوراد من تكرار ظاهري في حقيقة الأمر يشبه المقاطع المكررة في الشعر والنشيد يحمل المعنى الرئيسي والمشاعر الأساسية في ذلك الشعر والنشيد. وفي كل تكرار يرى الإنسان في مرآة ما يعلمه ما لم يكن يعلمه، ويعيش ما يدركه بعقله مع ما يحسه في وجدانه في بوتقة واحدة وبشكل متداخل ومتشابك، فيحس في هذا التماثل والعينية شيئا آخر ونضارة أخرى.

أحياناً يرتفع صــوت جديــد من المنبر أو من المحراب أو من إحدى المقصورات الخلفية يتناغم مع ذلك الترتيل المتكرر المنساب بهدوء ونعومة من المعبد، فنحس بأن فيضاً من الضيــاء والنــور قد نثر فوق طرقنا وأنفاقنا وممراتنا، ونتوجه إلى بُعد آخر بإيقاع آخر وكأننا تلقينا أمراً جديداً بالتحرك والمشي.

أحياناً تشترك وتهتف بأرواح منفعلة مع الأصوات المنسابة من المآذن والمحاريب. آنذاك يبدو المعبد وكأنه يريد ضخ كل معاني السماء وروحها وعصارتها في القلوب كبلبل يغرد حتى يكاد ينشق، أو كحشرة زيز الحصاد تكاد تتمزق وتنقلب تماماً إلى أصوات رمزية، ولكنها لا تتمزق، بل تطفر إلى مستوى آخر من الصوت ومن النداء وتستمر دون توقف.

ونحن نحس أن هذه الأصوات المرتفعة من المعبد هي معاني الوجــود وغايته وأساسه، نشعر بها وهي تفيض من قلوبنا كصرخات مدوية، فنحس وكأن قبة قلوبنا قد خُرقت أو ثقبت فنكاد نغيب عن أنفسنا، وكأن النسائم

الإلهية قد أحاطت بعالمنا الداخلي، فنشعر وكأننا وصلنا إلى الشوق الأزلي للسماء مثل حزمة ضوء أو نفحة نسيم.

كل صوت يرن في آذاننا، وكل معنى يبدو أمام أعيننا ينشئ قبباً فخمة وعظيمة فوق رؤوسنا، فنجد انفسنا على عتبات أبواب مهيبة منفتحة على عالم لانهائي. في هذه الأثناء يحس كل منا وكأنه قد انسلخ من مكانه، وارتفع وفتح جناحيه فوق الجميع وفوق كل شيء، وألقى بظله فوق جماعة المعبد.

أحياناً تتوسع الحلقة التي نكون فيها يميناً ويساراً، وأماماً وخلفاً، وتنتشر وتمتد بحيث تضيق الأبعاد والمسافات حتى تكاد تتمزق، حتى ليخيل إلينا وكأننا في طواف باللذة الحقيقية للحياة، فندرك أننا حول مطاف مجهول مع جماعة لا تُعدّ ولا تحصى من الملائكة والروحانيين والجن، فنحس بلذة الوصول إلى الغاية الحقيقية من وراء الخلق، فنشعر أننا بلغنا من اللذة غايتها التي لا غاية وراءها... ونعيش هذه المشاعر.

في كل مرة من هذه المرات التي ننغمر فيها في هذه الأحاسيس التي يبعثها صوت مختلف، وكلمة مختلفة، وتأثير أداء آخر، ولهجة أخرى، يبدو لنا وكأننا نكتشف كائنات جديدة، ونشاهد صور جمال عوالم أخرى مجهولة من المنافذ المنفتحة على أعين قلوبنا، فنركض من السهول إلى السفوح، ومن القمم إلى الوديان، ونحس بحاجة إلى إطلاق صرخات الفرح والبهجة ببراءة الأطفال. وأحياناً ننطلق –بأمر مختلف من الرائد– إلى أقاليم أخرى ومشاهد جديدة، فنطوي التلال والجبال، ونسرح في السهول والوديان، ونعانق الربيع، ونشم عبق عطور الصيف، ونحيّي الخريف، ونفتح أشرعتنا لربيع جديد.

يبدأ تكرر هذا المنوال على الدوام في إقليم آخر، ويتوسع في إقليم آخر مختلف، وينتهي ويختتم في إقليم آخر. أحياناً نبتعد عن أماكننا إلى درجة لا

نشعر فيها بأننا كنا معاً، ونطير -كما في الأحلام وفي الخيال- إلى مكان نريده، ونصل إلى كل ما نود الوصول إليه بكل يسر. وننطلق إلى السماء وكأننا نتنـــزه في حديقة من حدائقنا أو في بستان من بساتيننا، ونصل إلى أكثر الأماكن حرمة وسرية. ولكن ما أن نصل حتى ترف أعيننا -التي تقطع علاقتها تماماً مع أي نـــوع من أنواع الظلام- من الفرحة والحبور وكأن الوصال سيتحقق بعد خطوة واحدة فقط.

في مثل هذا الجو تهمس الأحاسيس والتصرفات، بـــل حتى الكلمات والاحاديث، وأصوات هذه الكلمات والأحاديث ونبراتها والألوان وتماوجاتها أموراً أخرى ومعاني أخرى لم نعهدها من قبل ولم نعرفها. هنا عندما نرتفع من الشيء المعهود إلى غير المعهود، ومن الأشـــياء الاعتيادية إلى الأشياء الخارقة، تصل إلينا أصوات مشاعرنا التي تتألق بصور الجمال الحي من حولنا وكأنها تقول: "هو... هو". فيزداد اضطرام نار العشق والوجد عندنا ويزداد توهجاً. وعندما تمتلئ قلوبنا بنار عشق الحبيب تعالى تنقطع كل الأصوات، ولا يبقى هناك سوى ظلال الأنوار المنعكسة من الوجود المطلق.

إن المعبد الذي نفخ الحياة في هذه الدنيا المباركة قد نكس رأسه، ينتظر من يفهم معانيه ويشرح خطوط روحه ومعارجها، وينتظر أساتذة الكلمة واللحن من أصحاب القلوب وابطالها لكي يصل إلى الأبعاد التي أنشئ لبلوغها.

لا أدري من سيقوم بتعمير المعبد الذي قطع حبل ظهره، ليرجعه إلى هويته السابقة، ومن سيفتح أمامه الآفاق لكي يهدر بصوته؟ ومن سيقوم باصلاح خلل أصوات الخرخشة الصادرة الآن منه ليِؤلف لحناً يســـحر الأرواح والقلوب؟ من سيعيد إلينا من جديد المعبد الذي فقدناه؟

لا أدري إن كان هذا باستطاعة المسؤولين أم لا... ولا أدري إن كان منشدو المعبد يستطيعون من خلف عصور عدة مصاحبته بأصواتهم وأنفاسهم

أم لا... هذه مسألة أخرى غير مسألة غربة المعبد المستمرة منذ عصور.

نحن الآن نعيش منذ سنوات في أجواء حلم نرى بشارات تحققه... حلم جيلنا... جيل الفاتح الذي سيقوم بحل هذه العقدة المستعصية بضربة سيف واحدة.

# الرحلة المباركة

للهجرة منذ أن وجد الإنسان -الذي لم يعرف الهدوء والسكون والدعة منذ خلقه- مفهوم بالمعنى العام، ولزمرة الصفوة من بين الخلق، وللمرشدين الدالين على طريق النور مفهوم بالمعنى الخاص. ولها علاقة مهمة -في الوقت نفسه- بتاريخ المدنية.

أجل!.. فمن جانب نرى هذا الإنسان الذي يعاني الغربة في الطريق الطويل لدرب عمره الطويل منذ أن وُلد من بطن أمه، ثم انتقل من الطفولة إلى الشباب والنضج، ومن الشباب إلى الكهولة فالهرم فالموت؛ ومن جانب آخر نرى المرشدين العمالقة الذين ينيرون العصور بالمشاعل التي يحملونها في أيديهم... الذين يتركون بصماتهم في العهود المختلفة لتاريخ الإنسانية... والذين يرتفعون بالساعين وراءهم إلى ذرى المدنية... والذين يضيئون أرواح محبيهم بشرارات صدورهم، ويهيئونهم في إقليم الإيمان والأمل إلى الخلود... الذين يقومون بأفكارهم النيرة بعكس أنوار الجنة وألوانها وظلالها وتماوجها، ويزيلون كل الثقوب السوداء، ويؤسسون رياض الأمل وبساتينه حتى في أشد أدوار اليأس والقنوط... هؤلاء المرشدون مسافرون أيضا ومهاجرون طوال أعمارهم... هجرة لا تعرف لها نهاية أو راحة في سبيل أفكارهم ودعوتهم وعقيدتهم.

وعادة ما يتم ذكر ثلاثية الإيمان والهجرة والجهاد كأركان مختلفة لحقيقة واحدة في الذكر الحكيم. وهذا من أسطع الأدلة على ما لهذه المسألة من

أهمية، أي أهمية الإيمان ثم الهجرة والجهاد في سبيله، والاستمرار في الجهاد والنضال في البيئة الجديدة وأمام أناس جدد حسب الشروط المستجدة دون أي فتور أو توقف. هذا هو ينبوع الخضر عليه السلام ذو العيون الثلاثة التي يرده هؤلاء الربانيون، ويشربون منه صباح مساء. فالذين يشربون من هذا الينبوع سيمتلئون إيمانا ويقذفون بشرارات إضاءة لكل ركن مظلم. وعندما تكثر الطرق وعورة، وتكفهر الأجواء، وتسود الجاهلية، لا يفكرون في مال ولا ولد، ولا بيت أو عيال، بل يخرجون مهاجرين إلى بلد آخر، ومدينة أخرى.

ومهما كان المبدأ والدعوة سـامية والفكر مفيدا وصحيحا وأصيلا، ومهما كانت الرسالة سنية ومنيرة فلا مفر من قيام السامعين الجدد لها بإبداء مقاومة لها وممانعة ومعارضة، ووضع مصاعب وعراقيل أمامها. وهذا أمر طبيعي بنسبة معينة ومتوقع. لذا فإن كل من أتى بإيمان ومبدأ جديد لمجتمعه، وبمُثُل جديدة وعشق وأمل جديد إما أن يستمر في كفاحه في مجتمعه بشكل ظاهر أو خفي، أو يقوم باكتشاف بلاد أخرى يسقي فيها القلوب الظامئة لدعوته التي يرى أنه مكلف بنشرها وتبليغها لكونه رجل دعوة ورجل قلب وعشق.

ففي الشق والاحتمال الأول على كل فرد وهب قلبه لفكرته ومبدئه أن يكون حذرا غاية الحذر، وأن يأخذ كل التدابير الضرورية تجاه جميع العوامل السلبية الموجودة لكي يتجاوزها منذ البداية. وإلا لا يستحيل فقط تحقيق ما يأمله من تنوير وإرشاد، بل قد يؤدي خطأ صغير أو هفوة إلى تفاقم الظروف الصعبة، وزيادة ثقلها وضغطها، وتلبد الغيوم السوداء في السماء إلى درجة يصعب فيها العيش. ولكن من الصعب، بل قد يكون من المستحيل على جميع أفراد جماعة كبيرة تحقيق مثل هذا الأمر في كل وقت، وتطبيق هذا الحذر وهذه اليقظة. في مثل هذه الظروف يكون من الضروري البحث عن مكان آخر لاستمرار الدعوة والإرشاد. ولا سبيل آخر هناك.

من المعتاد منذ القديم أن يجد كل فكر جديد الاستنكار والاستهانة والإهانة في موطنه. ولكن كثيرا ما لقى هذا الفكر الجديد ولقي ممثل هذا الفكر الترحيب والتأييد في موطن آخر لم يعرف طفولة وشباب صاحب هذا الفكر ودعوته.

لذا كان هذا الأمر قدرا مشتركا لجميع الربانيين والمرشدين والدعاة... الإيمان والعشق أولا... ثم النضال والجهاد ضد جميع انحرافات المجتمع وأخطائه... ثم إذا اقتضى الأمر ترك الوطن والديار والبيت والتضحية بكل شيء، في سبيل السعادة الإنسانية والبحث عن قلوب مستعدة أخرى، وشد الرحال من جديد في هذه السبيل.

كل بعث جديد ونهضة جديدة وحركة إحياء جديدة تحتوي على هذين الأساسين، وعلى هاتين المرحلتين. المرحلة الأولى هي مرحلة اكتساب الفرد شخصية جديدة... شخصية ملتهبة بالإيمان، متعلقة به بوجد وبعشق، قد تجاوزت نفسها وتخطتها لتدخل في عبودية خالصة لله تعالى. والجهاد في هذه المرحلة متوجه بكل أبعاده للخلاص من دسائس النفس، والتغلب على أنانيتها وهواها، ولتجديد بنائها وإنشائها. لذا كان هذا الجهاد هو "الجهاد الأكبر". أما المرحلة الثانية فهي مرحلة إفاضة هذا الإيمان الذي أصبح جذوة متقدة في كل قلب... إفاضته كسيل من النور على من حواليه بمختلف موجات النور والإشعاع. وكثيرا ما تترافق الهجرة مع تحقق هذه المرحلة.

والحقيقة أنه يمكن الحديث عن هجرة قلبية وروحية في الأدوار المتعددة لهذه المرحلة. هجرة تحدث عند تحول الإنسان من وضعه السابق إلى الوضع المطلوب، ومن وضعه الهامد المتسم باللامبالاة إلى الحركة والنشاط والنظام، ومن وضعه الجامد المتفسخ إلى تجديد النفس وإصلاحها، والارتفاع من مستنقع الآثام الخانقة إلى حياة القلب والروح... هناك معنى ما للهجرة في جميع هذه الأدوار، والشخص يعد مهاجرا في أثنائها على الدوام. ونحن نرى

أن أداء الهجرة في المرحلة الثانية مرتبط بمدى أداء هذه الهجرات في المرحلة الأولى بشكل تام. فمن ينجح في الهجرة من نفسه لقلبه، ومن جسمه لروحه، ومن المظاهر الخارجية الزائفة للغنى العميق، ومن ذاته إلى ذاته ينجح في الهجرة الأخرى في معظم الأحيان. ومن لم يستطع هضم هذا تماما، لا يستطيع أداء الهجرة الأخرى، ولا تمثيلها كما يجب.

أول من بدأ الهجرة بهذا المعنى الأنبياء العظام الذين يعدون أقمار الإنسانية وشموسها مثل إبراهيم ولوط وموسى وعيسى عليهم السلام. ثم سلك هذا الطريق المضيء فخر الإنسانية وإمامها وسيد الزمان والمكان محمد ﷺ وأبقى باب الهجرة مفتوحا حتى يوم القيامة للآتين من ورائه.

إن الهجرة في سبيل الحق تعالى مقدسة إلى درجة أن صفة الهجرة كانت لدى جماعة المهاجرين الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل العقيدة التي آمنوا بها وفي سبيل إمامها ومرشدها أحب صفة عندهم، ومن بين جميع الصفات الأخرى خوطبوا بهذه الصفة، صفة "المهاجرين"، فما أعظم هذا المعنى! وعندما بُحث آنذاك عن مبدأ لتاريخ ذلك العهد من بين المناسبات والتواريخ الأخرى، كيوم ميلاد الرسول ﷺ، أو تاريخ بدء الوحي، أو قيام الأنصار بنصرة هذا الدين أو معركة بدر أو فتح مكة، وكلها مناسبات عظيمة، وتعدّ كل منها جوهرة على هامة الزمن، كان اختيار الهجرة أمراً له معناه الكبير الذي يجب الوقوف عنده.

هـــذا وإن كل فرد هاجر من أجل مبدأ ســـامٍ يشعر في كل لحظة من لحظات حياته بهاجس سبب هجرته، ويحس بحجم مسؤولية هذه الهجرة، فينظم حياته كلها على ضوئها. كما أن تخلصه من الأنظار المتتبعة لعورات طفولته وشبابه في مسقط رأسه سيزيد من راحته ومن حركته دون أي قيود أو أي عائق، ولا يتيسر له هذا إلا بالهجرة. لأنه ما من أحد إلا ولـــه هنات في صغره وفي شبابه يمكن أن تستغل من قبل أعدائه. بينما يكتسب بالهجرة

محيطا جديدا يكون فيه موضع التقدير والاحترام لأفكاره النيرة وتضحياته الكبيرة. وسواء أكان هذا العامل، أو عوامل أخرى فإن الأقوام التي غيرت مجرى التاريخ وأغلقت عهدا وفتحت عهدا آخر كانوا من الأقوام المهاجرة.

يقول علماء الاجتماع بأن معظم المدنيات أسست من قبل الأفراد والجماعات المهاجرة. وبحث المؤرخ المعروف "ارنولد توينبي" وكتب عن سبع وعشرين مدنية وضعتها وأسستها الأقوام المهاجرة. وهذا إشارة إلى أن الأقوام المهاجرة هي التي أسست حكمها وسيطرتها في التاريخ الإنساني طوال جميع العصور. لأنه لم يكن بمقدور أحد التصدي لأقوام يملكون مثل هذه الروح الديناميكية، ولم يتركوا أنفسهم للحياة الناعمة المترفة... هؤلاء الأقوام المتهيئون على الدوام لهجر كل شيء... والمتعودون على مقارعة الخطوب التي تظهر في أثناء نضالهم... الذين يعيش كل فرد منهم كجندي ينتظر أمر السفر والرحيل في كل حين... لم يكن بمقدور أحد التصدي لهم.

هاكم إذن أول الربانيين والمرشدين والدعاة، وأول معلمي المدنية من الصحابة. وهاكم الذين أسسوا إمبراطورية من بضعة قبائل! هؤلاء الناس الذين نزلوا كالصواعق فوق ظلام العصور، رأوا الراحة في مقارعة الصعاب، واستهانوا بالموت وبما وراءه لكي يبقوا في حيوية دافقة، ولكي يخلدوا فقد جددوا أنفسهم في ظل مختلف الشروط والظروف، وظلوا شامخين وأقوياء على مر العصور، لذا أصبحوا قوة لا يمكن التغلب عليها.

يا ليتنا استطعنا تخليص أجيالنا الحالية من اعتياد الحياة السهلة الناعمة، ومن هوى النفس، ليزيّنوا أرواحهم بمشاعر علوية وسامية، ليتحولوا إلى ربانيين يتحملون الصعاب والشدائد ويستمرؤنها. عندئذ نستطيع كأمة التخلص من تأثير الحسابات الصغيرة، والأذواق الخسيسة، فلا نغير اتجاهنا بسبب ضوائق أو مشاكل غير مهمة.

# الإثم

الإثم انهيار داخلي... ونــوع من مخالفة الفطرة السليمة ومناقضتها... والذي يقع في الإثم شخص مسكين نكد الحظ اســتسلم للشيطان بكل قابلياته وبكل ملكاته الروحية، وترك نفسه لعذاب الضمير ولوخزات القلب. فإن استمر في اقتراف الإثم نفسه، فهذا يعني أنه ترك حبل نفسه على غاربها، و لم تعد لديه أي إرادة، ولا أي مقاومة، ولا أي قدرة لتجديد نفسه.

الإثم ليس إلا صفعة على وجه الإرادة، وزقوم أُشرِبه الروح. وما أحط الإنسان الذي يتلذذ بالإثم! وما أكثر تســيب الإنسان الــذي دمّر بالإثم روحه!..

الإثم عاصفة هوجاء تطفئ جميع الاستعدادات والمشاعر السامية المهداة للإنسان، ودخان سامّ يحيط بحياته القلبية من جميع جوانبها. فمن تعرض لهذه العاصفة جف وذبل، ومن تعرض لهذا الدخان اختنق ومات.

ما أن يدخل الإنسان في دائرة الإثم حتى تنقلب لديه المقاييس والموازين. فكما يكون مصير الطائرة التي لا تحسب حسابا للجاذبية الأرضية وللقوانين الفطرية هو السقوط والارتطام بالأرض، كذلك الأمر بالنســبة لمن يلج بيئة عفنة منعتها يد الحكمة.

وعندما قام آدم عليه السلام بفتح مثل هذه الثغرة في حيــاتــه الشخصية، لم يستطع تجاوزها إلا بســيول من الدموع التي لو جمعتها لكانت بحرا. أما الشيطان فلم يستطع الخلاص من بئر الإثم التي وقع فيها رأسا على عقب، فكان الهلاك مصيره.

كم من شاب أهيف كغصن البان،

وكم من أميرة وردية الخدّ،

وكم من سلطان عظيم،

وكم من صاحب تاج كبير...

كم من هؤلاء فتح بخطوة واحدة أشرعته لبحار الإثم ولكنهم لم يستطيعوا الرجوع أو العودة من سفرهم هذا أبدا. فالإثم يسري في الإنسان رويدا رويدا... ويداعب هواه كنسيم ويلاعبه، يتربع هناك على عرش قلبه. ثم يتحكم بمشاعر الإنسان تحكما لا يستطيع الخلاص من قبضته إلا صاحب إرادة قوية، وبعناية من السماء. والأسوأ من هذا أن المرء عندما يمخر عباب الإثم يبتعد عن نفسه وينأى عنها إلى درجة أنه لا يشعر ولا يدرك مدى التغير الذي أصابه، ولا يسمع، ولا يلتفت إلى صراخ روحه، أي أن عالم الحس وعالم القلب عنده أصبح هامدا متبلدا لا ينبض بأي حركة.

الآثام متكومة على الطريق الذي يسلكه الإنسان، وهي تترقبه وتترصده مثل حية رقطاء. ومع أنه من الممكن التخلص من إحداها، ولكن من الصعب عليه التخلص منها جميعا وعدم التورط فيها وهو يواصل سيره في طريقه، فهذا يحتاج إلى إرادة من فولاذ. وإلا كان هذا شبيها بسيارة قد تعطل فيها مقسم السرعات، وتريد منها أن تجتاز بك الطرق الملتوية الوعرة للجبال الشم. فمصير مثل هذه السيارة أنها تستقر في حفرة من الحفر أو في قاع واد من الوديان.

الآثام أنواع مختلفة، في مقدمتها -كما أخبرنا بها الصادق المصدوق- هذه السلسلة من الآثام التي تقشعر منها الأبدان: أن تشرك بالله، أو أن تقتل نفسا بغير حق، أو أن تعق والديك، أو أن تدلي بشهادة زور، أو أن تفر من الزحف، أو أن ترمي المحصنات من النساء... الخ.

تعد هذه الآثام انحرافات كبيرة في عالم الفكر وفي العالم الداخلي للإنسان وفي العائلة والمجتمع. فإن لم تتخذ التدابير للحيلولة دونها في أوانها المناسب انهارت العائلة والمجتمع.

أجل! إن على الأسرة والمجتمع والوطن أن يحذر جدا من أصحاب الأرواح الفجة التي لم تتهذب بالتوحيد. فأصحاب هذه الأرواح المنكودة التي اسودّت بالدخان، وصدأت حتى فقدت شفافيتها، وحل السواد محل البياض الناصع في العالم الداخلي لهم لا يتورعون -إن لم يكن اليوم فغداً- من حرق الوطن وكل شيء. ولا يمكن أبدا التهوين من مقدار الخيانات التي اقترفها هؤلاء الذين ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم ووضع عليها غشاوة فيما مضى من الزمن وفي هذا الزمن.

ولكن يجب التنويه بأننا -في المطاف الأخير- نحن المسئولون عن الذين باعوا الوطن لهذا أو لذاك، وحولوا الغابات والبساتين إلى صحارى جرداء، ونحن المسؤولون عن هؤلاء الجهال عديمي الإيمان والضمير من الدمى بأيدي الآخرين الذين اقترفوا كل هذه الإساءات.

أجل! نحن الذين أهملنا ونحن الذين أفسدنا... نحن الذين جعلنا عديمي الإيمان هؤلاء لا يبالون بأي شيء... ونحن الذين سندفع الحساب... سندفع الحساب اليوم ونحن في القبضة الحديدية للحوادث والبلايا... وسندفع غدا أمام التاريخ... ثم سندفعه يوم المحكمة الكبرى... يوم لا يعزب عن ربك مثقال حبة من خردل.

إن إبعاد أمة كاملة عن ذاتها وعن هويتها، وزرع أدمغتها بأفكار غريبة عنها، وهدم محرابها، وتحويل منبرها، ليست من الآثام التي يمكن أن يغفرها التاريخ ولا المحكمة الإلهية يوم الحساب.

إنه إثم كبير أن تُحرَم الأجيال من العقيدة، ومن الفكر ومن موازين ومقاييس الحق ومن الاستقامة، وتحويلها إلى تجمعات فوضوية وجعلها وسيلة

هجوم واعتداء. لأن الهجوم والاعتداء على الأمة وعلى أجيالها وعلى دينها وعلى ثرواتها إثم كبير. ثم إن القيام بمعاقبة هذه الأرواح المتمردة لا يقلّ عن السابق إثمها.

إن من الإثم إهمال الأجيال... إثم أنْ تُحوَّل قلوبها وأرواحها إلى قلوب وأرواح خالية من الإيمان ومن الطمأنينة... إثم جعلها عدوة لماضيها وخصما له، وعدوة لتاريخها ولجذورها... إثم أن تحول –بأشـــربة أجنبية– عن ذاتها وعن هويتها... إثم أن تُحرم من نقاط استنادها المعنوية والمقدسة... أجل إنه إثم... وأيّ إثم!

ولكن هناك إثم أكبر من كل ما سبق... وهو عدم عدّ ما فعله وما يفعله هؤلاء المجرمون العتاة الذين قلبوا الساحة إلى ساحة حريق ودمار وفيضان... عدم عدّ ما يقترفونه إثما. أجل!.. إن كان هناك إثم لا يغفره الله تعالى ولا ينساه التاريخ فهو هذا الإثم... أيْ إن عدم عدّ الإثم إثما يشكل إثما بذاته، كما أن عدم التوقي والخشية منه أو الحذر من الاقتراب منه يعتبر رأس الآثام.

وحتى حدس ومعرفة هذا الإثم المسؤول عن كل هذه الآثام العديدة التي نخرت مجتمعنا من الداخل خفية وبخبث، ثم تسليمه إلى القبضة الحديدية للمحاسبة وللمساءلة للحكم عليه، فمن الصعب توقع تجديد الأمة نفسها بنفسها، بل حتى بقاؤها حية. وصدق الشاعر محمد عاكف حين قال:

لا يعيش المجتمع من دون مشاعر،
دُلّني على أمة تعيش ميتة المشاعر...

ثم إن القيام بالمبالغة في معاقبة هؤلاء –بعد كل سوء التوجيه هذا– لا يقل إثما عن السابق.

# التوبة

التوبة هي تجديد المرء لنفسه، ونوع من التعمير والإصلاح الداخلي، أي إعادة للتوازن القلبي الذي اختل نتيجة الأفكار والتصرفات المنحرفة، أو بالأصح هي فرار من الحق تعالى إلى الحق تعالى، أو هي انتقال من غضبه إلى لطفه، ولجوء من حسابه ومؤاخذته إلى رحمته وعنايته.

ويمكن تعريف التوبة أيضا بأنها محاسبة للذات تحت وطأة شعور الإثم. أي قيام الذات والإرادة بالوقوف كالجبل الأشم تجاه النفس التي تريد أن تحيا حياة غير مسؤولة، وتجاه الإثم وعدم إفساح المجال له.

فإن كان الإثم تدحرج غير متوازن في حفرة، فالتوبة -حسب مقتضياتها- قفزة آنية للخروج منها. وبتعبير آخر إن كان الإثم جرحا في الروح ناتجا عن سهو مؤقت للضمير عن المراقبة، فالتوبة هي وقوع القلب في عذاب دائم، وبدء بمراقبة جدية وبسيطرة حازمة على النفس، مما تكسب المشاعر الإنسانية قوة وعزما جديدين.

ولما كان الإثم ناتجا عن تحكم الشيطان وبتأثير من النفس، فالتوبة هي دفاع المشاعر ضد الشيطان، وجهدها في علاج عدم التوازن الذي حدث في الروح.

تقوم التوبة -بعكس الإثم الذي يؤدي إلى تآكل الروح وتعريتها- بتزيين جوانب القلب وفرش الزهور فيها بـ"الكلمة الطيبة" -التي هي أجمل الكلمات والأفكار وأعذبها- والوقوف أمام جميع التخريبات والتآكلات والحيلولة دونها. فكم تكون محاولة التوبة التي تحرك القلوب مبجلة قبل أن

يأتي اليوم الذي تشخص فيه الأبصار وتبلغ فيه القلوب الحناجر. فكم نتمنى الوصول إلى المستوى الذي نستطيع فيه بدموعنا المسكوبة تعمير وسد كل ثغرة يفتحها الإثم في قلوبنا.

أجل!.. التوبة عنوان للرجوع الرجولي، وبخلافه تكون كل كلمة باطلة، وكل تصرف خداعا. لأنه إن لم يتم تلافي ما فات، ولم تسد ثغرات الإثم التي أحدثت ندوباً في بعض مساحات الزمن، فادعاء الندم على الذنوب التي ارتُكبت دون أي دمع في العين ودون أي رجفة في المشاعر، ودون أي ألم في الروح ادعاء فارغ وبعيد عن القبول.

الآثام أنواع مختلفة وتختلف التوبة باختلاف الآثام. الإخلال بوحدة الأمة ذنب كبير. لذا يعد مرتكب هذا الإثم أكبر مجرم لدى الخالق ولدى الخلق. لذا ما كانت التوبة من مثل هذا الإثم تُقبل إلا بعد إرجاع الحياة الاجتماعية التي أصبح عاليها سافلها إلى سابق عهدها وإلى سابق صحتها ووحدها. وإلا فإن ادعاء هؤلاء -في الوقت الذي يعاني المجتمع من هذا المأزق المخيف ومن هذا الخطر الداهم- بأنهم نادمون ليس سوى انخداع وخداع. أجل إن التوبة من مثل هذا الإثم لا يكون إلا بإشعار المجتمع كله، وبكل وضوح وبكل وسيلة، الرجوع عن هذه الأفكار المنحرفة التي بذرت في كل مفاصل المجتمع ومزقته وخربته. لأن توقع الحصول على العفو وعلى المغفرة من هذا الإثم بتوبة صامتة وندم سري وغير معلن... مثل هذا التوقع تعلق كاذب بالأمل، وانخداع. لأن النـــزاعات الداخلية ستستمر وســـيزداد التدخل والضغط الخارجي الذي يستفيد من التشتت ومن الضعف الداخلي ويقوى. لأن نظام أي مجتمع وحياته ورفاهه -أي كون التوفيق الإلهي معهم- مرتبط بالتفاهم والتساند الموجود بين أفراد ذلك المجتمع وتجمعاته وأحزابه، أو في الأقل عيشهم في سلام دون خلافات وخصومات. وعلى العكس من ذلك إن كانت هناك أمة قد تلبد أفق مجتمعها بغيوم سوداء من الخلاف والشقاق والنـــزاع، فعليها القيام بتوبة جماعية. ومثل هذه التوبة الجماعية متعلقة

بالتحول في موضوع العفو إلى حواري من حواريي روح الله عيسى عليه السلام في حياة المحبة والمغفرة والعفو والتسامح. ويتحقق هذا بمساندة كل فرد ومعاونة كل فكر بالذي يحمله من صفة الحق وأسلوبه، ومدّ يد العون له، وتشجيع كل حملة خير وتقدير كل تضحية. ويتهيأ لي عدم وجود علاج أنجع من هذا لتضميد جراحاتنا النازفة منذ عصر كامل، فليس هناك علاج مجرب وموضوعي أفضل من هذا العلاج. ويكاد يكون من المستحيل العثور اليوم على بديل آخر له.

ولكن كم من المؤلم أننا نبحث عن طرق سهلة -كمراسيم توبة في ليلة الجمعة- للخروج من تحت وطأة وبال الآثام التي أثقلت كواهلنا. بينما إن كان هذا الطريق المختصر من التوبة والندم كافيا للآثام الفردية، فإن الأمر إن كان متعلقا بجرائم ذات صلة بالمجتمع فهذا لا يكفي بل يطلب انتفاضة جماعية وتجديدا للنفس.

آه من مثل هذا الهروب من عزائم الأمور، وآه من هذا التوجه لكل أمر سهل ورخيص!

إن على كل مؤسسة تمثل المجتمع أن تتوب، وتكون توبتها بفهم انواع الأخطاء التي قرضتها وأنهكتها وأفلستها، والقيام من ثم بتلافيها.

وتكون توبة الكادر الإداري بفهم وفحص جرائمه وأخطائه وذنوبه، ثم اتخاذ موقف آخر مضاد تجاهه ومعاكس، وتجديد نفسه وإحيائها.وإلا فإن عقد خمسين ألفا من مراسيم الندامة وشعائرها لا تفيد شروى نقير، ولا تقطع بها خطوة واحدة إلى الأمام. فتبا وألف تبٍّ لمن يرى الداء دواء، وتبا ألف تبٍّ لمن خُدع بهذا مرارا وتكرارا!

تتسامى أفراد المؤسسات العدلية والقضائية بقراراتها الصائبة والصحيحة التي ابتغت بها وجه الحق والعدل، وتكون مرشحة لأسمى المراتب الأخروية. وكل ساعة عدل منها تعد أعواما من عمل الخير في حقها لدى الحق تعالى.

ولا تقل عن درجتها هذه عندما تندم وترجع إلى نفسها بعد أي قرار خاطئ. ولكنها عندما لا تبالي بالحق، وعندما ترى أن الحق للقوة وللقوي، وتضحي بالحق على مذبح القوة لا تستحق حينذاك أي عفو أو توبة.

والشيء نفسه وارد بالنسبة لمؤسسات التربية والتعليم. فما دامت هذه المؤسسات محافظة على مشاعر الأمة وأفكارها ومقدساتها، ومدافعة عنها وصائنة لها، استحقت كل تبجيل وتقدير. فإن روجت للأفكار المنحرفة والمشوهة سقطت إلى دركٍ أسفل من درك اللصوص والمجرمين. وما لم تعد إلى رشدها وتتخذ موقفاً حازما تجاه الأفكار الأجنبية والمخربة، فلا تقبل منها توبة، ولا مغفرة لها.

أما جميع المؤسسات السياسية، والأفراد والجماعات غير السياسية، وكذلك المفكرون والكتّاب والمرشدون فإن انحصر اهتمامهم ومحبتهم لأنفسهم ولجماعتهم فقط، وقاموا بإظهار الخصومة والعداوة لأهل الحق من خارج حلقاتهم، أو خارج نطاقهم، فهم في إثم كبير، ولا سبيل أمام كل فرد منهم إلا طرق باب التوبة، والتوبة هنا فرض عليهم أيما فرض.

أجل!.. فعلى جميع هذه المؤسسات والأفراد أن يراقبوا أنفسهم مرة أخرى عن كثب، فيروا نصيبهم من الإهمال والأخطاء والآثام ضمن سفينة الأمة الجانحة التي يركبونها، فيحاولوا بكل وسعهم تلافيها. فهذا واجبهم الذي لا يمكنهم إهماله. وإلا كان ديدن هؤلاء حتى اليوم البحث عن الأخطاء خارجهم، وخارج جماعتهم. فإن استمروا في البحث عن معاذير لاتهام الآخرين وتشويه سمعتهم، فليس بعيدا أن نتعرض إلى مصائب ومشاكل لا نستطيع حملها أو الصمود أمامها.

أجل!.. لقد كان أوخم آثامنا أننا رأينا الآخرين مذنبين، ورأينا أنفسنا أبرياء على الدوام. ولكوننا لم نتخلص من هذه العادة ومن هذه العقلية، فقد فسدت الأجواء الاجتماعية وقست، حيث تسارعت وتائر الإنقسام

والتشرذم. لذا كان على جميع من لهم علاقة بمصير هذه الأمة وقدرها من الناحية المادية أو المعنوية، وعلى جميع أصحاب الأرواح المخلصة الذين نذروا أنفسهم لهذه الأمة أن يعترفوا بذنوبهم ويتوبوا.

وعلى الذين يسعون لاهثين وراء المناصب... الذين على أعينهم غشاوة من حبهم المحصور على حزبهم، وفي آذانهم صمم... الذين تركوا بأفكارهم الشاذة الأجيال الصاعدة دون قلب ولا روح... الذيـــن يرون بطغيانهم وجبروتهم أن الحق للقوة، والذين أعلنوا الحرب على كل ما يخالف أفكارهم حتى وإن كان من مصدر إلهي... الذيـــن لا يرون ولا يدافعون إلا عن مصالحهم ومنافعهم... الذيـــن لا يرون بأسا من أي تزوير أو كذب أو خداع وتدليس... الذيـــن يرون كل وسيلة مشروعة من أجل الوصول إلى غاياتهم وأهدافهم... الذيـــن يتقلبون ويتلونون مع كل عهد... على كل هؤلاء أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يعلنوا وللمرة الأخيرة عن توبتهم باسم الإنسانية وأن يجددوا قسمهم ويمينهم عليها.

مأ أسعد من أدرك ذنبه فأسرع بالتوبة!.. وما أســـعد من كان صلبا لا يتهاون مع نفسه، وليِّنا ومسامحا مع الآخرين من أهل الحق!

# عندما تنبض القلوب برقة

تقوم الأيـــام والليالي المباركة بإعطاء كل شيء ولكل شـــخص طعمها ولونها ونكهتها الخاصة بها. وتضيف إلى كل شيء رفقا وليونة، وتسوقه إلى عالم من الخيـــال، وإلى أعماق تتجاوز تصوراتنا. ففي كل مكان... في السوق والمدرسة... في المعبد والمعسكر... يُحدَس سريـــان سحر عميق في سماء المؤمنين، حيث يبرق جـــو الآخرة، وتلتمع المحبة الإلهية في العيون. وفي ساعات الليل بالأخص تبتسم الأضواء الملونة في عيوننا، وتهمس لنا نغمات بُعد آخر من أبعاد الوجود. وكل وجه نـــراه في البيوت أو في المعابد أو في أماكن العمل يبدو لنا وكأنه يعيش رحلة وصال وعشق ممض، ويتماوج من حين لآخر مع الأماني والآمال، ثم يتحول إلى شلال من العواطف التي تجري لتصب في اللانهاية.

وكلما فارت مشاعر العبـــادة والطاعة في أنفسنا تفور معها قابليتنا في العيش والشعور بالأشياء على نحو آخر، وتســـحبنا إلى أغوارها البعيدة. في مثل هـــذه اللحظات والأوقات تضعف روابطنا الجسديـــة والجسمانية، وتتخلص أرواحنا من همومها ومشاغلها اليومية، ونحس أننا ارتفعنا وسمونا إلى ذروة نراقب منها الوجود بأكمله. هنا نقوم بحب واحتضان كل شيء... الجبال والسهول والأودية... البيوت التي نشأنا فيها... بيوت العبادة التي هيأنا في جوها للآخرة... نحتضن ونحب كل شيء ونعب منه ونتنفسه... الحي منه والجماد، لأن كل شيء وجـــه من وجـــوه الجمال الـــذي خرج وانساب من يده تعالى.

في هذه الأيام والليالي التي تولد كطوفان من النور، يظهر نوع من العشق والمعرفة اللدنية في أحوال المؤمنين العامة عند قيامهم وقعودهم. والأشواق الروحية التي تتغذى بالإيمان وبالمعرفة وبالعشق تتجاوز وتتقدم على جميع اللذائذ والأذواق المادية، ويبدأ كل واحد بالتوجه نحو أفق مقدس من المعرفة حسب ما يملك من قابلية للعرفان. وفي هذا الطريق يصل في نهاية المراحل التي يقطعها في كل يوم إلى وصال صغير ليتوج به سفره المبارك هذا. والذين يغذون أرواحهم كل يوم بمثل هذا الوصال، ومن الخيالات المتداعية المترافقة لجميع هذه الوصالات وللوصال الكبير، ومن أنواع الجمال المتدفقة إلى مشـــاعرهم، ومن براعم الأمل النابتة في صلب عباداتهم، ومن الأذواق الروحية التي يحصلون عليها من المعاني الهادرة من القلوب والعيون المؤمنة، يرجعون لأنفسهم، وينغمرون مع هـــذه المعاني في صمت مهيب، حيث يَدَعون أنفسهم لأحلام الوصال الكبير الذي سيتحقق في ذلك العالم الآخر، ويتخيلون أنفسهم وكأنهم يسبحون في نهر ســـاحر، وأنهم أبحروا إلى ما فوق الزمان.

هؤلاء السعداء الذين وصلوا إلى بحر الســـعادة واللذة والشوق الذي يبحثون عنه، يحسون في كل آن، ويرون أنواعا من الجمال اللدني الساحر في منافذ قلوبهم، والأزهارَ المفتحة التي هي من تجليات نظر المحبوب ﷻ، ويحسون بها وكأنها حزم منعكسة من جماله... يحسون بهذا فيتخيلون وكأنهم في حديقة عامرة بأنواع الثمار والفواكه، وبأنـــواع الزهور والورود... والنسيم الرقيق يهبّ عليهم من كل جانب... وكلما قطفوا ثمرة أو وردة أحسوا بدفء الأمل في الألطاف التي يعدها المعبود تعالى-الذي عبدوه طوال حياتهم، ووضعوا جباههم على عتبة بابه- لهم في المستقبل، فيكادون يغيبون عن وعيهم... كأنهم يحدسون بموجات من نسائم وعود -في بُعد آخر غير هذا البعد الدنيوي- لبعض النعم التي لم يصلوا إليها، وبعض المكافآت التي لم يحصلوا عليها، فيحسون في عالم مشاعرهم وكأنهم يحتضنون الرحمة والشفقة

العميقة والأزلية للرحمن الرحيم. وضمن هذه الحالة النفسية والروحية يحسون بالحياة بشكل مختلف، ويحبونها بشكل أعمق، ويحتضنون بكل لطف ورقة كلَّ شيء مرتبط به تعالى.

الرجـــال والنســـاء... الشباب والشـــيوخ... العالمون وغير العالمين... العارفون وغير العارفين... ترى في أحوال كل هؤلاء وفي تصرفاتهم في ليالي هذه الأيام المباركة وفي أنهرها ظرفا يفوق ظرف ما جـــاء في الأساطير وفي القصص، حيث يلتحفون بالجمال المعنوي لهذه الأيام المباركة، وتصطبغ وجوههم بمهابة الإيمان على وجوههم وهم يتطلعون إلى الأضواء الآتية من وراء أفق هـــذا العالم، ويخلفون وراءهم في كل شيء لونهم ورائحتهم، وينتقلون في أعماق مشاعرهم إلى عالم الآخـــرة، ويذوبون فيه ويكادون يقتربون من الملائكة. ويكاد الإنسان يلمح في وجوههم بسمات أضواء القناديل المضاءة في الأزقة وبين مآذن الجوامع ونظراتها ومشاعرها المنثورة مثل اللآلئ، فيخيل إليه أنه يرى أمامه الوجوه المباركة للأصفياء الموجودين في خياله.

أجل!.. قد يكون أصحاب هذه الوجوه الصبوحة -التي يتماوج فيها الإيمان والعشق والرغبة ولذة الوصال- والمشتاقون والمعجبون والســـعداء صامتين، ولكن المعاني المنبثقة عن أرواحهم، والمنعكسة على سلوكهم وأطوارهم ونظراتهم تبدي بعدا لاهوتيا يصعب الوصول إليه، ويكاد يسحر الموجودين حواليهم ممن يملكون ما يكفي من رهافة الحس.

يتخلص بعضنا في مثل هذه المواسم من الحدود الضيقة للمنطق فيدع نفسه في يد الفرح والانفعال والبكاء وكأنه قد دُعي لعالَم قدسي... ويتخيل بعضنا بأنه قد تهيأ لسفر بين النجوم وأنه يسابق الشمس والقمر، ويحسب أن أنفاسه تختلط بأنفاس الملائكة، إلى درجة أن قلوبنا تلين إلى أقصى حـــد، وتدمع أعيننا، ونشعر بأن العديد من عُقَدنا التي نحس بوجودها في أنفسنا قد

لانت وانحلت. أما دموعنا المنسكبة فتبدو وكأنها تطهر جميع العقد الموجودة في أعماق أرواحنا، وتهب الراحة والاطمئنان لضمائرنا.

يبدأ كل واحد منا –حسب سعة المعاني التي تملأ قلبه– بالإحساس بمعان عميقة لم يكن بإمكانه الإحساس بها من قبلُ، وذلك بسبب الضغوط الجسمية والمادية عليه. يشب الشباب بعواطف قوية كأنهم يدفعون ضريبة الشباب والعنفوان... أما الكهول فيحاولون أن يكونوا أكثر عطاء وكسبا استنادا إلى ما اكتسبوه من حيطة من تجاربهم الروحية والمعرفية... أما الشيوخ فتهتاج عندهم مشاعر التهيؤ للأبدية وللسعادة الأبدية التي تنتظرهم، وللعالم الذي تطير فيه الأرواح... أيْ يفتح الجميع عيون قلوبهم ومنافذها، فكأن كل واحد يستمع إلى ما لم يسمعه جيدا من قبلُ حول قدره ومصيره. يفرح لحظه الحسن، أو يغتم لحظه النكد، ثم يتطلع ويرمي بنظره بأمل إلى المستقبل، وتتعمق في وجوههم خطوط المعاني. أما الأصوات المرتفعة من المآذن والجوامع المعلنة للشعائر الإسلامية فتزيد الجو العام لذة أخرى وغنى آخر، إلى درجة أَن كل شيء... من الريح التي تهب، ومن المطر الذي ينهمر، نحس بأنه يحمل عطر نفحات إلهية تمس وجوهنا، وتترك في قلوبنا إكسير الخلود. أما نسيم السَّحَر... آه من نسيم السحر!.. إنه يهبّ كنفَس من اللانهاية، ويثير قلوبنا ويجعلها تنبض بقوة وكأنه يحمل لطفا وفضلا، لأن هذه الدقائق السحرية التي نتوجه فيها نحوه تبدو لنا –بفضل إيماننا وعشقنا وآمالنا– وكأنها عصارة الحقيقة الأبدية، فتنسكب على قلوبنا، وتنبت في أعماق أرواحنا براعم فواكه شجرة طوبى، وتأخذ بيدنا لتجول بنا في سفوح الجنات.

الله تعالى جميل وصاحب ألطاف على الدوام. ولكننا لا نشعر بعمق هذه المعاني إلا في أوقات معينة. أجل!.. ففي مواسم معينة والتي نعدها ربيع أرواحنا يجذب تعالى جميع عواطف قلوبنا، وجميع مشاعرنا نحوه، ويجعل من

جماله وسحر جاذبيته قوة لا تقاوم، ويحيينا في كل آن وأوان بلطف جديد منه. وأنـــا لا أتصور وجود أي لذة تعادل مثل هذه اللذة الحاصلة عن هذا الطريق في هـــذه القلوب المباركة... لا أتصور هذا، لأن مثل هـــذه اللذة الروحية تنبع من العشق الإلهي لدى الإنسان ومن الارتباط به تعالى، ومن موجـــات الإحسان لصـــاحب الرحمة اللانهائية وألطافه. وهـــذه الألطاف والإحسان منه تعالى يكون لانهائيا ودون حدود بقدر وبمقياس عشق الإنسان وإخلاصه، وكونه صادرا من أعماق قلبه.

# الشهر الماثل بالمغفرة

إن كان هناك شهر لا تنتهي نشوته، ولا تنفد بهجته، ولا يبلى الوجد عنده فهو شهر رمضان. إن أيام شهر رمضان ولياليها التي تقدّم لنا بأعذب لغة لُباب وجوهر جميع المواسم والشهور العطرة للسنة وروحها ومعناها الحقيقي، وما يترشح منها من عصارة، تحيط كل لحظة القلوب بعذوبة وسعادة وبهجة لا مثيل لها، وتحتضنها بحنان وشفقة، وتربّت عليها بكل محبة، وتستجيشها بأشواق الحياة.

إن أيام رمضان في كل أرجاء العالم ولا سيما في البلدان الإسلامية وبين المسلمين، وبالأخص في دنيانا وفي جونا وعالمنا تكون مركزاً لكل الاهتمامات، وميداناً لجميع الأذواق الروحية، ومسرحا لجميع العواطف الجياشة، وعمودا حلزونيا من النور للتسامي، وفرصة لتطوير كل الخصائص الإنسانية وتوسعتها وتطوير مزاياها.

إن أيام شهر رمضان الذي يطلع كل نهار فيه وكل ليل بمشاعر مختلفة... إن أيامه تمس القلوب بروح جديد، وبرفق قبل الرحيل، وتجمع أشتات المجتمع وتلملمها في بوتقة واحدة، وتفتح طريق الجماعة أمام المنـــزوين، وتزيل الغربة عن قلوبهم، وتقدم للجميع وليمة فكر ومشاعر مختلفة الأبعاد، وتهيؤهم للحياة من جديد.

يتضمخ كل شيء في شهر رمضان بالعطر والنور... بدءً من الكتابات

بين مآذن الجوامع[1] إلى القناديل الموجودة على يمين وعلى يسار الطرق المؤدية إلى المساجد، إلى مصابيح بيوتنا، إلى الطهر البادي في وجوه المؤمنين، إلى النور في القلوب. أما أوقات السحور التي تهبّ عليها نسائم السحر في هذه الأيام التي يسترجع فيها الديـــن شبابه، والإفطار الذي يكون مظهرا لألطاف سرية... فهي أوقات ذات طعم وذات ضياء خاص ولهجة خاصة تخالط القلوب. ولا يصل إلى مرتبة هذه السعادة سوى العشق الذي يطير بأجنحة أمل الوصال... كأنه كان هناك ستار بين الإنسان وبين شوقه إلى اللانهاية حتى مجيء شـــهر رمضان، وكأن هذا الستار ينفرج بالصوم. وكأن العشق والشوق اللذيـــن كانا في غفوة في ركن من أركان القلب حتى تلك اللحظة يستيقظان فجأة، ويفوران ويستوليان على كيان الإنسان، وينقلبان إلى رغبة لا تقاوم في الوصال. وفي سبيل تحقيق هذه الرغبة المقدسة يحاول الإنسان اغتنام التجليات التي تهبّ في أوقـــات الســـحر، وتقييم أوقات الصلوات التي هي منافذ تنتظر الإنسان لمشاهدة آفاق وراء أفق الدنيا هذه. وفي صلوات التراويح تفور المشاعر وتتصاعد بالرَّوْح والريحان، وتعبّ الأرواح من النفحات الإلهية كؤوسا بعد كؤوس، فإذا بكل واحد -كل حسب درجته- قد انقلب إلى شخص أخروي، واقترب من طهر الملائكة.

ونظراً لكون شهر رمضان شـــهر القرآن يجد الإنسان -حتى الذي ابتعد عن القرآن طوال السنة- نفسه الظامئة في الجو النوراني للقرآن... عند ذلك تنهمر عليه المعاني والأسرار القرآنية وألطافها، وتسقي كل وديان نفسه وروحه التي أوشكت أن تجفّ وتيبس، وتقلب عالم قلوبهم من أدناها إلى أقصاها إلى بســـاتين وحدائق زهور وورود، وتبعث فيهم فرحة الوجود، وتجعلهم يسمعون بالقرآن كل عالم الوجود ويحسون به، فيرتفعون بهذه

(١) في أيام شهر رمضان يقوم كل جامع في المدن الكبرى في تركيا بكتابة عبارات الترحيب بالمصابيح الملونة بهذا الشهر بين المآذن. (المترجم)

الأحاسيس والأفكار ويسمون... يحسون بأن الوجود كله والخلق كله يتنفس بالقرآن، فيرتجفون ويرتعشون ويكادون يغيبون عن أنفسهم. وفي أحيان كثيرة تنهمر دموعهم على خدودهم، ويشعرون بأن الستار يرتفع، وأهم أصبحوا أقرب إلى مولاهم وخالقهم من كل قريب، فيحسون بلذة لا يستطيعون وصفها.

إن فهم المحتويات اللدنية للقرآن لا يتيسر إلا لمن يسمع في القرآن صوت الوجود كله، ويستمع في أعماقه إلى كل موسيقى روح الإنسان من خوف وأمل، ومن حزن وفرح، ومن غم وبهجة. والأرواح السامية المتجاوزة للزمن التي تستمع إلى القرآن وكأنه أنـــزل عليها تجد فيه لذة فواكه الجنة وألوان وجمال حدائق الفردوس، وأهار وشلالات سفوح الريّان ومناظرها، فتتوحد وتنساب معها. وأصحاب القلوب الصافية الذيـــن ينكبون على القرآن في الأيام الشفيفة لشـــهر رمضان، وبمقاييس القلب المملوء توقيرا واحتراما، وينـــزلون إلى أعماقه، يصلون كل لحظة إلى قيمة مختلفة من قيم الآخرة، ويتعرفون في كل آن على بعد آخر من أبعاد البقاء. المادة في فكر هؤلاء وفي حياهم تكمل ما وراء المادة، ويكون المعنى هـــو المحتوى الحقيقي للمادة وقيمتها، ويظهر كل شيء بقيمته المتخفية وراء الأســـتار. ترى في أوجه هؤلاء -لكوهم متهيئين لاستقبال تجليات الأسماء الإلهية وصفاقما- قابلية خفية للحدس، وفهما متميزا وفريدا، ونضجا وكمالا متأتيا من امتزاجه بالقرآن والبكاء عند تلاوتـــه، وارتباطه بالآخرة، وصفاءً وغنى وصدقا وإخلاصا ولطافة مزينة بالأذواق الذهبية للإيمان، وجاذبية وسحرا ومروءة وشهامة. وحتى لو لم ينطق هؤلاء أو يتكلموا فإن هذه المعاني تبدو وتظهر وتطفح على السطح من سلوكهم وتصرفاقم وأطوارهم ونظراقم وتنعكس وتجد صداها فيما حواليهم.

لا يوجد شـــهر آخر مليء بالقرآن، يكون ليله بهذا النور، ونهاره بهذا

الضياء المضمخ بعطر القرآن. والإنسان في كل شهر رمضان جديد يرى من جديد نضارة القرآن ونبعه الآتي من وراء السماوات، وما يحويه من زينة المعارف الإلهية، وإشاراته المنبثة في أرجاء الكون وأرجاء المكان. فيفور عنده العشق الإلهي، ويرى ويسمع ويحدس آثاره التي تبرق في وجوه المؤمنين به. أجل!.. ففي شهر رمضان يبرق القرآن ويلتمع في هذه الوجوه المضيئة التي نحتها القدر، وفي هذه العيون التي تبرق بأعمق المعاني المتعلقة بالآخرة. ونرى الجميع رجالا ونساءً... شـــيوخا وشبابا... فقراء وأغنياء... عامة الناس وخاصتهم... علماء وأميين... نراهم وقد أخذوا -من ناحية طراز المعيشة والحياة- نصيبهم من هذا الجزء من الشريط الزمني فامتزجوا بشهر رمضان وتشربوه وتنفسوا به.

أجل!.. كل إنسان -حسب قابليته واستعداده- يصعد به إلى بعد آخر، ويتخلص من العديد من الرذائل التي تحط من قيمة الإنسان، ويتطهر من الأدناس والأوساخ المعنوية، ويزداد نـــورا ويكون أهلا للجنة. إن شهر رمضان بِيُمْنه وبركته غنيّ إلى درجة أن كل من يلتجئ إلى ظله يستفيد من ثروته وغناه، ويستطيع الوصول إلى سلطنة الآخرة شابا كان أم شيخا... مؤمنا قويا كان أم واهنا... ذكيا كان أم أحمق... عاقلا كان أم مجنونا... عارفا بما وراء الأستار أم جاهلا به... مؤهلا كان للعمل أم غير مؤهل... مُوَسْوِساً كان أم مقداما لا يبالي بشيء... مخلوقا لكي يكون حاكما وزعيما، أم مخلوقا تابعا ومحكوما... صامدا كان أمام جميع المصاعب، أم فَرِقاً يسقط من أول هزة... متشائما يئنّ طوال حياته أم محتفظا بأمله حتى وهو في جهنم... طُفَيْليا كان ومعتمدا على الآخرين طوال عمره أم صاحب إرادة لا يفلّها الحديد أمام جميع المصاعب والهموم... أم إنسانا خطط حياته للأكل والشرب والنوم والراحة والكسل فقط. أجل!.. كل هذه الأصناف المختلفة بعضها عن بعض لا بد أن يستفيدوا من الجو النوراني لشهر رمضان

وإن كانت الاستفادة بمقاييس ودرجات مختلفة، ويتغير شيء فيهم كل حسب حاله ويتميزوا، حتى يصلوا إلى حال وإلى مرتبة أخرى.

إن جمال شهر رمضان ونورانيته في العيون المتفتحة لهذا النور، وعظمة معنى الوجود التي يحتويها، تجد صداها السرّي ضمن أطياف معينة وبدرجات مختلفة على هذه المجموعات المختلفة، بروح وطعم وجو ومعنى خاص بهذا الشهر، وتسري في القلوب سريانا لا تستطيع أكثر الرؤوس عنادا أن تقاومه بل تستسلم له.

ليالي شهر رمضان التي تلف بأسرارها كل شيء تكون مؤنسة وحلوة، ونهاره الذي يحتضن مشاعر الإنسان وأفكاره بلطف وحلاوة يكون دافئا وحريري الملمس... تكون الصدور المؤمنة فوارة بالمشاعر العميقة... والأصوات الداعية إلى الله تنضح بالحنان... والمعاني التي تعبر عن كل هذا مؤثرة إلى درجة أن الذين يستطيعون فتح صدورهم وقلوبهم لشهر الغفران هذا يبتعدون -ولو بشكل مؤقت- عن القلق والهموم ويشعرون بسعادة الجنة.

# العيد السعيد

حينما تُقبل الأيام على بلدي...

يكون ذلك اليـــوم عيدنـــا...

العيد يوم فرح وسرور، ولا سيما للذين يدركون معناه، ويبدو الناس في الأعياد وهم سعداء ومطمئنون، لكونهم أصبحوا مظهرا للعفو الإلهي، وتخلصوا من تبعات أخطائهم وذنوبهم، ولكونهم يعيشون الماضي والمستقبل معا بشكل متداخل.

كل عيد يبث في الأرواح اطمئنانا، وتتداعى سلسلة من ذكريات البشر والسرور على سيماء الوطن، ليصل إلى الكمال. والسعادة التي تنبعث من تداعي هذه الذكريات في القلوب في الأعياد قد تفوق بألوانها وعمقها بشر هذه الأيام وسرورها وزينتها.

في مثل هذه الأيام نضع الماضي والمستقبل معا في خيالنا... نقبِّل أيدي آبائنا وأجدادنا العظام... والوجوه النيرة الحلوة لأحفادنا... فنشعر في قلوبنا بسعادة لا توصف للماضي وللمستقبل. ومع أن أصحاب الأنفس المتشائمة، والقلوب السوداوية لا يفهمون معنى هذا فإن جميع ألوان غبطة الماضي المجيد، وكل الآمال العريضة للمستقبل تشكل بكل ألوان الطيف إكليلاً فوق رؤوسنا ونحن نعيش احتفالات هذه الأيام.

أجل!.. فأي سعادة يمكن أن تضاهي سعادة تأمل لوحة الماضي بكل عظمته، مع المنظر الأخاذ للمستقبل في إطار واحد ؟!.

إن روح الإنسان -من ناحية المشاعر والفكر- يستطيع الإحساس بنشوة الأذواق القلبية العائدة للماضي وللمستقبل ويعيشها مثلما يعيش لحظات أذواقه الحالية، فيتجاوز الزمن ويدرك العيد ويحس بـــه كأنه طار بأجنحة إلى أبعاد أخرى. ويختلف العيـــد الْمُدْرَك بهذا المعنى تماما عن بيانات التهنئة والمعايدات الروتينية المذاعة في هـــذه الأعيـــاد. فالعيد عند أصحاب هذه المعايدات يوم باهت بعيد عن الحياة ومعزول ومنبتّ عن الماضي وعن المستقبل، وكأنه مجرد يوم توزع فيه الحلويات على الصغار.

يأتيني كل عيد بزينة المستقبل الملونة بأنواع الألوان، ويعكس في قلبي -قبل رحيله- أحلى لوحات الماضي وأروعها. فكم تملأني النشوة عندما أشاهد بعين الخيال الأجيال الســـعيدة القادمة التي وصلت إلى مرتبة العرفان من الناحية الماديـــة والمعنوية، ورهفت مشاعرها، وتوحدت مع أرواحها، وتعانقت بعضها مع البعض الآخر... أتخيل جيلا ملأ العلم عقله... وملأ الإيمان بالخالق العظيم وحبـــه قلبه... وامتلأ بحب الوجـــود... ووصل إلى ساحل الاطمئنان. هذه المشاعر التي تسكبها هذه الخواطر في قلبي أحسها في أعماق وجداني، فأعيش دقائق لا مثيل لها. وفي ذلك الإقليم والجو الخيالي أرى الكهول وقد ارتقوا إلى مستوى الإنسانية الحقة... والشباب وقد ألجموا أهواءهم... ووجـــوه الصغار -الشبيهة بزهرة الشمس- وكأنها تنـــورت بسنا ألوان وأنوار منهمرة عليهم من فوق... والنساء اللائي هيأن كل هذا الجو الساحر... أتخيل هذا فأحس بالسعادة وهي تسري في كل مفصل من مفاصلي، وفي كل عرق من عروقي.

في ذلك الجـــو أتخيل إدارة الدولـــة وكأنها مودعة في أيدي أحكم الأشـــخاص وأكفئهم، الذين يتناولون كل شيء بدقة وبحساسية من يقوم بالتطريز... إدارة ترى فيها الرعايا والرعاة المرشدين العارفين في صف واحد في تلاؤم وتناغم... هذا هـــو ما أتخيله لسيناريو المستقبل... وقد تفتحت

وورود العدالة في كل مكان. أما الظلم فضعيف هزيل لا حول له ولا قوة... لا ترى لظالم صولة أو جولة، ولا تسمع أنينا لمظلوم.

تمر المدارس في خيالي في العيد وقد أصبحت مختبرات لحل أسرار الكون وطلاسمه، حيث أرى هناك أساتذة عمالقة يهيئون طلابهم لفكّ أسرار ما وراء السماوات... أساتذة ترى الوضاءة في وجوههم، والإخلاص في قلوبهم، والاستقامة في تفكيرهم.

في الأعياد أتخيل كأني أسمع طبول الغزو في الثغور... وتطرق سمعي أصوات جيوش الفتح وأصوات مدافعها... أصوات جيوش الفتح التي تصدت للأخطار لتأسيس توازن بين الدول، وضحت بأسباب الراحة والدعة وكل مباهج الحياة.

يتفتح في قلبي في كل عيد جميع ألوان الأناشيد والتكبير. وفي كل عيد ينتشي روحي بإلهاماته وبالذكريات التي يحييها في قلبي، فأحس وكأنني قد تطهرت وتجددت تماما، حتى أتمنى لو أن كل الأيام كانت أعيادا.

قد يبدو هذا للبعض ضربا من الخيال. بينما يرى فيه البعض الآخر مُثُلا سامية سبق وأن كانت لها آلاف الأمثلة، وتفسيرا موجزا لحقيقة أزلية خالدة ظهرت بوادرها في أفقنا منذ زمن.

# الوجه الآخر للموت

ينظر العديد من الناس إلى الموت وكأنه نوع من العدم والانقراض وتفتت وتحول إلى تراب، لذا لا يحاول هؤلاء مواجهة الموت أبدا. وكلما ظهر سـبب من أسباب الموت كالمرض والشـيخوخة والحرب وحوادث السيارات والزلازل نراهم يرتجفون خوفا وهلعا من المنظر الذي يرتسم أمام مخيلتهم حـول وحشة القبر، مما يقلب حياتهم إلى عذاب لا يطاق. أجل، يحسب هؤلاء أن الإنسان عندما يموت ينتهي كل شيء بالنسبة له، حيث يرقد جسده في اللحد ليتحول إلى تراب، ويضيع كل شيء في ظلام العدم. وبعبارة أحد الشعراء:

لن تسطع الشمس بعد الآن،

أما أنت فنم بسكون وراحة،

فالموت نوم ما له من نهاية...

من الواضح كم يقاسي الإنسان ويتألم من مثل هذه الفكرة، وهو المخلوق المرشح لحياة أبدية. وكل من يستمع لصوت وجدانه يسمع هذا الصوت وهو يهتف به ببيت من أحد الشعراء:

لو ملكت الدنيا كلها بقي سؤالي،

لماذا لا ينتهي حزني وغمّي؟

وهو أمر مهم يجب الوقوف عنده وعدم إهماله. بينما الموت ليس عدما أو انقراضا ولا تفتتا وتحللا، ولا فناء، ولا نهاية. كما أن القبر ليس حفرة يتم

فيها التحول إلى تراب، ولا مكان وحشة ووحدة. والحقيقة أن الموت عندما خُلق وأوجد لهذا الإنسان المخلوق لحكمة وفي ظل خطة وبرنامج معين، إنما خُلق لنقله من بُعد معيَّن إلى بعد آخر ضمن هذا البرنامج وهذه الخطة. وتغيُّرُ الإنسان من حـــال إلى حال ودخوله -حسب ثمرات أعماله- إلى مرحلة مختلفة ورجوعه إلى وطنه الحقيقي ودار إقامته الأبديـــة، ولقاؤه الأرواح الصالحة -طبعا حسب عقيدته وعمله- في ممرات الوصال المتداخلة، ومثولُه أمام خالقه دون كم أو كيف، ونيلُه رضوان الله... لا يتم كل هذا إلا بالموت. كذلك لا يعدّ القبر بئرا مظلمة ولا حفرة محاطة بالعدم كما يُحسب ولا غرفة سجن وعزل، بل هو باب مفتوح لعالم مضيء، وممر ينقل الإنسان إلى عوالم نورانية، وموضع انطلاق لارتفاع الروح إلى عوالم أخرى سامية وعالية. والذين أنهوا مهمتهم أمام الشاهد الأزلي الحق تعالى، أو الذين أنهوا خدمتهم في هذه الحياة الدنيا مثل جندي تسرَّح من الخدمة، والذين أتموا -في ظل شـــعور عميق بواجب الدعوة والخدمة الإيمانية- إيمانهم بالعبادة، ووصلوا بعبادتهم إلى درجة الإحسان، وتهيأوا لاستقبال الحياة الأبدية يمرون من هذا الممر -ممر الموت- ليصلوا إلى سعادة لم تشاهد مثلها عين ولا سمعت بها أذن ولا خطرت على قلب بشر.

أجل!.. إن الموت يعني بالنسبة لنا دوما مكانا ذا أبعاد عديدة، وزمانا ذا أعماق يتجول فيها الروح، ويحمل معنى التسريـــح من وظيفة العبودية، والأوان الذي يقول فيه الحـــق تعالى لعبده: "لقد آن لك أن ترجع لي بكليتك". والذين يعرفون الحق تعالى حـــق المعرفة، ويحبونه حق الحب يدركون أن في نداء طلب العودة هذا فضلا كبيرا: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّـــكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَـــادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر:٢٧-٣٠). والروح الذي يتلقى هـــذه الدعوة لا يستطيع الانتظار دقيقة واحدة في الدنيا لأن معنى هذه الدعوة هو:

تعال أيها الروح... تعال... آن لك أن تغادر هــذه الدنيا الضيقة... تخلص من جوها الكئيب الخانق... ارجع إلى الجنة التي فقدتها... ارجع إلى الوطن الحقيقي لك.

والذين يفهمون الموت بهذا المعنى، يدركون أنه فضل ونعمة، وأن المجئ إلى الدنيا كان لأداء مهمة معينة وأداء خدمة فيها كالخدمة العسكرية، وأن فراقها يعني التسريح من هذه الخدمة، وأنه ولادة ثانية ليستيقظوا في حياة أبدية لا تزول ولا تنتهي، لذا يمشون نحو الموت برباطة جأش ودون وجل. وسيان عند هؤلاء صداقة عزرائيل وصداقة إسرافيل. وفي كل لحظة من لحظات رجوعهم إلى الله تعالى والخطو نحوه تحت ريادة جبرائيل يلتذون بهذه الرحلة وكأنهم يعلون ويرتفعون في رحلة معراج ويسمون. والحقيقة أن المؤمن ينظر إلى الموت والدفن في القبر نظرته إلى بذرة بذرت في الأرض لتتحول إلى سنبلة، أو إلى حيمن يندفع لكي يتحول إلى إنسان كامل.

أيّ بذرة صالحة بذرت في رحم الأرض ولم تتحول إلى سنبلة؟ إن الله تعالى شرف الإنسان عندما نفث فيه من روحه وجعله مخلوقا مرشحا للحياة الأبدية. ومع أن الجسد سيفنى ويتحلل فالروح يبقى حيا إلى الأبد. وللموت لذة وسعادة عند الذين يدركون أن صاحب الروح هو الذي يقبض هذا الروح. فالموت والقبر عند هؤلاء عبارة عن مجرد ستار وفاصل توجد خلفه مباشرة وعلى بعد خطوة واحدة فقط بهجة وسعادة لا توصفان ولا تخطران على أي بال. وتراهم حتى وهم في هذه الحياة الدنيا وكأنهم في عالم القلب متكئين على الأرائك المزينة بالجواهر متقابلين وكأنهم في جنات النعيم. وذلك بدرجة غنى إيمانهم وأفق المعرفة التي يملكونها، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۞ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۞ لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنــزِفُونَ ۞ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۞ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْــتَهُونَ ۞ وَحُــورٌ عِينٌ ۞ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾(الواقعة:١٧-٢٣)، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ

وَنَعِيمٍ ۝ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾(الطور:١٧-٢٠)، ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ۝ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾(الطور: ٢٢-٢٤)، ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (الغاشية:١٢-١٦).

فإذا كان هذا هو الوجه الحقيقي للموت، فخليق بنا -حتى من الناحية المادية والجسدية- ألا نبكي ونحزن، بل نفرح للموت الذي يُعَدّ تمزيقا لهذا القفص الجسدي، وتحريرا لنا من سجن ضيق، إلى جنات واسعة وبساتين خضراء شاسعة. نفرح لأن الموت هو الجسر الوحيد لهذا العالم السحري الذي يدير العقول والذي يطل علينا بوجه ضحوك وطليق في أحلامنا كل ليلة. هذا الموت الذي يأتي بأمره هو تعالى وبإذنه. وأصحاب القلوب المملوءة بالإيمان والمدركة لحقيقة الموت، وأبطال المحبة يقبلون على الموت بكل وجد وعشق لكي يحققوا الوصال مع الحبيب الأزلي. وعندما يتم هذا الوصال يذوب كل منهم كما يذوب السكّر في الماء ويتحول إلى شراب، ويتغير ويتحول إلى رقة ولطافة أهل الآخرة، ويسبح ويغتسل بذكر الله الذي يتردد في أفواه الروحانيين وعلى أصوات رفرفة أجنحة الملائكة. وبخلاف الذين يلوثون ما حواليهم بنجاسات معنوية من أهواء وشهوات، ويثيرون شعور الاشمئزاز والقرف، في زمن يسيل دون انقطاع أو تغير، قد عجن بالأكدار والهموم، لا طلوع فيه للشمس ولا غروب... نرى روح المؤمن ينتقل مثل وردة من يد إلى يد، ويُشَمّ في كل مكان يحل فيه كالمسك والعنبر. أما حاكم الأرواح والأنفس وسلطانها، فيَهَبُ له ملكا وسلطنة تدير الرؤوس وتخطف الأبصار، ويفيض عليه بخِلَع وأفضال خاصة وجديدة على

الدوام لا تنقطع ولا تنتهي، وينير أفقه وما حواليه بأنوار جماله، ويسمعه قصائد وأنغام الرضى عنه، ويذيق روحه ألوانا لا تعد ولا تحصى من الجمال. ولكونه بطل معرفة حكمة الوجود في الحياة وسرّها، يرى في كل منـــزل من منازل الآخرة -بنسبة إيمانه ودرجة عشقه وشوقه- ما تراه الجواهر واللآلئ من قيمة وتقدير. وبخلاف من يمشي بخوف ورعب -من الذين أساءوا التصرف في حياتهم- في ظلمات حالكة، نرى أن كل بطل من أبطال الحقيقة هؤلاء يخطو في النور على الدوام في الصباح أو في المساء، ويغرف من النور، ويتجول بين الأنوار. لا يستطيع الظلام الاقتراب منه، ولا يستطيع الغروب إسدال ستار الظلام عليه. ومثل هؤلاء المحظوظين ينصبون خيامهم في أفق بحيث يستطيعون التجول في الشواهق التي تشكل الغاية من خلق المشاعر الإنسانية، ويرتفعون من أفق الإرادة إلى ذروة الشعور، ومن ذروة الشعور إلى قلب العرش. وفي كل ارتقاء وعروج يجدون أنفسهم في وليمة مختلفة من ولائم المواهب، ويصلون إلى أنواع مختلفة من وجـــوه لذائذ المشاهدة ووجد التأمل، ويعيشونه. وهذه نعم من الأنعام التي تتجاوز الإدراك البشري. ومع أن بعض أبطال القلب ذاقوا جزءً من لذة هذه الألطاف في الدنيا، إلا أن التذوق الكامل لها وعيشها كاملا خاص بدار الآخرة فقط.

إن المؤمن الذي يصل إلى هذا اللطف الإلهي وإلى هذه المرتبة سيجد في فمه لذة الشهد الذي لا يجده في أي قرص عسل، والزبد الذي لا يجده في أي مكان آخر. وفي ذلك العالم السحري الذي تبدلت فيه هذه السماوات والأرض، واختلفت وتغيرت، تلتف وتطوف أنواع من الجمال والفيوضات حول منبعها صباح مساء... تشاهده "هو"... وتعرفه "هو"... وتسمعه "هو" فحسب... وترتفع بجاذبيته وحبه والشوق إليه فوق مستوى ماهيتها، وترتبط بنور وجوده، وتبدأ باللمعان، وتكون كما قال الشاعر غالب:

لمعة من النور الإلهي،

لا يسعها فانوس السماوات...

فإذا كان الموت هـو الجسر الوحيد الـذي يوصل إلى هـذه النعم والألطاف، فإن الموت -حسبما أرى- يكون ألطف أمل للإنسـان وأحبه وأحلاه. ولكن كما أن مسألة الدعوة للحياة الدنيا لا تعود إلينا، كذلك فإن الرغبة في الموت وتمنيه وطلبه ليس من حقنا. ولكن عندما يدعونا الله تعالى نسرع إليه بكل حب وشوق. ولكن إن قال: "رويدكم!.. ابقوا قليلا" فلا يسعنا سوى الصبر المرير انتظارا ليوم الوصال واللقاء.

# العالم السري للمعابد

إن عالمنا عالم سحري يصل فيه الفن الإلهي والجمال الطبيعي في هذا الفن إلى ذرى سامقة تدوخ فيها الرؤوس وتدور، وتأخذ فيه الجوانب الديناميكية التي تشكل أساس وجودنا المادي والمعنوي إيقاعات متناغمة وساحرة من التناسب. عالم يحتضن فيه الجمالُ الكمالَ، ويحتضن الكمالُ فيه الجمالَ. هذا العالم البالغ ذروة الجمال... الذي يذهل العارفين بالجمال، وينتشي فيه المدمنون على الجمال ويثملون... هذا العالم يصل بمعابده وتكاياه وزواياه إلى أبعاد عميقة من السحر.

لقد كان بلدنا على الدوام مثل مراصد على سـطح الأرض موجهة إلى اللانهاية، وهو بهذه البيوت المباركة يكتسب هيبة كهيبة البحر المتلاطم الأمواج، ثم تتماوج وتتسع سعة السماء بعقيدة الأبدية، وتسيل إلى قلوبنا. ومن منائر ومآذن جوامعنا الضاربة تواريخها في أعماق التاريخ القديم تسيل عقيدة العبودية وفلسفتها بأصوات الأذان من فوق هذه المآذن فترتجف القلوب وتلتمع العيون. أما عندما كانت المشاعر نقية، والأفكار مرتبطة بالآخرة، والشوارع والدروب آمنة، والأسواق والتجارة نـزيهة وبعيدة عن الغش، فإن جمال هذا البلد لم يكن له نظير.. كان كأنه قطعة من الجنة، أو زاوية من زوايا السماء.

لقد ألفنا في هذا البلد منذ الأمس إلى اليوم أن ننتظر ساعات العبادة وأن نستمع إلى أصوات الأذان كأنها صرير أبـواب السـماء. وأن نهرع إلى المعابـد –وكأنها منافذ ترصد اللانهاية وترنو إليها– ونمتلئ بدفء العبادة

التي تفتح أمامنـــا عوالم ســـحرية وراء الآفـــاق تتماوج فيها الخيالات.

أجل!.. ففي معظم ساعات الأذان وأوقات العبادة نحس كأن ألوان العالم الآخر، وأنفاس الملائكة -التي تسمو بأرواحنا وتطير بها- تملأ جوانحنا، فينقلب الوجود آنذاك إلى حال تنتشي فيها الأرواح، وينقلب الزمن إلى زمن سحري يحمل لنا جمالا غامضا مليئا بالأسرار. ولم أر مثل بلدي موضعا آخر فيه كل هذا الجمال والسحر الذي يبعث حزنا أخرويا رقيقا في قلوبنا، ولا أعتقد أنني سأجد. ويأخذ هذا الجمال مداه في الأيام الملتحفة بالأسرار التي تنـــزل فيها السماء إلى الأرض، وتنهمر فيها الأضواء من المعابد، ويبلغ الجمال حالا فوق الخيال حيث نعيش سحر الأرض والسماء.

في مثل تلك الأيام الساحرة تنمحي البيوت المبعثرة حول المعابد، وتنمحي الأزقة والمحلات، ولا يبقى هناك سوى المآذن وسوى الكتابات الضوئية -التي تشكل كرنفالا من الأضواء- المعلقة بين هذه المآذن المهيبة التي تبدو وكأن رؤوسها قد بلغت النجوم. وتنهمر من هذه المآذن أصوات لاهوتية عدة مرات في اليوم، وتحيط بكل الأجواء وتنساب فيها، وتدق أبواب الصدور ومنافذها، وتحتضن الجميع وكل شيء، وتتجول به في الآفاق المجهولة والنيرة لأعماق السماوات، بحيث يحس الجميع أنه محاط بأنوار من عالم آخر، ويتعرف كل آن بإقليم آخر للمعرفة الإلهية، ويصل كل آن إلى عتبة أذواق لدنية أخرى. ولو كان على وعي بهذه السياحة الفكرية لعاش في كل آنٍ في جو آخر من أجواء العرفان وبجو آخر من الشعور لم يألفه من قبل.

إن الصوت الحقيقي والموسيقى الحقيقية لهذا البلد التي لا تصمت في أي ساعة من اليوم، والتي تعبر عن نفسها في كل وقت بأبعاد مختلفة، تأتي من هذه المعابد ومن أنوار العبادات التي تسحر دوما روح الإنسان، وتلهمه العشق والوجد، وتزيد من وجد القلوب ونبضها.

تهمس المعابد أحياناً في أعماقنا همسات معان عميقة وخفية تشرح بها

صدورنا، وتشبع حاجات أرواحنا وخيالاتنا، وتقدم للكل حسب عالم فكره ودنياه ما يغني نفسه ويجلب انتباهه.

أحياناً نستمع إلى المعابد بلذة ووجد عميقين كأنها في جوها النوراني تحثنا على رحلة أبدية، فيلفنا قلق من يهمّ برحلة غامضة في طريق سرّي لا نعرف عنه شيئا، فتتصاعد انفعالاتنا وتزداد، وقد نضطرب ويتم فقدُ بعض الترتيب والنظام عندنا، ويظهر بعض الفوضى هنا وهناك. وأحياناً يزداد الجد فنحس بالامتلاء عقب دعاء حار، أو تصفرّ منا الوجوه بخشية دعاء آخر... أحياناً نحس وكأننا نطوي المسافات في الأرض وكأننا في سجال معها، وأحياناً كأننا نذرع السماء ونصل إلى أحوال خارج الزمان وخارج المسافات. ولكن تفكيرنا في جميع هذه الحالات يتركز عليه تعالى في يقظتنا ومنامنا... ندعوه على الدوام ونبحث عن طرق الوصول إليه والاقتراب منه.

يُصدر المعبد على الدوام أصواتا ونغمات مختلفة، ولا يلفه الصمت أبدا... ففي جوّه المضيء هناك على الدوام تمتمة أو همس ما، قد يكون علنيا أو سريا، ولكن لا يستطيع الجميع فهمه. أحياناً يكون هذا الهمس بصورة نغمات مئذنة أو قبة فخمة تلف أفقنا، وتطنّ في كل مكان، ويئنّ كل جانب بصداها المنعكس. وأحياناً تتصاعد من شرفات المآذن أو من منابر المساجد، وتتماوج بلطف في الهواء، وتصل إلى المكان المراد الوصول إليه. وكما ينهمر المطر بعد الوصول إلى درجة معينة من الرطوبة وينـــزل إلى الأرض، كذلك تتحول هذه الهمسات والنغمات وتتضاعف وتنهمر على رؤوسنا كقطرات من الرحمة الإلهية.

أحياناً يلف الغموض والخفاء هذه الأصوات، وتطعم أرواحنا برقة عميقة إلى درجة يخيل إلى الإنسان أنه يســـتمع بهذه الأصوات إلى دار العقبى، ويتحاور ويتسامر مع ما وراء الآفـــاق. وبين فينة وأخرى قد يشعر بالرجفة تســـري في أوصاله، أو يحس برغبة في إطلاق صيحة فـــرح ونشـــوة.

نمر في اليوم الواحد بجوار المعبد عدة مرات، ونتملى منظره، ونتمعن فيه، ونملأ أعيننا منه، ويبدو لنا منظره العام كإنسان رفع يديه إلى السماء بضراعة. أما أروقته فكأنها عباد وصلوا إلى السكينة ووضعوا رؤوسهم على الأرض بخشوع. نافورات الوضوء فيه كأنها رجال يحاسبون أنفسهم ويبكون على الدوام. وطيوره كأنها تئن وعلى أهبة الاستعداد للطيران والهجرة والرحلة إلى بعيد. هذه معانٍ عميقة ذات محتويات مهمة بالنسبة إلينا، بحيث لا نستطيع سماع هذا من أكبر فيلسوف أو أي حكيم يبحث عن حقيقة الأشياء وراء الأستار.

لكي تتم معرفة كيف تنساب هذه المعاني وهذا الجمال الموجود في المعبد وتملأ العيون والأفئدة وتشبعها، وكيف تنفذ إلى أرواحنا مثل موسيقى حالمة، فمن الضروري وصول القلب إلى ساحل الإيمان، والتعود على لغة المعبد الخاصة وفهمها والتعود عليها. عند ذلك يمتزج معنى هذا البناء المبارك إلى قلب الإنسان، ويؤثر فيه إلى درجة بحيث تكون أرواحنا لسان حال جوّه وإقليمه، فتردد وتغمغم بالشيء نفسه من عالم المعاني، وصرح صور الجمال في أي حلقة من حلقات السلسلة الذهبية المرتبطة بها.

المعابد أماكن مباركة ومملوءة بأحاسيس ومعانٍ أكثر من معاني أفضل لوحات عباقرة الرسم. وإذا استطاع الإنسان مشاهدتها وهي مرتبطة مع المعاني التي تحملها يخيل إليه أنه يتجول ويتنـــزه في ردهات سحرية لعالم كعالم الأحلام، ويخطو إلى الأمام وكأنه سيصل إلى الوصال الأبدي بعد خطوات، ثم يكون قيامه وقعوده في ظل الشوق إلى ليلة الوصال ويومه الحبيب.

لقد أصبح المعبد بكل جوانبه بالنسبة لأرواحنا شيئا مؤنسا ومألوفا، وعامرا بالأحاسيس الجياشة والمشاعر الرقيقة. ففي حريمه نســـمع كل مرة شيئا مختلفا، ونحس أحاسيس مختلفة، ونحاول بعبادتنا وأذكارنا التعبير عن هذه الأحاسيس.

في جو المعبد الفوّاح بعطر الحياة الروحية تلتمع أضواء أعماق عوالم كافة السماوات وما وراءها من عوالم الضياء. فهناك مهرجان من أنوار عالم العقبى تبرق على الدوام من شرفاتها وكأنها نـــزلت من السماء إلى الأرض، ومن شرفاتها هذه تنعكس على القناديل حواليها، وعلى زينة الكتابات بين المآذن، وتنعكس على ثريات الجامع ثم تسيل إلى قلوبنا. وكلما سالت تعمقت أحاسيسنا واغتنت. ولا تنفكّ الأنوار من الهطول على هذه القلوب المهتدية إلى الحق والتي تملك أحلاما وآمالا وأماني بعدد نجوم السماء.

في هذا العالم الذي صيغت جميع محتوياته ومعانيه من الإيمان ومن الفكر ومن العواطف والأحاسيس والشعر، يحس الإنسان من الصمت العميق في أوقات مراجعة النفس ومراقبتها أصواتا شبيهة بأصوات الجنة... ومن الأضواء التي تلتمع فوق العيون وتنعكس على المشاعر، ومن المعاني الدافئة التي تحيط بالأرواح وتحتضنها، لذة خيالية في ليله ونهاره، وفي صيفه وشتائه.

وحتى في الأوقات التي ينغمس فيها البلد في ظلام دامس نجد أن المعبد يستمر-بأسلوبه الخاص وبلهجته الخفية والسرية وببعده اللاهوتي- بتلاوة شعره الخاص. وبينما يغط كل شيء ويغط الجميع في السبات وفي النوم، وبينما يتصارع الظلام مع الظلام في هذه العهود، يقوم المعبد وهو يلتحف بمزايا العهد الراشد وخصائصه، بأداء وظيفته في إبلاغ معانيه بأبلغ لسان وبأوسع المشاعر.

وهو بعد كل هذا يستمر في كل حال من أحواله... بِصَمْته أو كلامه... بظلاله أو نوره... بمعناه ومادته... في سكب إلهامه -بصمت وهدوء- في صدورنا. ونحن نعتقد أن هذا الروح وهذا الشعر وهذا المعنى الممتزج في جميع القلوب المخلصةسيتجدد على الدوام حتى أفول أعمارنا وغروبها بكل الألوان والأنوار الخاصة به.

# أوان الرجوع إلى النفس

بينما كنا نسير نحو مستقبل مفعم بالنـــور بقلوب ملؤها الأمل إذا بنا نسمع أصواتا كريهة ترتفع من اليسار ومن اليمين تدعو إلى عهد مظلم من جديد. سمعنا هذه الأصوات النشـــاز فقلقنا، "أبدأنا نرجع إلى أيام التناحر والشقاق؟" كم كنا معجبين بهم عندما كنا نسمع منهم هذه الكلمات: "احترام الإنسان وتوقيره، وإبـــداء الحب للكل ولكل شيء، والتعامل بكل مرونة وتساهل مـــع العالم كله" كم كانت هـــذه الكلمات ســـاحرة ومعسولة... كم أحببنا كلماهم هـــذه وكم ضممنا التقدير لها في جوانحنا! أحببناهم وأعجبنا بهم... أعجبنا بكلماهم ونحن نمشي في طريقنـــا نحو المستقبل بكل ثقة وأمن واطمئنان دون أن يخطر ببالنا ظهور أي مصاعب أو أمور سلبية أمامنا، وإذا بنا نفاجأ بهم وقد انتصبوا أمامنا بكل ما في جعبتهم من حقد ونفور وغضب، وبدأوا -وهم يهاجمون جميع الأطراف- بسد الأفق بأفكارهم السوداء الكالحة، وبنسف كل الجسور وتعطيل كل الطرق. قاموا بكل هذا وهم يتظاهرون بأهم رسل السلام والنور، وبدأوا بالعاب قذرة تحت هذا الغطاء. وفي أحيان أخرى كشفوا عن وجوههم الكالحة السوداء سواد القطران، وبدأوا يهاجمون الأفكار النيرة، ويشنون عليها حربا شعواء علانية وصراحة. ولم يتوانوا في هذه الحرب عن الافتراء على جميع الأفكار والحركات والفعاليات الإيجابية. والحقيقة أن هؤلاء لم يكونوا بيادق بيد قوى الظلام فقط، بل كانوا أيضا هم الظلام بعينه. وحتى عندما حاولوا

أن يظهروا وكأنهم مع النور ومع الضياء ومن أنصارهما، إلا أنهما كانا في الحالين يمشون وراء الشيطان ويوقدون نار الفتنة.

أجل!.. لقد ترك البعض منا منذ مدة طويلة كل شيء، وتوجه نحو تخريب عاطفة الأخوة والصداقة الموجودة بيننا. لقد دارت رؤوسنا إلى درجة أننا لم ننتبه إلى أننا كنا نهلك أنفسنا بأيدينا. والأنكى من هذا أننا كنا نربط جميع مشاعرنا وأفكارنا وسلوكنا بأحاسيس العداوة والبغضاء. وبدأنا نقوم ونقعد بهذه المشاعر ونتنفس مشاعر الخصام، بينما كنا في حاجة ماسة إلى الأخوة والصداقة. كنا بحاجة إليهما ولكننا لم نكن نستطيع تحقيقهما. ليتنا استطعنا ذلك، ولكن هيهات. ولو كان بإمكاننا تحقيق مثل هذه الأخوة والصداقة بين أفراد هذه الأمة لاستطعنا تجاوز هذه المشاكل والعقبات الكبيرة والضخمة ضخامة الجبال بحملة واحدة، ولأسمعنا صوتنا حتى إلى النجوم في السماء. ولكن لم نستطع، أو بالأحرى لم يَدَعونا نحقق هذا، بل زرعوا الشقاق والنفاق بيننا، فأصبح بعضنا أعداء للبعض الآخر ومصدر همّ وغمّ، وبدأ بعضنا يضرب البعض الآخر، وتحول كل منا إلى شخص يعاني من مأساة هذا العصر. واليوم أصبح البعض منا ضد الجميع وضد كل فكر. فهو ضد كل من لا يفكر مثله، ولا ينفكّ عن معارضته وتشويه سمعته. ولا نفكر أبدا بأننا إن سرنا في مثل هذا الدرب فسنبقى وحيدين وسنكون أسارى نواقصنا، ونحوّل مستقبلنا المملوء أملا إلى كابوس وإلى جحيم. بينما نملك العديد من أسباب القوة تشكل أساسا لآمالنا وعزائمنا. إذن فبعضنا قد غُلبت عقولهم وقابلياتُ التفكر والحكم لديهم من قبل أحاسيسهم وأهوائهم. لذا نراهم يعيشون حالة من التناقض في المشاعر، ويتعثرون على الدوام، ويعيشون أزمة في أفكارهم الرئيسية. فلا يمكن أن يشكل هؤلاء أمة واحدة على الرغم من كونهم أبناء بلد واحد، لأنهم وضعوا أنفسهم في مواضع معينة بحيث يهدم أحدهم الآخر... لا يشكلون أمة واحدة بل يعيشون أسرى في شباك الاختلاف والتساقط، ويموتون وهم أسرى.

ولا أدري، ألم يَحِنْ بعد أوان محاسبة أنفسنا كأمة؟ لأنه إن استمر عدم الإحساس هذا مدة طويلة فإنني أخشى -لا سمح الله- أن ننهدم في المدى القريب ونبقى تحت أنقاض أنفسنا. والحقيقة، يجب ألا نغض الطرف أبداً عن مثل هذا الاحتمال، بـــل أن نخشاه وأن نعتصم جميعا بحبل الوحدة والتضامن بقوة. إن أبرز خصائصنا كأمة، وأكثرها استحقاقا للتسجيل هي أن كل فرد من أفرادنا يحمل احتراما كبيرا للآخر. وإن أفضل منابع قوتنا هو تساندنا في مستوى القلب والشعور. وكلتا الخاصتين تستندان إلى أننا نقبل الآخرين كما هم ونحترم أفكارهم. وفي هذا الوقت نرسل رسائل الصداقة، ونعدّ برامج العيش مع كل أمم الأرض، فلماذا إذن نضنّ على أنفسنا وعلى أمتنا بعُشر ما نبديه من استعدادنا لفتح الصداقة مع جميع الأمم في العالم؟

ومع أننـــا نرحب بالصداقة مـــع الجميع إلا أننـــا نتساءل: ألا يجب علينا أن نمحو أولا مشاعر العداء والحقد الموجودة فيما بيننا؟ إن وجـــود مشاعر الحقد والكره والعداء عند أي شخص، ســـواء أكان هذا متدينا أو رجل علم أو رجل إدارة أو رجل فكر أو زعيم، يعد نقيصة كبيرة وعيبا. وهم بهذا يمثلون ناحية سلبية في نظر الحق تعالى وفي نظر الخلق، وفي نظر هذا الجيل الناشئ.

إن توقير الإنسان واحترامه من موجبات الإنسانية ومن ضروراتها، وحب الإنســـان من شـــروط القرب من الله تعالى ومن الخلق. والذين يستهينون بالناس بتصرفاتهم أو بأقوالهم يُفشون في الحقيقة مســـتواهم الخُلُقي. كما يفشي الذين يحقدون على الإنسان ويكرهونه ويعادونه نوعية ضميرهم ووجدانهم. بينما نرى أن أصحاب الخُلُق الرفيع هـــم من المتواضعين على الدوام، يهبّون كنسيم رقيـــق في كل مكان، ويســـتروح بهم الناس. وهم يَعدّون احترام الإنسان ومحبته من أفضل الأشياء وأثمنها. ويرون أن حب الإنسان للآخرين، وكونه محبوبا من قبلهم، أفضل وأثمن من ملك الدنيا.

وأمثال هؤلاء ينذرون حياتهم من أجل حياة الآخرين ومن أجل سعادتهم بكل همة وعزم.

ومن السنن الإلهية أن أمثال هؤلاء الذين يحسنون الظن بالجميع ويحملون نوايا طيبة تجاههم، يحصلون على أضعاف مضاعفة لنواياهم وأفكارهم هذه. ومع أنهم لا يبغون هذا ولا يعنون أن يحصلوا على مقابل لعملهم إلا أنهم يحصلون على عشرة أضعاف ما يقدمونه مستفيدين من مزايا إنسانيتهم. أما الذين تركوا أنفسهم للحقد وللعداء، فإنهم يدمرون قيمهم الإنسانية، ويزيلون موقعهم في قلوب الناس. إن صرف الإنسان عمره في غمار المشاعر السلبية والسيئة عذاب لا يطاق من جهة، ودناءة من جهة أخرى. بينما رؤية الجانب الإيجابي في كل شخص واحتضان الجميع بطولة من جهة، وسمو من جهة أخرى... بطولة في التحكم بمشاعر الحقد والنفور والطمع. وهؤلاء الأبطال هم الذين يسيطرون على أهوائهم فيتخلصون من ذل العبودية للشيطان والعمل تحت إمرته. وفي لحظة واحدة يصبحون عبادا لله أعزاء الجوانب وأسيادا في عالمهم الداخلي.

لقد أصبحنا -كمجتمع- منذ زمن طويل أسرى رغباتنا وعبيدا لأهوائنا، وبدأ معظمنا يتصرف بوحي من الشيطان في قيامه وقعوده، ننزعج من الجميع، وننزعج الجميع. وبهذا الأسلوب من التصرف نبتعد بسرعة -سواء أشعرنا بذلك أم لا- عن قيمنا الإنسانية ونعيش أزمات في أعماقنا. أجل!.. لقد استقرت المشاعر السيئة في قلوب معظمنا، مع أن هذه القلوب عشّ وخيمة للحب. فلم نعد نستطيع الآن حب الآخرين ولا احتضانهم ولا إبداء التسامح والمرونة تجاههم. وأصبحنا نلتذ بالتحطيم والتدمير والتخريب، وكالبوم نقيم أعشاشنا فوق الخرائب، ونهجم على الجميع، ونسرع للتخريب برغبة وشهوة كبيرة، ونتورط بذلك في آثام لا تغتفر نحو الله تعالى ونحو بلدنا ونحو الناس. وأحياناً نقترف هذه السيئات ونحن نحسب أننا نقدم

خدمة نتوقع الشكر والحمد والثناء من الآخرين عليها. والشمس بدأت تطلع كل يوم على ظلم أو على اعتداء وتجاوز أوهذيان، وتمر الليالي حالكات الظلام، وأصبحت حالنا حال مجتمع عقد العزم على اقتراف الآثام. المشاعر الإنسانية بقيت خلف الأهـــواء النفسية بمسافة كبيرة، وتقدمت مقاييسنا الشخصية والمزاجية على المنطق وعلى الموضوعية. أما مشاعر المحبة والتسامح فقد ذبحت تحت خناجر العداوة. أما أعداد الأشخاص الذين أصدرنا بحقهم أحكاما جائرة بأفكار مسبقة فلا يعدون ولا يحصون. وليس من المعلوم ما سنفعله، ومتى سنفعله، ولمن نوجه شتائمنا، ومن سنقوم بإغراقه بالإهانات. فنحن نعيش في دائرة من الجنون وفي مجتمع شيزوفيرينيا، فلا نشبع من الظلم، ولا نخجل من الاعتداء ولا نكف عن اقتراف الآثام...

إثمُ عدمِ احترام الحق، وإثم شعور الكره نحو الناس والنفور منهم، وإثم الاستخفاف بالأفكار، وإثم بذر بذور الفرقة والخلاف في المجتمع، وإثم النظر إلى كل شيء بمنظار أسود، وإثم عدّ الآخرين مجرمين وأنفسنا بريئين، واعتبار الآخرين من أهل النار أو من الرجعيين، وإثم القيام بعرقلة كل خطوة إيجابية، وإثم تخريب القيم الإنسانية... الخ من الآثام. وأنا أعتقد أنه آن الأوان للتوبة من كل هذه الآثام.

إذن تعالوا نتب من كل آثامنا مستغلّين بركة هذه الأيام التي أحاطت بنا، فنبدأ بعيش فترة تطهّر، ونعزم على احترام الآخرين، والحفاظ على جميع القيم الإنسانية، واحترام أفكار الآخرين، وقبولهم على ما هم عليه، وأن ندع النـــزاعات التي حدثت في الماضي ولا نثيرها من جديد، ولا نجعلها وسيلة لنـــزاع جديد أو خصام، وأن ندع تقسيم المجتمع إلى معسكرات مختلفة، بل لنؤكد على الوحدة والتساند على الدوام. فإن كانت قلوبنا لا تزال تنبض ببعض القيم الإنسانية، وإن كانت عضلاتنا لا تـــزال قوية إذن فليحتضن بعضنا البعض الآخر، ولنبحث عن طُرق جمْع ما ســـبق وأن بعثرناه من

أشلائنا هنا وهناك، وكيف نوحد هذه الأجزاء بقوة بحيث لا تنفصل ولا تتجزأ مرة أخرى، ودعونـــا نستنطق لغة القلوب التي تقربنا إلى الناس، وتوصلنا إلى الله، تاركين مشاعر الحقد والعداء التي تقطع علينا الطريق كل حين.

إذا كان المطلوب هو تحويل هذا البلد إلى جنة وارفة الظلال -وأعتقد أنه لا توجد شبهة في هذا الأمر- فلا ينجح في هذا ولا يستطيعه إلا من أقام هذه الجنة في قلبه أولا. فمن لم يستطع تخليص قلبه وعالمه الروحي من قبضة المشاعر والأهواء التي تقلل من مستوى الإنسان، وتخفض من قيمته، فهو أعجز من أن يقدر على هذا، بل لو قُدِّر له -على فرض المستحيل- أن يمر من جنات الفردوس لكان من المحتمل أن يفسدها ويشوهها ويقلبها إلى سجون.

دعونا نضع يداً بيد مرة أخرى ونتكلم بقلوبنا ونُسمع النجومَ ما يدور في صدورنا ولا سيما في هذه الأيام التي تتزين فيها الآفاق بالرحمة الإلهية، وتحتضن الأنوار الآتية من وراء الآفاق قلوبنا... نتوحد في هذه الأيام المباركة التي تتردد فيها أنفاس جبريل عليه السلام، وتلتقي فيها الأدواء مع العلل والأمراض.

# الصبر

الصبر أساس مهم من أسس السمو إلى الفضيلة، وهو انتصار للإرادة. وعند غيابه لا يمكن توقع تهذيب الروح، ولا العلو للوصول إلى أسرار الذات. بالصبر يتخلص المرء من الارتباط بالتراب وباللحم وبالعظم، ويكون من السعداء المرشحين للوصول إلى عوالم عليا. فإن كان الصبر ممرا ضيقا، وقمة عالية صعبة الاجتياز إلى سلطنة عوالم ما وراء الأفق، فإن جندي الحق الذي عشق تلك العوالم وتوله بها حبا ووجدا هو البطل الذي يتحدى هذه الممرات الصعبة وتلك القمم العالية، ويراها سهولا منبسطة سهلة الاجتياز.

الصبر هو شعور المرء بالتناغم الموجود في ثنايا الفطرة وفهمه وتقليده. أجل!.. إنه جهد لفهم لغة الأشياء والحوادث، ودخول في حوار معها. وما أجلّ الذين يبدون صبرا وثباتا في سبيل إدراك هذه اللغة ومعرفتها، ثم يقومون بتأسيس جسر بين تصرفاتهم وسلوكهم وبين الحوادث المتدفقة عبر سيل الزمن للتوحد مع الطبيعة! وما أسمى هذه الموسيقى الإلهية التي يترنم بها الكون! وما أسمى الإحساس بهذا التناغم ورؤيته، وما أسطع هذه الرؤية!

الصبر هو فهم لفعل الزمن وصروفه وتأثيره في الأشياء، وإدراك أن الزمن يأخذ الحوادث ويلوكها بين أسنانه الحادة ويفتتها ويطحنها، ويقلبها من حال إلى حال، ومن شكل إلى شكل. والذين يعرفون كيف يكونون فولاذا في أحيان وجليدا في أحيان أخرى حيال هذه الإذابة الصامتة للزمن، يستطيعون الوصول إلى بعد آخر في خط جريان الزمن فيتخلصون من العدم. ومن لم يستطع إدراك هذا عصرته يد الزمن.

أجل!.. إن الفطرة تقوم بكسر أرجل الذين لا يعرفونها ولا ينظمون سيرهم حسب قواعدها، وتسحق أرواحهم. بينما تكون لينة كالشمع في أيدي الذين يعرفونها، ويتناغمون مع روحها في سلوكهم وحركاتهم وسكناتهم، ويكسبونها لحنا داوديا.

آه من هؤلاء الأطفال الأشقياء الذين لا يدركون هذا السر... المتعجلين أبدا، الذين لا يدنون من الصبر ولا يتحملونه.

أجل!.. كم من شخص لا يعرف نفسه ولا يفهم الفطرة من الذين قضوا سنوات عديدة وهم يجرون لاهثين، ولكنهم لم يستطيعوا التقدم شبرا واحدا. وكم من أشخاص على الرغم من أنهم يبدون ساكنين هادئين كنهر عميق هادئ، إلا أنهم ساروا خطوة خطوة دون توقف، وتغلبوا على جميع موانع وأستار الظلام، واجتازوا جميع العقبات بطريقة غير متوقعة... بهدوء ودون ضجة أو جلبة... دون مظاهر أو فخفخة... مثل المرجان الذي صادف كل أنواع الآلام في قاع البحر، وغرق في الدم حتى وصل إلى أفق الزبرجد.

تخترق البذرة التربة والصخر بصمت وبثبات حتى تصل نبتتها إلى سطح الأرض، ويعرض البرعم نفسه للشمس مرات ومرات، ثم يواجه هذا البرعم وطأة ظلام الليل مرات ومرات حتى يصل إلى ماهيته ويتفتح. وما بالك بالوليد؟ إنه يبدأ بنطفة صغيرة في رحم الأم تنتقل من ظلام إلى ظلام. إن مسيرتها طويلة وتستدعي التأني والتمهل والصبر. أجل!.. إنها تنتقل وتتقلب من شكل إلى شكل، ومن قالب إلى قالب. وبعد تسعة أشهر يخرج الطفل إلى الدنيا بهيئته التامة الخلق.

ثم لننظر إلى خلق هذا الكون العظيم. لقد خلقه الخالق القادر بكلمة "كن"، ثم تقلب المكان والأشياء في يد قدرته مليارات السنوات من طور إلى طور، ومن شكل إلى شكل حتى وصل إلى وضعه الحالي. فما أكثر معاني هذا، وما أكثر عبر هذا الدرس!

إن كل موجود في هذا العالم... كل موجود... ليس إلا انتظارا متسما بالصبر والمقاومة للوصول إلى هدفه خطوة خطوة... دون أي تعجل... ودون أي تغيير في الاتجاه... اتباعا وامتثالا لقوانين الفطرة.

آه من هذا الإنسان المتعجل أبداً!.. أنت الوحيد الذي يبدي نفاد صبر... أنت الوحيد الذي لا يراعي الترتيب الموجود بين الأشياء!.. أنت الوحيد الذي لا يصبر على المسافات عند الصعود، فتحاول صعود عدة درجات في آن واحد وبقفزة واحدة!.. أنت يا من تنتظر النتائج دون أن تراعي الأسباب!.. أنت يا من تضع خيالات وتبني منها قصورا من زجاج وتغرق فيها!.. ثم ينتهي أمرك وتضيع بين ركام الأماني الكاذبة!.. أنت يا من تتحدث دون أن تفكر، ثم لا تأخذ عبرة من الندم الذي يعقبه، ولا تعقل!.. آه لو علمت!.. لو علمت كم تكون بعيدا عن القلب وعن الحب بحالك هذا، وكم تكون قريبا من الشؤم!.. ليتك تأخذ درسا مما يحيط بك من الحوادث التي كل حادثة منها خطيب بليغ، وكل واحدة منها لسان، لتتعلم منها كيف تراعي حق الترتيب والتسلسل الموجود بين الأشياء، وكيف تراعي الأسباب والنتائج!.. وليتك عرفت كيف تلجأ إلى الإيمان والعزم والإرادة وتعيش بها وليس إلى الخيال والتمني!

أنت موجود بقدر صبرك، ومنزلتك عند الحق تعالى هي بقدر صبرك... بقدر الصبر الذي تمارسه في أثناء حياتك باستمرار ودون أي انقطاع... الصبر الذي يقول كتابك الكريم عنه إنه الصبر على الاستمرار في ممارسة أجمل الصفات وأفضل العادات دون هوادة ودون أي توقف... وبقدر ثباتك وقدرة تحملك تجاه القبح وتجاه ما تكره... وأخيرا بمقدار صبرك تجاه النوازل التي تصيبك دون سابق إنذار، أي بقدر ارتباطك بالحقيقة التي يرسمها الشاعر:

إن جاء الجفاء منك...

أو جاء الوفاء...

حبيب إلى النفس...

اللطف منك أو البلاء..

التوجه على الدوام نحو كل ما يعلي المرء، والحذر من كل ما يسفل بالمرء ومقاومته، وأخيرا تحمل كل البلايا والمصائب -التي تنـــزل في وقت غير متوقع وبشكل غير متوقع وتهزك- دون أي يأس أو إحباط... هذا هو الصبر الذي هو أمرّ من العلقم، ولكنه في نهاية المطاف شراب زلال.

الصبر هو الثبات في الموقع، وعدم تركه مهما بلغت الخسائر... هو الثبات في الموقع حتى ولو كنت تذوب مثل شمعة مشتعلة.

أين أنت أيها العزم؟! أين أنت أيتها الإرادة؟! أين أنت أيتها الشهامة؟! أين أنت أيتها البسالة؟! لقد دارت رؤوسنا وداخت من كثرة تغيير الطرق وتبديل الاتجاه... لقد انتهى أمرنا من كثرة تبديل المعشوقين والأخلاء... وأصبحنا دون قبلة من كثرة تبديل المحاريب!

يقول أحد عشاق الحق والحقيقة: "لقد أرشدتني قطة"... قطة كانت تنتظر صيدها أمام جحر طوال الليل حتى الصباح دون أن تطرف لها عين... فما بالك أنت أيها الإنسان!.. قل لي كم انتظرت في محرابك الأبدي دون تحويل نظرك وبصرك، ودون تغيير طورك؟ أجل!.. كم مرة استطعت لم شملك دون غضب أو مرارة بعد تشتت ما نظمته، وتفرق ما جمعته، وداومت "من جديد" على طريقك مرة بعد أخرى؟ وكم من مرة رجعت بعد أن طردت من ديارك، ونفيت من وطنك، واغتربت في أرض الله فعدت ووضعت جبينك على عتبة حبيبك؟ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ

الرَّسُــولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيب﴾(البقرة: ٢١٤). إنه قريب من الذين يستمرون على الخط نفسه في إظهار العبودية له، ويتحدّون الآثام ويناضلون ضدها، ولا يفقدون أملهم مهما اكفهرت بهم الأجواء، وثارت حولهم الأنواء. أجل!.. إنه قريب ممن يصفه الشاعر:

من دخل طريق العشق هذا...

لا يهاب الموت...

لقد سلكنا طريق العشق،

فلا يهمنا شيء سواه...

# إحساس آخر بالزمن

لكي نستطيع الإحساس بالشريط الزمني السعيد الذي نعيش فيه حق الإحساس يجب أن تكون الأرواح والضمائر مستعدة لسماع مثل هذه الموسيقى والشعر الآتي من وراء آفاق السماوات. أما الأرواح الفجة من حيث عوالمها الداخلية وبيئاتها الخارجية وأنماط سلوكها الحياتية... أصحاب مثل هذه الأرواح يحسبون أن الزمن عبارة عن تغير الأهلّة لا غير في صفحة السماء.

لقد تلوث الجو العام في أيامنا الحالية بأصوات محطات الإذاعة والتلفيزيون والطائرات والسيارات والبواخر والتراموايات، وبضوضاء الصفارات وجلبة الدعايات والإعلانات، إلى درجة أننا أصبحنا بحاجة إلى عملية جراحية روحية وفكرية. وما لم تتم مثل هذه العملية الجراحية، وما لم يتم التوجه الكامل للآخرة لا يمكن فهم وإدراك سماوية هذه الأشهر المباركة، ويصعب جدا، بل ربما يستحيل سماع الموسيقى الحالمة الآتية من وراء السماوات.

الأرواح النــزيهة المتطهرة من الأرجاس المعنوية، المستعدة للتحليق في السـماء، تتسامى أكثر في بعض الليالي في هذا الزمن المبارك، وتشعر بلذة أكثر، وتشم هذه الأيام مثلما تشم وردة عطرة، وتستمع إليها وكانها تستمع إلى موسيقى عذبة، وتنهل منها وكأنها نبـع كوثر. ويستطيع أكثرنا، بقليل من الانتباه مشاهدة بزوغ هـذه الشهور المباركة على أفقنا في إطار من السحر والجمال وكأننا نلج إلى غابة من غابات السـماء أو خليج أو ركن من عالم الآخرة، ويخيل إلينا أننا نسـافر في عوالم أخرى، فتثور عندنا

العواطف والمشاعر، وتفور حتى نكاد نمزق قالبنا البشري، وتكاد حدودنا البشرية لا تسعنا.

والحقيقة أن هذه الحال كانت هي حالنا الطبيعية في زمن من الأزمان. لقد أصبحنا الآن غرباء عن الأشواق الأخروية ولذائذها اللدنية التي كنا ننهل منها نهلا في السابق في كل موسم من مواسم السنة تقريبا. لقد أصبح معظمنا في جوع وظمأ كبيرين من ناحية هذه المشاعر. ولكي نستطيع الاقتراب من تلك المشاعر العميقة السابقة يجب الانسلاخ عن المشاعر اليومية المعتادة، وأن تتطهر أفكارنا مما ألم بها من تلوث، وأن تتعمق آمالنا وتوقعاتنا المستقبلية. فإن نجحنا في تحقيق هذا الأمر استطعنا سماع وشعور العديد من الحقائق الدقيقة السحرية المخبوءة في ثنايا الوجود كل حين، والتي ترقق قلوبنا وتصقلها، وتعيننا على تخطي وتجاوز حدودنا وقابلياتنا، ولا سيما في الأيام المباركة التي تأخذ بيدنا إلى آفاق عالية.

أجل!.. إن الذين يستطيعون الاستماع إلى الوجود من خلال منافذ قلوبهم، تنقلب الأيام والليالي المباركة لديهم إلى شاعر يتكلم بلغة ما وراء هذا العالم، وإلى ملحّن لألحان موسيقى من عالم آخر، فيهمسان في قلوبنا أعذب الكلمات والألحان. وتقوم هذه النسائم التي تهب علينا بإزاحة الصور الأخرى المادية التي تحيط بكياننا المادي لتوصلنا من خلال المنافذ والممرات الخاصة التي تفتحها في أعماق قلوبنا والمطلة على دار العقبى... لتوصلنا إلى السفوح المجهولة للعالم وللطرف الآخر لنغرق في لجة من الوجد. في مثل هذه الأوقات يكون الصباح كأنه سعادة الخطوة الأولى في دخول الجنة، والظهر كأنه أوان التخلص من تعب النهار، ولحظة الفرحة لرؤية الحبيب والتملي بحسنه. ويكون المغرب أوان سعادة المشي لوصال الحبيب عند إقبال الظلام. أما الليل فهو أوان

لأنواع لا يستوعبها العقل والإدراك من ألوان جمال الخلوة. وكل وقت من هذه الأوقات يمر بطعم وبلذة مختلفة ثم يذهب ويغيب.

أما المناسبات المباركة كليلة المعراج، أو ليلة المولد، فهي من الليالي التي تُعَدّ تيجانا على هام الزمن، وذروة الأيام القريبة من الله، أو هي الشواطئ والموانئ المفتوحة نحوه، ومنصات الانطلاق إليه. ففي هذه الأيام والليالي المباركة تبرق القلوب بشفافية غير عادية، وتتوجه الأرواح نحو اللانهاية وتطير إليها بشوق آخر، ويشارك كل شيء في الشعر الأزلي لما وراء هذه الآفاق، ويغطي سحر جو العالم الآخر كل جانب، ويغطي كلَّ صدر إيقاعُ ونغمة ضراعة وتوسل لا يستطيع أي لسان التعبير عنه. ويتحول المكان نتيجة بعض التجليات الخاصة إلى أبواب ومنافذ ونوافذ عالم وراء هذا العالم، ويقوم الزمان الذي يتبلور بتحول الآمال والتطلعات إلى ضراعات وتوسلات، ويبدو القرآن وكأنه نزل حديثا، فكل سورة وكل مقطع، وكل آية، وكل جملة منه تهدر كشلال تدعو كل أناس إلى حياة جديدة، وتسقي قلوبنا الظامئة إكسير وماء الحياة، وتسير بها في سفوح جبال خضر من جبال الجنة لا ترى إلا في الأحلام، وتهدي لأرواحنا منافع وايجابيات الإيمان. وتظهر معاني تعجز الألسنة عن التلفظ بها أو التعبير عنها.

إلى درجة أن مثل هذه السعة والغنى في الأرواح يطبع بطابعه كل شيء نراه ونحس به، ويطبعنا بطابع الآخرة، فنجد أنفسنا وكأننا في حلقة ذكر مهيبة من أصحاب دار الآخرة، أو كأننا نستمع إلى أناشيد من الحور والغلمان في ذلك الفضاء الواسع.

بل يحس بعضنا في بعض الفترات أن هذه الحال من انطباع روحه بهذا الطابع الغني للآخرة يسحبه من النطاق الضيق لأبعاد الزمان لتأخذ به إلى أبواب الجنة التي نتلهف إليها طوال حياتنا، وهنا يشعر وكأنه على شاطئ عالم سحري وسري لم يره أحد أو يسمع به من قبل، ولا يمكن التعبير عنه

بأي كلمات. وفي مثل هذه الحالة الروحية يقوم العالم الموجود وراء عالمنا – حتى وإن لم نفكر أو نتكلم– بتقديم نغمات دون أي كلمات قائلا: "أنا على الدوام في أعماقكم... اهتزاز في آذانكم، وضوء في عيونكم، وسعادة في صدوركم... أنا في أعماقكم وفي الشواطئ المفتوحة على مشاعركم، وفي منطلقاتكم للسمو والارتفاع... تستطيعون -إن أردتم- أن تمتلكوني". ونعتقد أن هذه الأضواء تنهال على قلوبنا من عالم الآخرة ضمن هذه المشاعر الفائرة والمتصاعدة إلى ما وراء هذه الآفاق، بل إلى ما وراء الوراء، ويموج هذا الجو المحيط بنا بالأحاسيس وبالضراعة والدعاء، وبالشموع وبالأضوية الزرقاء والوردية والصفراء الموجودة في الشوارع وفي قناديل الجوامع، وفي أضوية الزينات بين المآذن.[1] ثم هناك هذه المعابد التي نهرع إليها مرة في الأقل كل يوم. وهؤلاء الناس الأطهار الذين نتشارك معهم المشاعر نفسها.

أجل!.. فلكل هؤلاء تقريبا وجوده وروحه ومعناه ولذته الخاصة به وسحره، ونكاد نسمعها كلها، ونحس بها. وعندما ترجع أرواحنا إلى أنفسها بعد أن تمتلئ بهذه المعاني، تستغرق في تمعن وتأمل عوالمها الداخلية العميقة، وتبدأ بالنظر إلى ما حواليها نظرة مختلفة عن السابق.

أجل!.. هذه الأيام المباركة التي يتم فيها الإحساس بالوجود وبالإنسان وبما وراء هذا الوجود إحساسا أفضل وأكمل، تُشعِل في أذهاننا أقوى الأفكار، وتهدهد أجمل الأشعار في أرواحنا، وتفتح أجمل أبواب الإلهام وأكثرها سحراً في أفئدتنا، وتهيئ لنا إمكانية التعبير عن أخفى مشاعرنا.

أحياناً يفضل بعضنا التزام الصمت أمام المهابة التي تجلل هذه الأيام، ويرجع ليتحاسب مع نفسه ومع عالمه الداخلي. ومن يدري فقد يكون هذا

---

(١) اعتاد الأتراك على كتابة عبارات الترحيب عند حلول مناسبة دينية ولا سيما عند حلول شهر رمضان بأضوية كهربائية بين مآذن الجوامع. (المترجم)

الصمت أبلغ من كل كلام في مجال الثقة والاطمئنان والحب وفتح الحضن للجميع. وأحياناً يكون مثل هذا الصمت المهيب تعبيرا عن المراقبة الداخلية والحس والمعرفة، وأعمق من كل ما يمكن أن يقال من كلام. ولعلنا نحتاج أكثر ما نحتاجه إلى مثل هذا الصمت البليغ والطلق.

وباعتيادنا من قبلُ على تنفس أجواء مثل هذه الأيام المباركة من شريط الزمن فقد نفذت إلى أرواحنا وامتزجت بها إلى درجة أنها ما أن تبدو في الأفق حتى تسري الفرحة والحلاوة في قلوبنا وفي شفاه قلوبنا، وتسري إليها من ألحان المعاني أعذبها وأبلغها وأوسعها، ونرى أن الحبر يتقطر بأنفس الأفكار على صفحات الأوراق، وكأنها نقوش وزينات. وإلى جانب كياننا وأوضاعنا التي نعيشها حاليا، نهذي كحالم بالأيام التي تتفتح كالبراعم من آمالنا ومن إيماننا، ونحسب أننا قد بسطنا أجنحة آمالنا ورغباتنا لنطير نحو عوالم جديدة.

لقد سكن حب هذه الأشهر المباركة والليالي المتميزة فيها، التي ترقى إلى الذرى في قلوبنا المترعة بالإيمان، وأحببناها ونظرنا إليها على الدوام وكأنها أطياف ضوء باهر. وحتى مع مرور السنوات والأعوام –التي قد تتبدل فيها أفكار ومنطلقات الإنسان– فإن هذه الأيام والليالي المباركة لم تفقد بريقها في ذاكرتنا وقلوبنا، ولم تتغير مشاعرنا تجاهها، وبقيت مصدر إلهام لنا على الدوام.

# تأملات حول العيد

الأشهر المباركة التي تتقدم على رمضان وتبشرنا بإشـــراقه هي بمثابة مؤشرات وعلامات صامتة وهادئة على قدوم أيام مباركة وظهور بشائرها في الأفق... أيام مليئة بفيوضات تقبل كالسيل الهادر وتحتضن القلوب. ومع اليوم الأول من هذه الأشـــهر المباركة يحس صاحب كل قلب مؤمن أنه مغمور في جو رمضان. فتجده من اليوم الأول مستعرضا جميع مشاعره المتعلقة بعبوديته مدققا لها لكي يستفيد من بركة الشهر الكريم الذي أصبح منه قاب قوسين أو أدنى حق الاستفادة ويستثمره حق الاستثمار. فكأنه نهض من غفوة فأثَر النعاس لا يزال في عينيه، وكلمات من بقايا حلم على لسانه، فيستجمع جهده لتركيز انتباهه وتجميعه حول هذا الموضوع، وتصيّد النغمة القدسية المتآلفة مع هذا التوجه ومع هذا القصد.

عندما تمتلئ القلوب بالمشاعر، وتبلغ الأرواح قوامها، يولد شهر رمضان من رحم الهلال، ولكن بقوة ضياء البدر من خلف البشائر المتعاقبة لهذه الأيام. ويهبّ كألطف نسيم، ويحيط بقلوبنا ويلاطف أرواحنا وأجسادنا برقّة الحرير، ويملأ أعيننا بصور الجمال الشبيهة بجمال سفوح الربيع، ويثير في أفئدتنا رغبة التسامي، ويدع في صدورنا انتفاضة حلوة كانتفاضة عصفور بلّله القطر.

وأخيرا تنتهي هذه الضيافة التي تدوم شهرا، ويودعنا شهر رمضان الذي قدم بعطاياه الكثيرة... يودعنا ولكن الأرواح التي وصلت إلى حياة جديدة والتي اقتبست من نوره، والقلوب التي استغرقت خلاله في التأمل والتفكر،

والتي ارتجفت من خشـــية الله، والقلوب الهائمة التي خرجت تبحث عن مسالك وطرق الوصال؛ تحتضن بدفء أيام العيد هـــذه المرة. وكما يرى الإنسان المبحر بعد قليل أن المياه تحيط بـــه من كل الجوانب، نجد أنفسنا في العيد بعد انقضاء الأشـــهر الحرم الثلاثة في جو من الاطمئنان والسكينة... نحس هذا في أعماقنا، وبكل كياننا، وبكل ماهيتنا الإنسانية.

تبدو صلوات العيد وأصوات التهليل والتكبير وصدقات الفطر لأصحاب القلوب المؤمنة كمنافذ إلى عالم خيالي رائـــع، فينطلقون كقوارب أطلقت أشرعتها للرياح. أجل، إن الجو العام في العيد، والسحر الذي يحيط به وبكل التصرفات والأصوات والحديث يجعل الإنسان يشـــعر وكأنه يرتفع نحو السماء ببطء ويبتعد عن محله ومكانه الذي انطلق منه، ويعيش في مثل هذا الجو الساحر الذي تنهمر فيه الأضواء والأنوار.

في العيد نعيش الماضي والحاضر والمستقبل معا. يهيأ إلينا وكأن هناك سحرا غريبا في الأصوات المرتفعة من المعابد وفي المنازل التي نزورها وفي الأيدي المباركة التي نقبلها... سحرا ما أن نلمسها حتى تتفتح أمامنا منافذ عديدة للماضي. فنجد أنفسنا داخل مسجد قديم نجلس في صف واحد مع أجدادنا وأجداد أجدادنا. وحينما تلتقي شفاهنا بالأيدي الطاهرة نشعر وكأننا قد قبّلنا مئات الأيادي المباركة فننتشي بفرحة غامرة. وعندما نهنّئ أصدقاءنا وأحبابنا ونضمهم إلى صدورنا نحس وكأننا نضم أحبابنا الذين عاشوا قبلنا وقبل هؤلاء في عهود ســـابقة. كل حركة في العيد وكل فكر وكل تصور وكل كلمة أو حديث وكل تصرف يبعث شريطا زمنيا من أشرطة الماضي، ويحيا ويحيط بكياننا، ويملأ أفقنا، ويصبح ملْكنا، ويهب - حسب درجة ووسعة خيال كل منا- أنموذجا للبعث بعد الموت.

الأعياد في الحقيقة ترانيم قادمة إلينا من أمجاد أجدادنـــا ومن جذورنا المباركة. بسحر هذه الترانيم نصل في كثير من الأحيـــان إلى عوالم ما كنا

لنصل إليها من قبل، إذ ندخل إلى كل مكان بسهولة الأحلام، ونتجول في كل الأماكن بسرعة الخيال طاوين الزمان الذي نعيشه بأزمنة متداخلة بعضها في بعض. أجل، إن الماضي يعود إلينا بكل مجده السابق بدرجة تعايشنا مع سحر شهر رمضان، ويعود كل ما فقدناه من قبل، ونتنفس من جديد رائحة تلك الأيام النقية ونستنشقها بعشق لتمتلئ بها صدورنا، ونرتشف من الينابيع الفياضة الماضية، فنحسب أنفسنا في عالم آخر. وقد يبلغ بنا الاستغراق مبلغا نخال وكأن جميع من في القبور قد بُعثوا، وكل شيء ممزق ومبعثر هنا وهناك أشلاء قد تجمع وتوحد من جديد، ويرجع شتات الزمن الذي انقضى من أعمارنا ليحتضن أرواحنا، ونعيش -بجانب ما نعيشه اليـــوم وما عشناه بالأمس في أعمق الأذواق وأوسعها- في ذكريات لذائذ روحية ساحرة، حتى إن عناصر اللذة والأذواق في هذه النقطة -كما هي في الأحلام- تكون متغيرة على الدوام حسب نياتنا وأفكارنا وميولنا، وتتجدد على الدوام حسب رغباتنا، وتلبس الحال التي نريدها، وبينما كانت هناك رغبة واحدة إذا بها تنقلب إلى ألف. فكل ما شاهدناه وكل ما سمعناه وكل ما أحسسنا به نراه يتغير -بفضل سحر خارق- من شكل إلى شكل. وبذلك نديم حياتنا بتلونات عديدة من حس لحس، ومن فكر لفكر ومن لذة للذة أخرى.

عندما ينشق فجر يوم العيد تنطلق أصوات التسبيح والتمجيد من المآذن، وفي الدقائق التي يبلغ الجو الروحاني الذروة في كل مكان نشعر بأحاسيس غامضة وسرية تثير خيالنا وتأخذنا إلى الأعماق، بل إلى أعماق الأعماق، وتهمس لقلوبنا بمشاعر لم يفصح عنها من قبل، ولا يمكن بحال من الأحوال التعبير عنها بأي كلمات ولا بأي لغة.

أجل!.. إن نغمة وصوت الأذان عندنا، النابع من عواطف وأفكار الموسيقيين السابقين الكبار أمثال "العِطْري" و"دَدَه أفنْدي"، وأصوات التكبير والتمجيد والتهليل وأسلوبها وطعمها وجمالها، هو اللسان الخاص لهذه الأمة،

ولغتها ذات الأبعاد المتنوعة الكثيرة السارية في عروقها. هذه الموسيقى التي تهز عواطفنا وتعبر عن مشاعرنا كأنها نغمات تهبّ على أرواحنا من آفاق ما وراء الزمن.

المؤذن بهتافه المتلاحق وكأنه يصدر أوامر، والإمام الذي يرتجف صوته ويئن بكلمات سماوية، وجماعة المصلين الذين يهدرون معا مثل أوركسترا... كل هذا يجري بدرجة من الأصالة والمهابة ويبعث القشعريرة في الأجساد. وعندما نتمتم بهذه الأصوات المرتفعة من المعابد ونهمس بها نحس من جديد بماض طويل مجيد، بل أكثر من هذا بحقيقة عالمية شاملة، ونظرة تمتد من الأزل إلى الأبد، فنغرق في جو من السعادة.

إن المعبد -ولا سيما في أيام العيد- يمثل بجوّه الرقيق الناعم كالحرير، والدافئ دفء عش الطير، والمملوء حيوية... يمثل صفاء المشاعر، وراحة الوجود والاطمئنان، وغاية العيش، ومغامرة الحياة، وجذور المعاني لأمّتنا، وأسس ثقافتنا وخلود ديننا، وموسيقى لغتنا، ونظرتنا للحياة، ورأينا في الدنيا وأسلوبنا ولهجتنا، ويهمس لنا ليرينا الطرق المؤدية إلى الإنسان الحقيقي.

إننا نشعر على الدوام بهذه الأصوات التي تتردد في جوانب المعبد، ونجد في هذه الأصوات الدافئة انحناء السماء نحو الأرض، وتكامل الأرض مع السماء، وغمز النجوم لزهور الأرض وورودها، وبسمة الورود لأهل السماء، ونحس بالتواصل السري والسحري الدائم بين السماء والأرض ونكاد نراه رأي العين.

هذا الصوت وهذا المنظر وهذا الهمس الذي ينقل كل شخص -حسب قابلية روحه وعمق خياله- إلى عالم آخر يبعث في القلوب المؤمنة صورا رائعة من الجمال ترتعش لها الأفئدة وترق لها العواطف. وعندما تنتهي الصلاة وتختتم السياحة السماوية، ويودع المسجد مؤقتا، يعود الإنسان إلى الناس من جديد كأنه آتٍ من ضيافة الرحمن بعد أن اكتسب بُعدا وعمقا

جديدين، ويحتضنهم ويبادلهم التهاني، ويتقاسم مع كل من يصادفه في السوق والشارع، وفي البيت ومكان العمل، وفي المدرسة والمعسكر هذه الهبات والأعطيات التي أخذها واستلمها وامتلأ بها. وهكذا تكتسب أجزاء الزمان المحدودة ضمن بضع ساعات، بدرجة سعة القلب وعلو الروح، صفة فوق الزمان، فكأنه اكتسب خلودا. ويتوضح لدى الإنسان كيف أنه وهو في الدنيا قد أسس علاقات عميقة مع الأبدية وما وراء هذا العالم.

ولا أدري كيف كان من الممكن وما الزمان المطلوب أو النظام الذي يمكن الاستعانة به لكي يحس المسلمون صغيرهم وكبيرهم بكل هذه المشاعر وهذه الأحاسيس والخيالات، وبكل هذه العواطف المتأججة، وتنعكس كل هذه الأصداء في أرواحهم، لو استعانوا بطرق أخرى أو سبل غير هذه السبيل. وأنا لا أعتقد إمكانية هذا الأمر ولا نجاحه في الوصول إلى كل هذه الروحانية الشفافة. لأن بهجة الأعياد وفرحتها وسعادتها ولذّتها لا تنبع فقط من هذه الحياة المعاشة، بل من أبعاد الحياة التي سوف نحياها في دار العقبى. فكل من يعش في خيال البرج العاجي لقلبه، يلقه هناك سحر سيحسّه وسيذوقه في المستقبل إلى جانب ما ذاقه اليوم. ويتجول في عالم رؤى المستقبل الأكيدة التي تبدو لعالمه الداخلي أكثر ملاءمة ودفئا ونعومة. والإنسان في الحقيقة مجبول على التطلع والانتظار، يقضي معظم عمره في انتظار عوالم الأمل وأخيلته. ومعظمنا في انتظار جنة مرتبطة بمعنى لصيق بماهيتنا وذاتنا. وليس هذا الانتظار نابعاً عن عدم استحساننا أو عدم قبولنا ورضانا عن الحياة التي نعيشها، بل انتظار لمفاجآت إلهية لا تستوعبها خيالاتنا كبَشَر، ولا خطرت ببالنا، ولا على أسماعنا، ولم نذقها. والأعياد ألسنةٌ بليغة همس بصواب هذا الأمر من منافذ قلوبنا إلى أعماق أرواحنا.

# ما يذكّره الموت... وما بعده

يولد الإنسان لكي يموت... ويموت لكي يحيا... ويحيا لكي يعيش الحياة الأبدية... نأتي إلى هذه الدنيا فرادى... ونقطع الطريــق الطويل لهذه الحياة فرادى... وعلى الرغم من جميع النواحي التي نشترك فيها مع غيرنا فكل واحد منا يعيش حسب قدره هو... يعيش قدره حسب البرنامج المخطط لــه... ثم يودع هذه الدنيا دون أن ينظر خلفه، ويرحل لكي يعيش حياته الأبدية.

أجل!.. ما أن يخطو الإنسان خطوته الأولى في الحياة حتى يكون العد التنازلي قد بدأ بالنسبة له. بل إن هذا العد التنازلي يبدأ في بدء حياته وهو جنين في بطن أمه، أي يكون بداية النهاية له. ومراحل الطفولة والشباب والنضج والكهولة والشيخوخة ليست ســوى منازل مختلفة لــه. وحسب نصيب الإنسان وقدره إما أن يمر من جميع هذه المنازل ويستضاف فيها فترة، أو يجبر في نقطة مجهولة على ترك أحد هذه المنازل قبل بلوغ هدفه، مثلما يقذف أحد المسافرين من قطار متحرك في موضع ما قبل بلوغ القطار نهاية خطه، وهكذا تنتهي كل علاقة له بالدنيا. والذين تثار مشاعرهم وأفكارهم وتتقلب على لظى النار كل يوم من مثل هذه الحوادث في أثناء سفرهم هذا بسبب تفكيرهم بالمحطة الأخيرة، أو بسبب اقترابهم من خالقهم حقيقة، يحسون باليد الباردة للعدم وهي تجول خلف ظهورهم على الدوام، فتصفرّ منهم الوجوه، وترتجف منهم الأبدان، وهم يتوقعون نهاية سفرهم في كل لحظة، ويترنحون ترنح الأوراق الصفراء في الخريف، ويحسون بكل ألم في كل

آن بأنهم في قبضة الفناء والتحلل. وكلما مرت الأيام والأسابيع والأشهر والسنوات زاد وجَلُهم وخفقان قلوبهم، لأنهم يسمعون في كل صوت نغمة من نغمات الموت. وبنسبة النسائم التي تغذي شجرة الزقوم في قلوبهم تراهم يموتون مرات كل يوم ثم يحيون.

عندما تدور الأيام، ويقبل خريف العمر، يحس الإنسان أنه قد هُجر من قبل الجميع، وتُرك من قبل كل الأشياء... كأن جميع الموجودات قد أدارت له ظهورها وتركته وحيدا... يحس أن العواصف الباردة تصفِّر وتعوي من حوله، ويقرأ فوق كل ورقة خريف صفراء كتابات قدره الحزين، ويسمع صرخاتها، فيرجع وفي حلقه غصة، وفي نفسه انكسار، ولا سيما إن كان لا يؤمن بالحياة الأخرى. فهو يتخيل على الدوام في أعماق روحه شبح العدم بعد غروب حياته، ويلف القلق والخوف كيانه، ويشعر بالعرق البارد للموت يتصبب من جسمه.

لا يعود ما يموج حواليه من حياة زاخرة، ولا ما يضمه الوجود من ألوان مختلفة من الجمال يثيره... لا زقزقة العصافير، ولا أصوات خرير الجداول والمياه، ولا ثغاء الحملان، ولا المناظر الخلابة للطبيعة التي لا يَشبع ولا يرتوي منها الإنسان... لوحات الجمال هذه لا تعود تعني عنده شيئا... لأن كل صوت يسمعه يذكره بالموت، وكل لوحة جمال باقة حزن له... كل ميلاد إشارة إلى الموت، وكل المولودين أسرى في يد الموت... كل فرحة انخداع وسلوى زائفة. في العالم الداخلي لهؤلاء تطارد الآلامُ الآلامَ. وكما يحدث في الكوابيس تجثم المخاوف على قلوبهم وتنعقد ألسنتهم على الدوام. نظراتهم متكدرة، ورؤوسهم مشغولة بالهموم... وبسبب اقتراب النهاية ينقلب كلامهم إلى هذيان... وقبل دخول القبر يتصورون أنهم محاطون بالعظام العاجية للقبر وبالحيات والعقارب. أحياناً يحسون بأن أنوفهم لامست العدم،

وأنهم يصغرون ويصغرون حتى يتحولوا إلى ذرات من التراب، حتى إن بعضهم يتأوهون قائلين: "ليت أمي لم تلدني".

أما إن أتينا إلى الذين زينوا قلوبهم بالإيمان، ونظموا موازين أفئدتهم حسب الدار الآخرة، وأدركوا أن "الإيمان نور وقوة، وأن الإنسان الذي حاز على إيمان حقيقي يستطيع تحدي الكون كله"، وعاشوا ضمن هذا التفكير والإحساس... هؤلاء تراهم على الدوام في جو روحاني، وهم يتذكرون مرحلة طفولتهم كنغمات نشوة، ويبتهجون بوجودهم وبحياتهم. يقضون شبابهم كأبطال إرادة وفضيلة وعفّة مثل النبي يوسف عليه السلام، ويزينون مرحلة نضجهم بسلوك يكون قدوة لمن يأتي بعدهم، ويكونون كأضواء الطريق مرشدين إلى الصراط القويم على الدوام. ويقضون شيخوختهم بجدية وعزم وثبات "أولي العزم"، السائرين باطمئنان يذكّر باطمئنان الأنبياء، وكأنهم يسيحون في شعاب الجنة.

وبينما يكاد يقترب غيرهم من الجنون عند تعرضه لخسارة فادحة، أو لأزمة ومشكلة كبيرة، يحتمي هؤلاء بإيمانهم وآمالهم ويجنون ثمارها، ويحسون ببهجة وجودهم هنا وغدا في حياة أبدية في الآخرة، فيقضون حياتهم وكأنها أبيات من شعر جميل، أو كأنهم يسبحون في عالم من الخيال، إلى درجة أن أي إشارة إلى الله تعالى وإلى الدار الآخرة ينقلهم بمنطاد سحري إلى سياحة روحية خارج هذه الآفاق... إلى أعماق الفضاء. وبنسبة استسلامهم لمشاعرهم الفوارة ولسحر أفكارهم، نرى أن كل روح مؤمن يبتعد عن أسر المادة والجسم ويفتح أشرعته على الفضاء الرحب للروحانية، ويحس بجميع المشاعر الرومانسية التي تفوق كل تصور لعالم فوق هذا العالم المنظور.

أجل!.. ما أجمل المشاهد التي يشاهدها قلب كل مؤمن في هذا المعرض المليء بالأسرار... وما أكثر الخوارق التي يطلع عليها، وما أخفى الأصوات التي يسمعها، وما أكثر الأمور غير الاعتيادية التي يأتي وجها لوجه معها، وما

أكثر ما يتلقى من مديح من أنواع الجمال التي تحييه. وكم من مرة يُسحَر بمجموعات وقطوف من الأصوات، فيكاد يغشى عليه. وكما في الأحلام يستطيع الوصول في لحظة واحدة إلى كل ما يراه أو يسمعه أو يفكر به، ويحس بنفسه في غمرة شلال من السعادة والبهجة... يحس بكل هذا فلا يرغب أبدا في انتهاء عمره... ليس مثل عباد الدنيا، بل لكونه يصل إلى أنواع من الجمال الحقيقي وراء أستار الوجود، ولا سيما إلى الترددات والموجات المختلفة لصور الجمال المطلق.

والحقيقة أن هؤلاء، بفضل بذرة الإيمان في قلوبهم، لا يشبهون الآخرين الذين يخيم زقوم جهنم على أرواحهم، لأنهم يواجهون على الدوام عالم الآخرة بمناظرها الخلابة، ويتخيلون أنهم يتنـــزهون في سفوح الجنة التي يمكن رؤية الحق تعالى منها، ويعيشون حالة تكاد تتحد فيها الدنيا بالآخرة، والروح مع البدن، والمادة مع ما فوق المادة وما وراءها.

وعندما يأتي اليوم المرتقب الذي ينـــزاح فيه الستار عن العالم الآخر، تظهر بذرة جهنم الموجودة في الفكر مثل كابوس أسود يخيِّم فوق كل جانب، وتثور ثورة حمم البركان، فترتعب منها الأرواح، وتنتشر كضباب وكدخان أسود فوق جميع الآفاق، وتتحول إلى عذاب يكوي النفوس، وإلى مصيبة تنهمر كالمطر فوق الرؤوس. بينما تتحول بذرة شجرة طوبى الجنة الموجودة في القلوب المؤمنة إلى شجرة باسقة ذات أغصان متشابكة تبتسم للقلوب التي نمت فيها وترعرعت وبسقت، وتتعطر بالرَّوْح والريحان، وتنقل كل من تَمَسّك بأغصانها وأوراقها -مثل مصعد ســرّي- إلى الطمأنينة والراحة والرضوان وإلى الأبدية وإلى الجنة، وترفعهم إلى الأفــق الذي يشاهدون منه الجمال الإلهي. والخلاصة أن البذرة التي تحملها كل زمرة في قلوبها، تنمو حتى تعكس بشكل مفصَّل كل ما يختبئ من معان في هذه القلوب، وكل ما تشاهده وما تعيشه كل زمرة، وترى كل شيء عيانا بيانا،

ولا سيما عندما ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾(المدثر:٨-١٠) أو ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾(التكوير:١١-١٤).

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾(عبس:٣٤-٤٢). ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا ۝ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾(الإنسان:٤-٥).

في ذلك اليوم المذهل الذي يصبح عالي الأرض سافلها، وتنقطع فيه الروابط بين النجوم، وتنتثر يمينا وشمالا كحبات مسبحة، يكون قد آن الأوان لكي تنمو بذور جهنم الموجودة في الأدمغة، وبذور الجنة المستقرة في القلوب. أجل... ففي جانب نرى الصورة المرعبة الآتية: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتْ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۝ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝ فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾(الفجر:٢١-٢٦)، ومن جانب آخر نرى البشارة العظمى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر:٢٧-٣٠).

وطوال هذا الطريق يحس الإنسان بنشوة النعم وجمالها، أو بقبح المصائب وعذاباتها... بالنسائم الرقيقة الهابّة من الجنة... أو بريح السَّموم الصادرة من جهنم والتي تكوي حتى العظام: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾(القيامة:٢٢-٢٥). فأما الفئة الثانية فيقال لها: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ

ذي ثَلاَث شُعَب ۞ لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَب ۞ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۞ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾(المرسلات:٢٩-٣٤).

أما الفئة الأولى فلها البشـــارة الكبرى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلاَلٍ وَعُيُون ۞ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(المرسلات:٤١-٤٤).

أجل!.. ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾(الأنبياء:٩٧-٩٨) ﴿إِنَّ الَّذِيـــنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُون ۞ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْـــتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۞ لاَ يَحْزُنُهُمْ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(الأنبياء:١٠١-١٠٣).

ثم هناك فرحة المتقين عندما يأخذون كتبهم بيمينهم، فرحة تلف كيانهم وتنطلق كصرخات فرح وحبور وحمد وشكر: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۞ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۞ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۞ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِه فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَالَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۞ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾(الحاقة:١٩-٢٩). أما الذين أوتوا كتابهم بشمالهم فهم -كما ورد في الاية أعلاه- يئنّون في حسرة أليمة ويتأوهون.

أما المجرمون فهم في ضلال وسعر: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ۞ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾(القمر:٤٧-٤٨). أما المتقون فهم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـــاتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾(القمر:٥٤-٥٥).

النعم المنهمرة كالمطر، والتي لم ترها عين، ولم تسمع بها أذن، ولم تخطر

على قلب بشر من جانب، وجهنم التي تسمع لها شهيقا وهي تفور وتكاد تميز من الغيظ من جانب آخر: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۝ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ۝ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾(ص:٤٩-٥٢) ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾(ص:٥٥-٥٨).

بعضهم في فرح وحبور، لأن النعم تنهمر فوق رؤوسهم، وبعضهم في ترح وغمّ وهمّ: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ۝ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ۝ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾(الواقعة:٢٧-٣١) ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ۝ لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (الواقعة:٤١-٤٥) ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾(الفرقان:٢٤).

وبينما تمتلئ قلوب هؤلاء بلذة النعم المهداة لهم، تلهج ألسنتهم بالحمد: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر:٣٤-٣٥).

# الأفق الذي يبرق

عندما يصارع الضوءُ الظلامَ يصل إلى عمقه الحقيقي... والجمال يظهر بشكل أفضل عندما يحيط به القبح... كما يظهر تفوق الأخيار عندما يكونون بين أشرار، على الأقل بالنسبة لبعضهم. وعندما يكون المجتمع في حاجة للأمن والطمأنينة يدرك بشكل أفضل حاجته الماسة إلى هذا الأمن ولأجله يموت و يحيا. ولا يعرف طعم الراحة إلا من ذاق مشقة التعب والإرهاق، كما لا يعرف قيمة الجنة إلا من ذاق أهوال المرور على الصراط. أحلك وقت للظلام هو في الوقت نفسه بشائر أنوار الفجر. والليل يحمل جنين نور النهار، ويحمل برد الشتاء وثلجه جنين الربيع. وعندما تنتهي الأسباب ولا يعود لها أي تاثير تتوجه القلوب إلى صاحب القدرة اللانهائية. وحسب قاعدة "المشقة تجلب التيسير" فإن المشقات تفتح أبواب اليسر على الدوام.

وفي هذه الأيام التي نتقلب فيها في دائرة مفرغة من الصعاب والفوضى وعدم وضوح الرؤية نعرف مدى أهمية الطمأنينة والراحة، ونعرف قدر النور بعمق أكثر، ونرى بشكل أوضح وأعمق جمال الإيمان وجمال العبودية لله، ونشعر في وجداننا بالثقة والاطمئنان الحقيقي الذي ينبع من الإيمان. نحس بشوق أكبر نحو الخير وبازدراء أكثر نحو الشر. ولكي نتطهر أكثر نستحم في شلالات هذه الأيام المضيئة، ونحنّ إلى شهر رمضان، ونشتاق إليه مرة أخرى.

من يدري كم مرة رأينا وعشنا شهر رمضان، ولكننا في هذه الأيام التي أحاطت سلبيات مختلفة بالأمة، بدأنا نعيش أيام غربة ولوعة وقسوة تكاد

تقصمظهر إرادتنا وعزمنا. ومن كثرة ما تعرضنا للهجوم وللإهانة وللظلم في غمار هذا الجو القاسي الذي تحولنا فيه إلى غرباء في أوطاننا، أصبحنا نتوقع في كل يوم اعتداءً جديدا، وبدأنا وكأننا تعودنا على أن نكون مظلومين. وقد يعود هذا إلى الانسياق العبودي لدينا. هنا نفتح صدورنا لربنا وندعوه بإخلاص وبحرقة متضرعين إليه: "يا ربنا!.. يا مسبب الأسباب!.. بعد تجهم الأعداء وتجاهل الأصدقاء مع ضعفنا وعجزنا فقد انتهت ونفدت الأسباب... لقد أحاطت بنا الحيرة ونحن نسلك الطريق إليك مثلما حدث لسائر السائرين في هذا الطريق... لا تدعنا وحدنا، ولا تجعلنا من منكودي الحظ من المتعثرين والوحيدين في الطريق يا رب!" نقول هذا ونتأوه. وبقدر الآلام التي نتعرض لها، ونتجرع غصصها، ندق باب رحمته بيد العجز والحاجة... ندق بابه فقط لا باب غيره، وننتظر منه توجهه والتفاته إلينا، لأننا نوحده ونثق به ونتوكل عليه. ولا أذكر أننا توجهنا في شهر رمضان آخر، وعشنا بمثل هذا العمق الذي أحسسناه في قلوبنا، وقد لا نعيش مثله أبدا.

أجل!.. كم من مرة أدركنا هذا الشهر المبارك، وكم من مرة تعرضنا إلى نسائمه المحملة بالكرم واللطف، وكم من مرة حاولنا كأمة أن نقيّم هذا الشهر المبارك بأيامه المجيدة ونستفيد منها كما يجب. نتذكر تلك الأيام التي انتشرت فيها الحرب والضرب، وغطى الضباب والدخان على كل شيء[1] ونتذكر أيام شهر رمضان الحزينة التي كانت تبرق وتلتمع مرة وتنطفئ أخرى مثل صواريخ الاحتفالات... في تلك الأيام الحزينة من شهر رمضان التي كان الفقر المادي والمعنوي فيها متداخلا بعضه في بعض ومتراكما، ربطنا عزمنا بآمالنا مترنمين ببيت الشعر الآتي:

(١) يشير الكاتب هنا إلى أيام الفوضى والاغتيالات المتبادلة بين اليسار المتطرف واليمين في تركيا في السبعينيات التي قاست منها تركيا كثيرا، ولم يعد هناك أمان للنفس، وأدت في النهاية إلى الانقلاب العسكري في ١٩٨٢. (المترجم)

عندما يتجلى الحق يكون كل شيء سهلا ميسورا،
يخلق أسبابه في لحظة ويهبه إحسانا منه وفضلا...

كنا في ترقب أيجابي ننتظر انفراج بـــاب غير اعتيـــادي بين الإفطار والسحور... كان شهر رمضان آنذاك شـــهرا فعالا وحيويا... ولكن يتيما في الوقت نفسه.

شـــهور رمضان تلك كانت من جانب متشابهة مع شـــهور رمضان الأخرى وغير متشـــابهة كذلك. كانت فيها فصـــول من خيبة الأمـــل والتوجس... طلعت علينا تلك الشهور وأشرقت... ثم غابت وغربت بعد أن أهدت لنا -مثل نجوم السحر- أغنية وداع حزينة.

لا شـــك أن كل شهر من شهور رمضان رفرف بطعمه الخاص فوق رؤوسنا بصوت رقيق كرفرفة أجنحة الملائكة، وأهدى لنـــا نورا من أنواره التي قد نستطيع حدسها أو لا نستطيع، ثم ودعنا ورحل. والقلوب اليقظة التي تستطيع سماع هذا الصوت في أعماق وجدانها تكون كمن تهرع على الدوام نحو ساعة حظها وسرورها، وكأنها تتوجه نحو شـــهر رمضان الذي يحمل معه بشرى الولادة الأبدية وتنصت إليه.

أحياناً يكون الإنسان -حسب تلك الأحوال- مرتبطا بالمعاني التي تلهمها تلك الأيام وتلك الليالي، فيحس بهدوء وراحة وكأنه يعيش حياة متناغمة وموزونة وكأنه قد انفصل من جو هذا العالم المملوء فسادا وتلوثا. هذا الفساد الذي يبعث القيء في النفوس. كأنه يمشي بكل فرح نحو أفق مشرق مملوء بالأمل، لا يرى من حوله سوى لوحات الجمال والفرح، ويرى الحياة التي يعيشها مملوءة بالنظام. كأنه طير سابح في الفضاء بكل هدوء وراحة لا يعكر صفوه أحد. وأحياناً يعيش انهزاما داخليا وكأنه في نهاية خريف الأمل والبهجة، قد تصدعت إرادته، وانكسرت عزيمته وضاق أفق

أمله، وبهت روحه، وبدأ بالتفكك والانحلال داخليا، وبينما كان بروحه ومعنوياته طيرا سابحا في الأعالي إذا به يخلد إلى الأرض.

والآن هناك الكثير من الضغوط وأنواع من الإكراه والظلم والتحكم والاستبداد، مما يسَّر لنا إمكانية اكتشاف ذاتنا. أجل!.. فكما يشعر من يحمل في كل عضو من أعضائه جرحا أو ألما شعورا قويا وحادا من الألم، أي يشعر بالألم في كيانه كله، كذلك حالنا نحن الذين نعيش منذ سنوات عهدا من الظلم والتحكم والطغيان والغدر، فقد أدّى هذا إلى انتشار وعي صامت ولكنه عميق... وعي تدريجي ولكنه مستمر وقوي ومتصف بالعزم بأن الحق لا يُهدى ولا يُتفضل به، ولا يُتصدق به من قبل أحدهم. لذا نمدّ إلى شهر رمضان أيدينا في جو من الإشراق الروحي لكي يفتح لنا بابا نحو أيام جديدة مضيئة للمستقبل، ولكي نتوجه ونرجع إلى ذاتنا وهويتنا بشكل يشبع العين والقلب، وبِصَمْت الأنهار الجارية بهدوء وبمهابة، وبرقة النسائم المنعشة التي تهبّ بكل رفق. والذين يشاركوننا هذه العاطفة والفكر يكتفون أحياناً بالتمهل والانتظار مع أنهم يملكون قابليات كبيرة وإمكانات واسعة في مجالات عدة مثل الطائر الذي يظل محلقا في مكانه بتوازن دون أن يرفّ بجناحيه، وأحياناً لا يستعملون -لحكمة ما- العديد من البدائل المتاحة لهم، ويفضلون انتظارا فعالا وليس انتظار غفلة. ونراهم أحياناً وهم يتوجهون بحيطة وجدية تفوق ما كنا ننتظر منهم نحو المبادئ التي عشقوها وارتبطوا بها بقلوبهم.

يتوجهون إلى الله تعالى بالصوم وبصلاة التراويح وبالعبادة مثل توجه الملائكة الكرام... يتوجهون دون توقف بكل إخلاص وبذلّة شديدة وبرقة بالغة... الدموع في أعينهم... والرجفة والخشية في صدورهم.

هؤلاء الأبطال الذين ينشرون النور والضياء حتى الصباح مثل الشموع المحترقة، ويجاهدون ويحاربون الظلام، والذين تركوا أمر العيش من أجل

النفس ونذروا أنفسهم من أجل العيش لهداية الآخرين... هؤلاء بيدهم وسائل ووسائط نفخ في روح هذه الأمة وفكرها، وبالبراهين المستخلصة من لب وعصارة ماضينا، لا يفترون عن محاولة إعادة تلك الأيام المجيدة دون يأس أو كلل. ونحن نثمن جهودهم هذه بجهود أولي العزم من الناس... هذه الجهود المباركة تجعل من وقتهم وزمانهم هذا زمنا سامِيا، وليس كشريط زمني قصير ومحدود. فمن ناحية ماهيته ولبّه وجوهره وبالألطاف الإلهية المنهمرة عليهم يصبح هذا الزمن متصلا بأقدم القديم وبالعهد الذهبي المجيد من ماضينا من جهة، ومن جهة أخرى ممتدا نحو الأبدية. حتى إننا لو نظرنا إليه بنظرة الروح المرتفعة فوق الزمان والمكان، ورصدناه بمرصد الروح، لرأينا بكل بهجة ودهشة كيف أن العديد من المستحيلات تتحقق بفضل الإيمان، وتتم به.

من يدري كم من الأمور المخفية والسرية تكشف عنها كلَّ يوم مثلُ هذه الرؤى، وتفتح الأبواب المطلة على الحقائق أمام الذين يملكون مثل هذه الأسباب، وتهديها لنا، وتنفث الانشراح والبهجة في قلوبنا المهمومة، وتنقذنا من الارتباط بأنفسنا وبأحوالنا، وتنقلنا إلى الجو المتفائل للإيمان وللأمل.

شهر رمضان أنسب موسم للدعاء والمناجاة والتوجه إلى الله وأفضل منبع لتداعي الأفكار والمشاعر. ففي جوه الجميل الملون بألوان قوس قزح تتماوج القلوب كتماوج رائحة البخور من المباخر، وتحتفل به الأرواح في سحر كل يوم، وتغرد في بساتينها وخلجانها مئات البلابل. وفي الجو المضيء لشهر رمضان لا نسمع في كل حال من أحوالنا، وفي كل طـــور منها وفي كل عاطفة من عواطفنا، وفي كل عبادة من عباداتنا بعض الأصوات وبعض الكلمات وبعض الأفكار والملاحظات من ماضينا المجيد، بل كم من نداء آت من وراء الأفق نحسها ونسمعها، ولا سيما إن كان شهر رمضان مثل شهر رمضان عامنا هذا الذي جاء بعد عهد طويل من الإمساك، والذي

مزق السكون المخيم علينا منذ قرون!.. أما نحن الذين نؤمن بأن شهر رمضان منبع لمثل هذا النور، فإننا نصل إلى مثل هذا التناغم لا بنسبة ضآلتنا وقلة قيمتنا، بل بنسبة عظمة شهر رمضان وبركته، وبنسبة وسعة رحمة ربنا، ويأخذ كل شيء مكانه الطبيعي، حتى نصل إلى عمق أفقي وتبلغ قلوبنا سعادة الشعور بالقرب من الحق تعالى، وترتعش جوانحنا أمام تجليات رحمته، ونشعر بنسائم الأنس به وهي تحيط بنا من كل جانب، فنقول كما قال الشاعر:

يا رب!.. عدمُ معرفتك حسرة،

والقرب منك جمرة نار،

جمرة في صدورنا،

تفوق جمرات نار المواقد...

أما عشقك... آه من عشقك...

إنه الجنة الحقيقية...

ماذا لو أحييتني وبعثتني،

بعشقك يا رب!..

نكرر مثل هذه الأبيـــات ونعيد النظر في توحدنا وتكاملنا مع أفقنا ومبدئنا، ونتلاءم مع هذا الجو إلى درجة أننا نفرح فرح الأطفال الأبرياء من جهة، ومن جهة أخرى يستطيع روحنا الحساس سماع ألف آهة في مركز عالم ذي قطبين،[1] والعيش في ثنائية تعادل فيها آلام روحنا أفراحها، وقلقها بهجتها، وآمالها -المستندة دوما إلى الحيطة والحذر- صامدة وقوية، ومخاوفها في يد الرجاء. ولكننا نتوجه دائما وأبدا بمشاعر عميقة تستهدف التوحيد من أفق إلى أفق بروح مرتجف تكاد قبته تتفجر من حمل مشاعره وتتفتت.

---

(١) كان هذا قبل انهيار الاتحاد السوفييتي. (المترجم)

أحياناً تقوم العين في الساعات والدقائق التي نعيشها في هذه الأيام المباركة بإفشاء أسرار عالمنا الداخلي بذرفها الدموع، فتعبر عن أفكار ما كنا نستطيع التعبير عنها بكل هذا الوضوح، فنفرح بهذا، ولكننا في الوقت نفسه نرجع إلى أنفسنا عندما نرى أن العين -بدموعها- قد تقدمت على الأذن والقلب، فيظهر أمامنا هاجس ألا تكون هذه الدموع خالصة له.

أحياناً تكون نسائم شهر رمضان من الرقة والأنس فوق كل توقع، فتمتلئ قلوبنا بأحاسيس لا نستطيع وصفها أو تقييمها، ونحسب وكأننا قد استسلمنا إلى تيار سري غامض أو أننا فوق جسر ينقلنا إلى الجنة. ولكن عندما ينقطع هذا التيار، وتنتهي سياحتنا هذه التي أوصلتنا حتى حافة شاطئ الميناء دون أن ندري، نحس بأننا نكاد نخرج ونُحرَم من طريق الجنة هذا، فنشعر برجفة تنتشر في أوصالنا. ولكن سرعان ما تتلقفنا تداعيات أعمق، وموجات أخرى أكبر وأقوى على غير توقع منا، فنجد أنفسنا وقد تجاوزنا حدودنا، ودخلنا بلطفه في شلالاته، ونستمر في هذه السياحة الأنفسية وكأن شيئا لم يحدث.

في كل ليلة من ليالي رمضان نهبّ من فراشنا وكأننا مقبلون على سفر بعيد، ونضع حظراً على النوازع الجسدية. وبمشاعر خفية ومقفلة على الدنيا ومفتوحة على "الحبيب" نتوجه إليه وحده، ونكاد نعدو من لهفتنا وفرحنا وشوقنا. وبالنسائم السحرية التي تهبّ علينا من حولنا وتحتضن كياننا وتلفه، نبتعد عن المشاغل اليومية وندخل في جو الآخرة. في مثل هذه الأحوال تنفث ساعات الإشراق هذه سحرها في أرواحنا، وتشعل في قلوبنا شرارة الخلود والأبدية. تحمل مثل هذه اللحظات من الأنس واللطف والحلاوة والصدق بحيث أن كل ثانية منها بل كل ثالثة كلما توزعت وانتشرت وتعمقت في حنايا ضلوعنا، نحس وكأننا دخلنا إلى عالم الوصال، إلى درجة

نتخيل فيها أن قبة وجودنا تكاد تنشق وننتقل إلى العالم في الطرف الآخر. وهذه وتيرة طبيعية كما قال الشاعر:

يا قلب!.. صاحبُ النفس هو الذي طلبها...

لم الحزن؟ هي ليست لي وليست لك...

كم تكون حلاوة هذه الدقائق وهـــذه اللحظات في العمر ضمن هذه المشاعر اللدنية، حتى إننا قد نشعر بالامتعاض من مرورها السريع، ونتمنى دوامها ونقول: "ليت مثل هذه اللحظات الحلوة من شلال الزمن لا تسيل بمثل هذه السرعة، ويا ليتنا كنا نملك الإحساس بها بكل ثانية أو ثالثة أو عاشرة، مثلما يحس الإنسان بحلاوة شراب بارد في كل نقطة من النقاط التي يمر عليها".

تشرق الشمس في كل يـــوم على مشاعرنا هذه. وعندما يرتفع الأذان فوق المآذن في الظهر تتداعى هذه المشاعر مرة أخرى. وكل غروب يهب لأرواحنا أقداح الفرح والحزن. وتلفنا كل ليلة بسحر الخلوة، وتفتح مغاليق ألسنتنا لنبثّ لواعجنا، فيسرع كلّ منا إلى سجادة الصلاة لينفس عن حسرته وعن لواعجه وعن فرحه... يئن أحياناً، ويصرخ من الفرحة أحياناً أخرى.

وهكذا يمر شـــهر كامل في أفق فكرنا بنفس الروح وبنفس المعاني التي تبحث عن طرق الارتباط به تعالى... يمر الشـــهر ويمضي على الرغم من توسلاتنا وضراعاتنا بألا يتركنا. ولكن ما أن يغيب هلاله حتى تهل علينا شموس العيد التي تنير آفاقنا وتملأها نورا وضياء.

# مشاعر العيد

العيد هو عصارة شهر رمضان بكامله، ولبّه.. وهو يقبل علينا وينثر على رؤوسنا هباته من وراء هذا العالم، فإذا هو بشرى البداية في ضمن النهاية. إن الإحساس بهذه البشرى يختلف من فرد لفرد ومن مجتمع لمجتمع. فبمقياس الاحساس العميق بشهر رمضان الذي مضى وانقضى، وبمقياس تلون القلوب بلون هذا الشهر، وانصباغها به، وبمقياس سمو المشاعر إلى ما وراء هــذه الآفاق، بل إلى ما وراء الوراء... بهذا المقياس تكون بركة العيد ذي الدلال، ونشوته ومقدار سحره.

كل صوت وكل همسة ونأمة، وكل حركة في مثل هــذا العيد الذي تستشعره القلوب في أعماقها، هي تعابير وإشارات مبهمة للأرواح، ولكنها سحرية إلى درجة أن العارفين بالحال يدركون -وإن كان بمقياس صغير- أنه ما من تأثير يفوقه. ويتعامل الشــاب والشيخ، والمرأة والرجل، والعالم والجاهل، والتلميذ والأســتاذ، والعامل وأصحاب الحرف من الذين يملكون منافذ وإن كانت صغيرة في قلوبهم مع سحر هذه التعابير بمقاييس مختلفة، فيتلون كل مجلس يوجدون فيه بعطر العيد، وتتلألأ البسمات فوق العيون وعلى الشفاه، وتُسقي القلوب بشراب الكوثر.

يهب العيد أنسه لكل إنسان في كل شــريحة من شرائح المجتمع، ويتسلل إلى أعماق الجميع، ويُسمع صوته للجميع، ويعمل ما بوســعه ليجذب الجميع إلى جوه. لا يُكره أحدا ولا يرتبط بالبروتوكولات، ولا يهدد من لا يجاريه في السر أو في العلن. ولكن يهرع الجميع إليه من كل قلوبهم بقوة الفطرة الســليمة الموجودة لديهم، ولا يكتفون بالتهنئة، بــل يعيشونها.

وبينما يعيش أصحاب القلوب المؤمنة الذين أدركوا العيد دقائقه وثوانيه النورانية التي تعدل السنوات، ويشعرون في جو الفرح والحبور المحيط بهم أينما ذهبوا وأينما تجولوا وكأن هناك أشياء تنثر على رؤوسهم من فوق وتصبّ، وتلفّ كل كيانهم، وتدخل إلى أعماق أرواحهم، تراهم يتوجهون إلى المصدر الذي وردت منه هذه الهبات، ويحسون بأن كل موجود حواليهم -حيا كان أم جمادا- يذوب أمام ناظرهم، وأنهم مدعوون إلى عالم آخر، فيعيشون على الدوام خارج حدودهم. والذين يشعرون بموهبتهم هذه في مثل هذا الجو الروحي، ويعرفون كيف يستنطقونها، يستطيعون بنسبة غنى الأفق المضيء لحدود معرفتهم، ولمدى حيوية عشقهم وشوقهم القيام بمزج مشاعرهم العميقة هذه، فيصلون هم ومن حولهم إلى عوالم من لذة العشق، وإلى أنس فريد في العلاقات الإنسانية.

كل صوت وكل نفس وكل تصرف في شهر رمضان يبدو لنا -في كثير من الأحيان- وكأنه أنغام الغناء المؤثر الرقيق لأمهاتنا قرب مهادنا. وأحياناً تبدو لنا هذه الكلمات وهذه الأفكار وهذه التصرفات من الرقة والحلاوة والليونة بحيث أننا في كل مكان نتجول فيه نحس أننا -بعد هذا الاستحمام الذي تطهرنا به- بخفة الطير، وأننا أصبحنا كأصحاب الأرواح الهائمة فوق المكان وخارجه.

وعندما يقابل الإنسان في العيد شخصا ويلقى منه معاملة طيبة، يتوقع مثل هذه المعاملة من الآخرين كذلك. فإن أضاف إلى هذه المتعة التي يلقاها طوال اليوم في عالم الحقيقة والواقع متعة تخيل وتصور ما سيلقاه من الآخرين يكون قد أنشأ عالما ساحرا جديدا خارج هذا العالم المحدود بأبعاده الثلاثة، وخارج هذا الزمان النسبي، عالما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يحط به عقل دنيوي.

أجل!.. أحياناً يكون العيد بالنسبة لهؤلاء الذين يتلبسون العيد تماما، بل يتحولون إلى معنى العيد نفسه بكل أحاسيسه ووجده ولهفته ومشاعره... يكون شيئا خارقا ونعمة مهداة من الله تعالى إلى درجة أن الإنسان يحسب أنه قد بدأ يتنـــزه في سفوح الجنة في يوم رؤية الله تعالى والنظر إلى جماله، بل إن الإنسان ليحسب أحياناً العيد شقيق روحه، أو نسخة ثانية منه، ويحس أحياناً كأن للعيد أجنحة مصنوعة من ريش الملائكة، فيشعر في كل مكان يتجول أو يتنـــزه فيه بنفحات هذا الرفيق الخفي وشوقه. صحيح أن العيد -بمقياس ما- ينطق كل أحد بمنطقه، ويظهر حكمه على الجميع، إلا أن له تأثيرا آخر وتأثيرا متميزا على بعض الأرواح.

أحياناً يتحول العيد بأصوات التكبير المرتفعة من المآذن، وبالأنين الأخروي للمحاريب، ويسمو إلى شيء آخر، بحيث إن الكثيرين يشعرون في تلك الساعات المباركة كأن جميع معاني السماء وعصارتها تنهمر عليهم، وأن أسرار العالم الآخر بدأت تهبّ كغيث مدرار، فيشعرون كل آن وكأنهم يتجرعون كؤوسا من جو الجنة ومن رحيقها.

في كل عيد تقريبا نتخيل -حسب قوة العوامل ونسبتها التي تثير مشاعر الفيوضات الربانية عندنا- وكأن العيد قبة محاكة من النور والألوان والمعاني والروح فوق رؤوسنا، وكأننا نستطيع مشاهدة اللانهاية من المنافذ الصغيرة أو الكبيرة الموجودة في هذه القبة. وبفضل هذا الأفق الواسع الذي يهبه الإيمان للمؤمنين يفكر المؤمن كيف أن هذا الزمان والمكان المحدودين يملكان أبعادا عديدة. وكمثال الملائكة التي تملك أجنحة وأبعادا عديدة، ننتقل بها -وإن كنا محدودين بزمان ومكان معينين- بمشاعرنا وأفكارنا من خلال مرايا عديدة إلى الماضي وإلى المستقبل وكأننا ننظر من خلال فانوس الزمن الحالي، فنعيش في آن واحد أزمانا عدة، وفي أماكن عدة. وأحياناً تتوسع هذه الحال فتضم آخرين إلينا، ونقوم بصفتنا مؤمنين نحمل في وجداننا بذرة ونواة

الإيمان بوجود الجنة، فنتخيل أننا نرفرف بأجنحتنا فوق تلال الجنة مع الأرواح، ونتوجه معها نحو اللانهاية. وأمام هذه الهبات التي تفوق لياقتنا يترنم كل واحد منا بأبيات شعر:

لستُ أهلا ولا مستحقا لكل هذا الإحسان،

فلمَ وهب لي كل هذا اللطف والإحسان؟

ثم نرجع إلى أنفسنا لنقول: إذن فهذا هو العيد. أحياناً، وبفضل فوران أيماننا بصاحب الرحمة غير المحدودة فإن طوفان الأضواء التي تتفجر من وجداننا وتنتشر حوالينا تقوّض كل الموانع والحجب المادية حولنا وتجعلها جذاذا، وتغرق كل جانب بالنور إلى درجة أن القلوب تحسب وكأنها تطالع أعماق السماء من خلال منافذ ذلك المرصد الكبير، وتطلع على أسرار الوجود الموجودة خلف الأستار، فتعيش -وهي في هذا العالم المحدود الضيق- في عوالم جديدة، وترتفع وإن كان بخيالها وروح الفضول فيها من هذا المكان ذي الأبعاد المحدودة، لترى بأن المكان هو في الحقيقة "لا مكان"، والجمادات أصحاب حياة وروح، والتجليات الإلهية ظاهرة عيانا بيانا، فنحس برجفة في كياننا، ونشعر بجانب رعشة المهابة هذه بحرارتها، ونقول ونردد مع الشاعر:

الشعور بقربك يا رب جنة

فاسعدني بهذا الشعور دائما وأبدا...

ونتذوق من طعم العيش في حماه، والانتساب إليه لذة لا توصف، ويبدأ بالبحث عن الطرق الموصلة إلى "حظيرة القدس".

نسرع إليه على الدوام... نعيش مرتبطين به... ونحتضن كل شيء من أجله... نتأمل الربيع بكل نشوة... نشم الورود... نكون في مسامرة مع الوجود... أحياناً نخاطب الجبال والتلال والهضاب والسهول... نعرض كل

صفات المؤمن تجاه الحياة وتجاه الوجود... ومن حين لآخر نقوم بدق بابه بأرق الأمنيات وبأنين صـــادر من الأعماق، ثم نضع جباهنا على عتبة بابه ونفضي إليه بكل ما يعتلج في صدورنا.

أصوات الأذان، وإقـــامة الصلاة، والصلوات، والأدعيـــة، والمنـــاجاة والاستغفار، والمراقبة الداخلية للنفس هي أنواع مختلفة من رموز التوجه نحو باب الله تعالى وإشاراته. ومع أن من المستحيل أن نعرف كيف ستُستقبَل هذه التصرفات وهذه الأصوات المرتفعة أمام ذلك الباب، في ذلك العالم الآخر، حسب نسبة الاخلاص والتقوى، وحسب وجود أنفاس الروح فيها، ولكننا نحس أحياناً بكياننا وهـــو يذوب في مثل هـــذه المشاعر والأدعية والمناجاة. أحياناً عندما نعجز عن التعبير عن الانفعالات التي تمور في أعماقنا، ولا نجد الكلمات المناسبة للإفصاح عنها، نركن إلى صمت فائر. وبانفعالاتنا الصامتة هـــذه ننتظر ونترقب جوابا من مكان ما لموقفنا الداخلي العميق واللدني. وعوضا عن صمتنا نترقب صوتا هادرا. ومع أننا لا نستطيع سماع هذا الصوت الآتي بوضوح، ولا نعرف أيأتي من الملائكة أم من الروحانيين أم من المنافذ المجهولة في وجداننا، إلا أننا نؤمن بأن مثل هذا الجواب سيأتي حتما، وسنسمعه من خلال الرعشة التي تصيبنا، فنرتجف من الخشية أو ننفس عن أنفسنا بدموع الفرح التي نذرفها.

في كل وقت تقريبا عندما نمر بهذه الحالة الروحية نحس أن نظرتنا للحياة تتبدل وتتغير. ويبدو لنا وكأن الوجود والحوادث تعيش مرحلة تغير وتميّز. وأمام هذا الوضع الخارق وغير الاعتيادي الذي نرى أنفسنا مندفعين إليه ندرك تماما أنه من المستحيل على البعيدين عن نور هذا الدين أن يسمعوا أو أن يفهموا ما نحس وما نسمع.

بفضل هـــذه المشـــاعر وهذه الأحاسيس تبدأ أحياناً الحقائق المقدسة والمبهمة التي ترسخت في أرواحنا في العهود المبكرة بشكل معارف بدائية...

تبدأ تتفتح كالأزهار النضرة في شعاب قلوبنا بفضل النور والإيمان اللذين يملكان قوة إنباتية. فنرى كيف أن تلك الحقائق المجردة التي قبلناها ببراءة الأطفال تعود إلى كياننا ووجودنا. هنا نذوق ونحن في دهشة طعم تحول هذه الأسرار النائمة في صمت في أعماقنا إلى براعم ثم تفتحها أزهارا.

والخلاصة أن العيد يولد كل مرة في سماء دنيانا بَدْراً، ويمتد في أفقنا مثل قوس قزح... وهذا النور النابع من وراء عالمنا يهب لنا فرحة تفوق فرحة ليلة عيد البحرية التي تأخذ فيها المدن عندنا كل زينتها، وتطلق فيها صواريخ الاحتفال إلى السماء. وفي كل ناحية من نواحي الدنيا يحلّ فيها هذا العيد يقوم الناس له تعظيما وحبا مثل قيامنا نحن. لأنه يهب لأرواحنا أحلى الأشعار بأجمل العبارات، وأرق الأنغام، ويفتح الأبواب أمام فضولنا بإيماءاته وإشاراته، ويهمس جو الآخرة في قلوبنا.



# فهرس

## المترجَم للعربية من الفكر الموسوعي لفضيلة الشيخ فتح الله گولن

١. النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية (مجلدان)

٢. سلسلة النور الخالد (٧ أجزاء)

٣. القدر في ضوء الكتاب والسنة

٤. أسئلة العصر المحيِّرة

٥. روح الجهاد وحقيقته في الإسلام

٦. طرق الإرشاد في الفكر والحياة

٧. أضواء قرآنية في سماء الوجدان

٨. الموازين أو أضواء على الطريق

٩. ترانيم روح وأشجان قلب

١٠. ونحن نقيم صرح الروح

١١. حقيقة الخلق ونظرية التطور

١٢. التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح

www.ar.fgulen.com